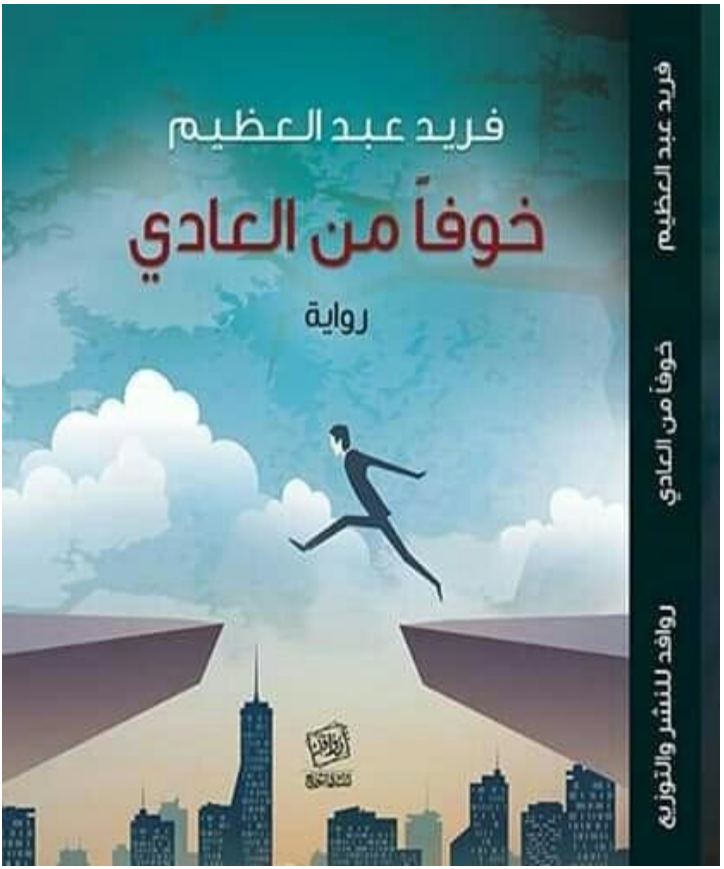
فريد عبد العظيم
خوفاً من العادي
رواية
فريد عبد العظيم
خوفاً من العادي
روافد للنشر والتوزيع

فـريـد عبـد الـعـظـيـم

# خـــوفًــا مـن العـادي

# روايـة

عبد العظيم، فريد
خوفًا من العادي / فريد عبد العظيم
روافد للنشر والتوزيع. 2018 طبعة أولى، القاهرة
258 ص ؛ 22 سم
1-رواية 2-العنوان أ – المؤلف
رقم التصنيف: 813.008
رقم الإيداع: **2018/ 15485**
الترقيم الدولي **I.S.B.N.: 978-977- 751 -432 -3**

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

**تصميم الغلاف: رائد مجدي**

# (1)

لست من مواليد العاصمة.

حضرت إليها لأول مرة لتقديم أوراقي للجامعة، أصبحت من سُكانها. في البدء كانت المدينة الجامعية، وبعد التخرج في شقة الغُزَّاب. لم أفكر في سكن خاص إلا قرب الزواج.

اعتدت الغربة، فهي فرض عين على أغلب سكان الأقاليم. كان من الممكن أن أؤخر غربتي بضع سنوات على الأكثر وأدرس في جامعة المحافظة، لكنها حيلة لا أكثر للمماطلة برهة، ومن ثَم الذهاب إلى القاهرة.

القرار كان خاطئًا. فتلك المرحلة العمرية مرهِقة.. طفل بملامح رجل، صوت خشن ولحية آخذة في الظهور. تَغيُّر جسدي يتشكَّل ليتضح للعيان، وعقل لم ينضج بعد ليتخذ قرارًا بمفرده.

– تجارة خارجية كلية مستقبلها حلو قوي.. أخويا فيها وأول ما يتخرج هيشتغل في وزاره الخارجية.

جملة قالها أخرق لطائش، عجَّلت بغربتي. في البداية رفض والدي الفكرة، ولكنه أمام اندفاع الشباب وحججه القوية رضخ في الأخير. فكيف لموظف بمصلحة الري أن يقف عائقًا أمام التحاق ابنه بوزارة الخارجية.

وافق مُرغمًا على تعجيل تغريبة ابنه التي يوقن أنها لن تنتهي.

– هتسيب ديك البرابر يفارق ويسيبك يا محفوظ يا شهيد؟!

قالها أحد أصدقائه في نهاية قعدة غيط، بلهجة اختلط بها الإشفاق بالهزر.

– مش هقف قدام مستقبله.

رد أبي وانصرف.

"الشهيد" لقب أطلقه أحد سكان القرية على نفسه. ربما منذ قرن أو أكثر، وتحوَّل دون أن يدري إلى لقب لكل رجل من قريتنا لم يغترب مُرغمًا.

أبي محفوظ استحق لقب شهيد عن جدارة، فرغم فُرص العمل التي سنحت له خارج قريتنا لم يغادر. أخوه المريض وأبوه الشيخ لم يُلمِّحا. بالعكس، ألحَّا عليه بأن يرحل ويشوف حاله. لكنه رفض واستقر في القرية. بمجرد حصوله على دبلوم الزراعة زوَّجه أبوه ليكافئه. بنتان في بطن واحدة تبعهما الولد، وبيت بناه، وشيب ظهر في رأسه كرَّس البقاء. وأخ مات وترك زوجة وطفلة، أنهى أي أمل في الرحيل.

وظيفة حكومية في المركز، ينتهي دوامها بمجرد أن يؤذَّن لصلاة الظهر، وزوجة انْهَدَّ حيلها بعد أن أعطته الولد الذي انتظره، وبيت مكهرب على الدوام من خلافات ما تلبث أن تنتهي لتبدأ من جديد، بين أمي وسِلفتها أم ليلى.. هي كل عالمه.

لم يفكر أبي ولو للحظات أن يتزوَّج بزوجة أخيه بعد أن ترمَّلت، رغم إلحاح الأقارب والأصدقاء.

– مراة أخوك صغيرة ومسيرها للجواز، ومترضاش على بنت أخوك يربيها راجل غريب.

– مراتك توافق ورجليها فوق رقبتها؛ ده لحم أخوك ولازم تصونه.

أصَر على رفضه، وساعده على ذلك أنها هي الأخرى رضت بالمقسوم.

لم يكن العائق زوجته أو صورة أخيه الراحل التي قد تكون حاجزًا يمنعه. الحقيقة أنه كان يرهبها. صوتها العالي، مناقشاتها وتدخُّلها في كل ما يخص أخاه ويخصه، حتى في مشكلاته الخاصة مع زوجته، آراؤها في كل كبيرة وصغيرة في البيت وقت أن بنوه، لدرجة أنه في مرة انفعل على أخيه عندما أصرَّت أن تُعدِّل تصاميم البيت. أرغمت المقاول أن يحضر الرسمة كما قالت، وأمسكت بالقلم وأخذت ترسم وتشرح.

– الصالة لازم تبقى هناك على البحري، والمحلين تحتها على الشارع، وشبابيك الأوض على الزراعة عشان منبقاش مجروحين، وأوضة الخزين والفرن عالية شوية عن الشارع

عشان كل فترة بيعلوه، مش هنبقى تحت الأرض زي الفيران يعني.

لا يدري كيف تحمَّلها أخوه طوال تلك المدة، رغم تأخر حملها ثماني سنوات! ولماذا لم يفكر في أخرى بعدما جابت البنت وبطنها قفلت!

حياة رتيبة استكان لها. المذاكرة للأولاد تنهي ساعات الظهيرة المملة، ومن المغرب ينطلق إلى المسجد ليصلي ويعتكف حتى العشاء، تحببًا في سيدنا النبي وسُنته، وبعدها تبدأ السهرة في غيط أحد أصدقائه.

لم تكن النقود قط بمشكلة، فدخله يكفي ويفيض. المحلان اللذان كان رافضًا بناءهما أسفل المنزل، ووافق فقط إكرامًا لأخيه، ليس لإلحاح أم ليلى وصوتها العالي وحججها التي أخذت في عدِّها عن مشروع المستقبل، إيجارهما يغطي مصاريف البيتين ويزيد، بالإضافة إلى مرتبه الذي يدَّخره بالكامل.

جهَّز البنتين بأفضل شوار عرائس بشهادة أهل عريسيهما. عزومة يوم الخميس الأسبوعية يحلف بها زوجا بنتيه. أجولة الأرز والدقيق والمكرونة وصفيحة السمن في كل موسم يوصلها بنفسه لمنزلَي بنتيه.

– خيرك مغرقنا وعلى طول مشرفنا قدام أجوازنا.

دائمًا ما تقولها البنتان.

ما يترك غصة في حلقه أنه لم يجرب ويغامر مثل الآخرين. التغريبة مُغرية رغم كل ما يُقال. هناك من ذهب وعاد، وآخر لم يعد واستقر هناك. البعض يرجع بالمال فيبني البيت ويشتري الطين، والبعض الآخر يعود بالخزي. ولكن الكل يحمل الحكايات التي لا تنتهي عن العاصمة اللعوب ذات الألف وجه.

أمي بدأت في الذبول بعد ولادتي، وكأن مهمتها في الدنيا انتهت بجلب الولد. التقمتُ ثديها فضمر، حَبوتُ فانحنى ظهرها، انتصبتُ وبدأتُ بالمشي فرقدتْ في السرير وأطالت. وكأنني أعيش على روحها وأستهلكها. بمجرد أن بلغت واخضرَّ شاربي رحلت.

لا أعرف أيهما ظهر أولاً، القرية أم مقابرها. العادة أن يستقر البشر في مكان وعندما يموت أحدهم تظهر الحاجة إلى مقبرة. على أطراف قريتهم ينشئونها، وبمرور الوقت وتوافد الموتى تباعًا إليها تكبر، تتسع. من الممكن أن يزحف العمران فيصل إلى حدودها. أحيانًا تتلاشى الحواجز بين الحياة والموت، فيلتحم العمران بالمقابر ويسكنها الأحياء ليأنسوا بالأموات.

في قريتنا الوضع مختلف، وكأن مقابرنا أُنشِئت أولاً ثم طوَّقها العمران. تقع في منتصف قريتنا كأنها حجر أساس أو مركز للطواف. شيِّدت أولاً وأتى الناس أفواجًا ليحجوا إليها. استأنسوا

أرواح أهلها المدفونين تحت التراب فقرروا البقاء. بنو قريتهم حولها من كل جانب ليحمونها من تلصص الغرباء.

لا أحب زيارة المقابر. أكره ظلمتها والأساطير المنسوجة حولها. كنت صغيرًا عندما أيقظوني من النوم وسحبوني إلى هناك للمرة الأولى. عمي ملفوف بقماش أبيض ومحمول على نعش فوق أكتاف الرجال. الأيادي تتحسس جسده لتُخرِجه من النعش، وهو بلا حراك، حملوه وفي حفره تحت الأرض ألقوه. استسلامه أدهشني. لماذا لم يقاومهم؟ لِمَ لم يلعن ويسب كعادته؟ نثروا فوق جثمانه التراب ثم رحلنا.

عندما أوصلوا أمي إلى هناك وددت لو رجعنا بها إلى البيت.

قلت لأبي: نرجع بيها البيت ونسيبها في أوضتها، مش هيحصل حاجة. ليه نرميها في حفرة ونسيبها لوحدها ونمشي؟!

لم يرد. حملها هو وخالي وسط صراخ أختَي وألقياها.

ظللت أبكي وأنا أقف لأخذ العزاء مثلما أصر أبي. حشروني وسط صف من رجال العائلة. تحتضن أيدينا عشرات الأيادي الخشنة. يربتون على كتفي وبعضهم يعانقني. ينطقون بكلمات بمجرد أن تخرج من أفواههم تتبخر فلا أفهمها. أتمتم وكأنني أرد عليهم.

يومها رفضت الرحيل وقررت أن أقيم هناك إلى الأبد. قلت لأبي: هقعد جنبها هنا طول العمر. زجرني فأصريت على قراري. في النهاية رحلوا وتركونا. يوم بليلة وأنا جالس بجانبها أبكي. ألمح أبي من بعيد، كلما حركت عنقي باتجاهه توارى خلف شاهد قبر. في النهاية انهرت وغشيت. عندما صحوت وجدت نفسي بالمنزل.

البيت بلا أم مكان موحش. أبي مكسور لا يعرف ماذا يفعل مع بنتين بدأت أنوثتهما تتشكل وولد صعب المراس. لا أعرف ما إذا كان حزينًا لفراق أمي أم مستاء لرحيلها وتركه وحده يرعانا.

وكَّلني أبي أن أحل محل أمي في التواصل مع أم ليلى. في المساء أصعد لتمليني الطلبات، وفي الصباح يحضرها أبي ويتركها أمام مدخل البيت لأسلمها لها.

أم ليلى تسلمت مقاليد البيت بعد أن قررتْ أن تتولى مهام أمي الراحلة، دون أن يطالبها أحد بذلك. بمجرد خروج أبي للعمل تهبط إلى شقتنا. تطبخ، تغسل، تخبز، تكنس. توزع بعض المهام المنزلية على أختَيَّ. تتابع دروسنا بالرغم من عدم إجادتها للقراءة والكتابة، كلِمتُها سيف على رقابنا لا يستطيع أحد منا كسره أو التملص منه. بمرور الوقت تقرَّبت أختاي منها، أما أنا فكنت أرهبها مثل أبي.

أبي محفوظ لم يمانع تدخُّل أم ليلى في شؤون بيتنا، أو بالأحرى لم يستطع الرفض. فهي كالمخلص الذي أنقذه هو وبيته من

الضياع. مع ذلك ظل يرهبها ويتحاشى لقاءها، فبالرغم من وجودها شبه الدائم هي وابنتها في بيتنا لا أتذكَّر مشهدًا يجمعهما معًا.

تحضر بعد خروجه إلى العمل وتغادر قبل رجوعه، ثم تعود ثانية بعدما يؤذن للمغرب ويخرج أبي إلى المسجد. وضعٌ غريب، منزل دوره العلوي تقيم به أرملة وابنتها، وفي الأسفل أرمل وعياله. عاد الأهل يلمحون بحتمية الزواج مرة أخرى، وأبي ودن من طين وودن من عجين، وهي الأخرى مثله.

– ربنا يباركِلِك يا مراة الغالي، جميلك فوق راسي أنا وعيالي ليوم الدين.

قالها أبي لأم ليلى.

لن أنسى ذلك اليوم مطلقًا، فللمرة الأولى أرى أبي فرِحًا وابتسامته تكسو وجهه. يعانق كل من يقابله. يمشي وكأنه يقفز، حتى أنه أصر أن تتعشى أم ليلى معنا. حدث ذلك في اليوم اللاحق لعُرس أختَي فُتنة ومنى.

بمجرد أن أنهيتا المدرسة الثانوية بدأ العرسان في الظهور. أم ليلى أنقذت أبي كعادتها وتولت المهمة. تحرت عن العريس المنتظَر، رتَّبت لقاءات التعارف في منزلها. يحضر العريس وأمه. تتركه مع أختي لدقائق وتجلس هي وأمه في الصالة مراقِبة لباب الغرفة المفتوح،

بعدما يغادر العريس تجلس أم ليلى مع أختي لتعرف رأيها. منى خُطِبَت سريعًا من أول عريس طرق بابها، أما فُتنة فأرهقت زوجة عمي كثيرًا أمام رفضها لأكثر من عريس، إلى أن أتى حامد الأونطجي فخطف قلبها.

أبي مسؤول عن الأموال فقط، وأم ليلي مسؤولة عن كل شيء عدا ذلك. الاتفاقات وتحديد المؤخر والشبكة وشراء العفش وملابس العروس، وتجهيز المنزل والهدايا لأهل العريس.

أصر والدي أن يكون العرس مشتركًا. ما دامتا خرجتا من البطن ذاته في نفس التوقيت، فلتبدءا حياتهما الجديدة في لحظة واحدة أيضًا. أيام مرهقة في الإعداد للعرس. مشاوير لا تنتهي، ظهري كاد أن ينكسر من كثرة الشيل والحط ونقل العفش إلى شقتَي العروسين. ما عوَّض ذلك هو ضحكة والدي أثناء العشاء مع أم ليلى وابنتها. عندما أتذكرها لا أعرف أهي ضحكة مَن اطمأن على بنتيه أم من تخلص من مسؤولية أثقلت كاهله.

المنزل أصبح مهجورًا بعدما تزوجت البنتان ورحلَتا. أبي أطال في الغياب وأنا أيضًا، حتى أم ليلى لم تعد تحضر إلى منزلنا إلا نادرًا. البنتان بمجرد حضورهما تصعدان إلى شقة عمي. نظام المنزل تغيَّر بعد رحيلهما. قبل أن أخرج إلى المدرسة أصعد لأعلى لتعطيني أم ليلى إفطاري وصينية لأبي، بعدما أعود أقضي أغلب يومي في شقتها، وبعد أن أتعشى أهبط بالصينية لأبي.

مدرسة في الصباح ومجموعات تقوية في الظهيرة، وساعات طويلة في منزل عمي، وليل أقضيه وحدي في منزل فارغ نُزِعَت منه الحياة. مللتُ فقررت تعجيل غربتي.

ودَّعتهم واستقلَّيت القطار ورحلت إلى العاصمة.

## (2)

– حبسوا الحية مع المنوفي في كيس.. طلعت الحية من المنوفي تستغيث.

قالها فاشتبكنا. لم يخلِّصه من يدي إلا رفقاؤنا في السكن.

غرفة واسعة أشبه بعنابر السجناء، أرضيتها مكسوَّة بالبلاط الموزايكو، بها ستة أسرة، كل منها بدورين ويقابلها اثنتا عشرة منضدة وكرسيًا، ودولاب ذو اثنتا عشرة ضلفة يغطي الحائط بأكمله. اثني عشر طالبًا من سبع محافظات مختلفة، أغلبهم يزور العاصمة للمرة الأولى. لكل منهم لَكنته وطريقة نطقه الخاصة ورأيه المسبق عن السكن المشترك.

ما يجمعنا هو رهبة الخروج الأول من قُرانا إلى العاصمة، ورغبة التأقلم والاندماج.

الرهبة والرغبة أنهيا مشادتنا قبل أن تتحول إلى عراك. قال أحدهم بعد أن فرَّق بيننا: يا عم متزعَّلش نفسك كده، قوله "مية مالحة ووشوش كالحة".

فرد عليه الإسكندراني ضاحكًا: ما أزفت من زفتى إلا ميت غمر.

رغبتي في تعجيل الغربة دائمًا ما اصطدمت بحاجز السكن. أين سأعيش في العاصمة فترة دراستي؟ تكاليف الإقامة غالية كما

سمعت من بلدياتي المغتربين: صحاب الشقق دول كفرة، بيأجروها بالسرير، دينهم الفلوس ولاد الكلب.

كثيرًا ما كرروا ذلك على مسامعي فتوجست.

عندما أتذكر تلك الأيام أتعجب من قلقي غير المبرر. فأبي لم يكن فقيرًا أو بخيلاً. كان سيدفع إيجار سريري عن طيب خاطر. فقبل أن أرحل، وبعد أن أوصاني بالمذاكرة والحفاظ على ديني والالتزام بسُنَّة الحبيب المصطفى، سألني عن مصاريف الجامعة والكتب وأسعار ما أحتاجه من ملابس جديدة. قلت له لا أعرف بالضبط، المبلغ تقريبًا كذا، فأعطاني ضِعفه.

رغبتنا في التأقلم تغلَّبت على اختلاف طباعنا. تحملنا زكريا الذي لا يحلو له المذاكرة إلا بعد منتصف الليل منيرًا أضواء العنبر. مرة نُطفئ الأنوار ونحاول النوم ثانية، ومرة نطرده ليكمل مذاكرته مقرفصًا بجانب عمود نور في المسطح الأخضر المواجِه للمبنى.

تحمَّلنا أمين الصعيدي ذا الرأس الصلب وطريقته العجيبة في المذاكرة، مربعًا رجليه كطالب كتاتيب يرفع الكتاب أمام عينيه ورأسه يتأرجح إلى الأمام والخلف بلا هوادة، ولسانه لا يتعب من ترديد ما يقرأه فيفسد قيلولتنا. "اقرأ في سرك يا أبو عمو"، يقولها ثروت بلدياته بعدما يشعر أن صبرنا قد نفد، فيخفض أمين صوته لدقائق ثم ترجع ربما لعادتها ثانية.

ما فشل فيه أبي نجح في تحقيقه سكان العنبر. التزمتُ بصلاة الفجر.

صوت كركبة شاكر والشيخ أحمد استعدادًا للنزول إلى المسجد فجرًا كان يوقظني. بعد أن يغادرا العنبر أحاول معاودة النوم، مرة أنجح في محايلته فيأتي، ومرات يعاندني فأقوم بعدما أمِلّ من المحاولات مُتعكِّرًا. في إحدى الليالي نهضت ولم أحاول.

ربما قلبي المنقبض في بواكير الغربة قد حنَّ إلى ذكريات الطفولة، أيام كان أبي يصطحبني معه لأصلي الفجر. دلفت إلى حمام الدور لأتوضأ، فدهشت من نظافته التي لا أعتادها. فأنا معتاد على قذارته ورائحته النتنة، التي تجعلني أفكر مائة مرة قبل أن أغامر وأدخله لأقضي حاجتي. عرفت أن العمال ينظفونه مرة واحدة في اليوم قبل صلاة الفجر، بعدها ينصرفون ليبدؤوا في مسح ممرات الأدوار، ثم يتركون المبنى في السابعة صباحًا لجمع القمامة وكنس شوارع المدينة الجامعية. منذ ذلك اليوم ولأربع سنوات قادمة سألتزم بصلاة الفجر.

بعد أسابيع من التحاقي بالجامعة أصبحت قادرًا على تحديد موطن كل طالب أقابله، حتى ولو كان لقاؤنا عابرًا بلا كلمات. التصنيفات محددة، قِلَّة أتوا من الصعيد، وضِعف عددهم من الريفيين، وأغلبية من مناطق القاهرة الشعبية وضواحيها، ومجموعات

صغيرة متناثرة من الطبقة الراقية. الجغرافيا واضحة، أو كما يقول زميلي الإسكندراني اللئيم: الدم بيحن.

الفلاحون إما في الصفوف الأولى بقاعة المحاضرات أو على سلالم المدرج منتظرين دخول السيكشن، ووقت راحتهم يقضونه في المسجد. والصعايدة تلمحهم بالكاد، يحضرون المحاضرات المهمة فقط ثم ينصرفون على عجل للحاق بأعمالهم في العاصمة، أما أولاد الذوات فتعرفهم من زجاجات المياه المعدنية التي لا تفارق أياديهم، تجدهم مبعثرين في مجموعات صغيرة، بعضها يجلس في الكافيتريات المواجهة لكلية تجارة إنجليزي والبعض الآخر يتجول في محيط كليه الألسن. وإخواننا المسيحيون من مختلف القُرى القبلية والبحرية قد اندمجوا مع سكان العاصمة من أبناء مِلَّتهم، وآخر انسجام تحت المظلة الواسعة أمام مدرج9.

سكان الضواحي ومناطق القاهرة الشعبية هم المسيطرون الفِعليون على الحرم الجامعي، لأنهم أغلبية. كغُزاة منتصرين تراهم يذرعون شوارع الجامعة طولاً وعرضًا. يمشون في جماعات كبيرة مختلطة، ودودون مع الجميع وغير متكلفين. لا تراهم مطلقًا داخل القاعات إلا في المحاضرات النهائية قُبيل الامتحانات.

لكل قاعدة استثناء. فلم أجلس في الصفوف الأولى محشورًا بين بلدياتي؛ ربنا عرفوه بالعقل، فمجموعي المتوسط في الثانوية العامة ومللي السريع من المذاكرة لا يؤهلاني لأصبح من أوائل الطلاب؛

اكتفيت بحضور المحاضرات العملية، والملازم تغني عن حضور محاضرات النظري، قررت أن أعمل أثناء فترة دراستي. رحلة البحث عن عمل لم تطُل، فقط بضع مكالمات مع بلدياتي المستقرين وبدأت العمل.

الأخرق هو أول من عملت معه. فبمجرد أن وطأت قدماي الجامعة بحثت عنه، فبسبب نصيحة أخيه الطائش عجَّلت غربتي. لم أعثر عليه في الجامعة أو في مدينة الطلبة التي أخبرني أخوه بأنه يسكنها. اتصلت به في الأخير وعندما تقابلنا أصر أن يأخذني في جولة سريعة في القاهرة ويعزمني على الغداء.

أوتوبيس فميكروباص ثم توكتوك حشرنا فيه ورشَّاح عبرناه حتى وصلنا. حَوَارٍ ضيقة مليئة بالبِرَك الموحلة بالرغم من أننا في الصيف، يسميها الأخرق شوارع، عمارات عالية على الطوب الأحمر أغلبها، وبعضها ممحَّر غير مطلِيٍّ، الروائح النتنة تفوح فلا تعرف أهي رائحة أكوام القمامة أم الطرنشات التي لا تكسح على الأغلب.

يسميها الأخرق مدينة وأنا أراها منطقة بين بين. فلا تقابل في حواريها صفوف المواشي العائدة من الغيطان إلى الزرائب أو تكسو الخضرة بعض أراضيها فتُصنِّفها كقرية، ولم يمسها شذرة من تصميم عمراني تشذبها قليلاً فتصبح مدينة. ألقى الأخرق محاضرته على القروي الساذج النادم على غداء المدينة الجامعية الذي تركه وراءه ليرى الخراء:

– بص يا كمال.. العاصمة دواير، على أطراف كل دايرة متمدنة تظهر أخرى عشوائية تحاوطها من كل جانب. زي كده الزمالك وبولاق، المهندسين وميت عقبة، مدينة نصر وعزبة الهجانة، جسر السويس والعرب.

– مصطفى.

نداء عالٍ خرج من مدخل عمارة بالجوار، قطع محاضرة الأخرق لي عن جغرافيا القاهرة، تركني وذهب للمنادي، فارتحت. غاب فترة ثم ناداني: خش يا كمال. دخلت فرأيت الحوش ممتلئًا عن آخره بالأثاث.

– عزال ابن عم الحاج، بارِكله يا كمال ومد إيدك معايا.

قالها الأخرق فوددت أن ألكمه وأرحل. ساعتان من الصعود والهبوط بظهر منثنٍ محمل بعزال ابن عم الحاج، إلى أن انتهينا. بارك الأخرق للحاج مرة أخرى، وأنا أود أن أضربه هو وحاجه والعريس والعروس.

– 75 جنيه في ساعتين زمن. أي خدمة يا عم كمال.

قالها فور ما خرجنا إلى الشارع، ودسَّ المبلغ في جيب قميصي. غضبي المكتوم الذي كان ينتظر خروجنا من حوش البيت لينفجر تحوَّل إلى نوبة ضحك، كدت أن أسقط من شدتها على الأرض.

– شكرًا يا معالي السفير المنتظَر.

قلتها للأخرق مستهزئًا، فضحك.

وليمة الفراخ المشوية والكفتة والسلطات التي ملأت ورقة الجرنال المفروشة على الأرض، أنستني الوخز والوجع اللذين يطرقان كتفَي وعنقي. بعدما افترسنا الأكل بدأ زملاؤه بالسكن في العودة من أعمالهم.

الأخرق اسمه مصطفى، حضر إلى القاهرة قبلي بسنتين. رسوبه في سنته الجامعية الأولى كلَّفه الخروج من المدينة الجامعية، فهذه قوانينها. طبعًا لم يخبِر أهله بالرسوب أو بطرده من المدينة.

– المدينة مكانتش وحشة بصراحة؛ سكن وأكل ببلاش، بس النصيب. قدَّر الله وما شاء. أنجح بس السنة دي وأرجع المدينة تاني.

حلَّفني بألا أبوح بالسر لأخيه الطائش أو لأي مخلوق في قريتنا. طالِب حقوق ونقَّاش ونجَّار وكهربائي ومحاسب، هم شركاء الأخرق في السكن، أو "شقة العُزاب" مثلما يسمونها. جميعهم من محافظتنا ولكن من قرى مختلفة. توالت أدوار الشاي والدردشة إلى أن حلَّ الليل، فانصرفت، وأصر صديقي الجديد أن يوصلني حتى باب المدينة الجامعية.

***

– تفتيش.

صاح بها طالب وهو يطرق على باب عنبرنا، ورحل ليكمل مهمته.

كنا على وشك النوم. نهضنا من الأسِرَّة. دُرنا حولها وكأننا نبحث عن شيء خفي لنُخبئه. خوف بلا معنى انتهى عندما حضر مشرف الدور ومعه اثنان من الموظفين. فَحَصُوا الكارنيهات وطابقوا الصور بالوجوه. صادروا السخان الكهربي الخاص بزكريا ورحلوا.

– السخانات ممنوعة في الغرف، مفيش عمايل أكل هنا، الأكل في المطعم، ممنوع حد غريب يبات معاكو في الأوضة.

فرِحنا بمصادرة السخان، فزكريا يصنع عليه قهوته كل ليلة ويؤرقنا معه بسهرِهِ للفجر، وأضواء العنبر التي يصر على تشغيلها ليذاكر.

– فداك السخان يا عم، نجيبلك غيره عشان تقرفنا، بس لو مطلعتش من الأوائل بعد السهر ده كله هنعلقك من رجليك ونعبطك.

قالها زميلي الإسكندراني كدعابة، بعدما لاحظ الحزن المرتسم على وجه زكريا. أغلبنا كان مُصِرًّا أن يعبط زكريا بالفعل. لكننا لم نفعلها، فقد صار الأول على الدفعة لأربع سنوات متتالية.

عملت مع سكان شقة الغُراب مساعدًا على الدوام، فلم أملك خبرة سابقة في أي عمل من قبل. ساعدت في تركيب الأبواب والشبابيك، مسكت الفارة وقطعت بالمنشار، دهنت الأسقف وخلطت الألوان، كسرت الحوائط ومددت الخراطيم وسحبت فيها الأسلاك. لم أصبح محترفًا في أي مهنة، ولكني رأيت العاصمة عن قُرب.

شاهدتُ القاهرة التي سمعت عنها ورأيتها في الأفلام. عاصمة متحضِّرة لا تمت لها منطقةُ ما بعد الرشاح بصِلة، شوارعها عريضة مُزيَّنة بالأشجار والورود، عملت في مدن صغيرة داخل العاصمة، محاطة بالأسوار العالية، الدخول إليها أشبه بعبور الحدود. بوابات تُصفِّر ورجال أمن وتفتيش وأسئلة طويلة وبطاقة شخصية تُفحَص، وفي النهاية قد لا تمر إلى الداخل.

كسب الأموال لم يكن دافعي للعمل، فلا أحتاجها، فما أعطاه لي أبي قبل بداية الدراسة لم أمسه. الوجبات الثلاث في المدينة الجامعية تكفيني، والشاي أصنعه على سخان زكريا في العنبر.

ربما لم أنسجم في الجامعة، فانسحبت إلى بلدياتي في شقة العزاب. قد يكون عملي معهم مجرد حجة لأبقى وسطهم وأشعر بالأمان.

لم أكن من هواة كَنْز الأموال، ولكن بعدما لاحظ الأخرق انتفاخ جيوبي نصحني بأن أفتح حساب توفير في البريد.

قال: ماشي بفلوسك كلها في جيوبك يا أهبل! روح اعمل دفتر في البوستة، حطهم فيه بدل ما يلطشهم من جيبك حرامي ولا حد يقلِّبك في المدينة الجامعية.

## (3)

في آخر قريتنا قطار يمر ولا يتوقف.

حكوا لنا أن القرية كانت قديمًا محطة يقصدها سكان المحافظة ليستقلوه. مبنى مُهدَّم موازٍ لشريط القطار تبقَّى ذكرى. مكان مهجور يصلح بظُلمته وهدوئه مسرحًا لجرائم القتل. لا أحد قُتِل هناك على الأرجح. أعتقد أن أغلب أهل قريتنا يمتلك ذكرى تجمعه بالمكان. فالمحطة المهجورة هي معقل التجارب الأولى والذكريات.

عُدت إلى البلدة بعد مكالمة أبي. قال لي بفرح: فتنة أختك خلِّفت. أقاموا السبوع ونحروا نعجة. وزَّعنا الفيشار والسوداني على أطفال الجيران، وأعدَّت امرأة عمي أم ليلى أرغفة اللحم وعلب الأرز باللبن، وأرسلتني لأوزعها على المصلين في مسجد سيدي أمير الجيوش.

ألحُّوا عليَّ بالبقاء. قال أبي: فاضِلَّك أسبوعين على الامتحانات؛ اقعد ذاكر هنا بدال دوشة مدينة الطلبة.

أصبحتُ أتحرَّج المكوث في منزل عمي، فليلى كبرت وإن لم ألاحظ، أول ما فتحت الباب ورأتني جرت إلى غرفتها، ولم تظهر إلا بعد أن غطت شعرها بطرحة. بمجرد أن أتناول الغداء معهما أتعلل بأي حجة وأرحل. الملل دفعني لأتصل بزملاء المدرسة الثانوية وألقاهم.

أصدقائي ينتظرون الحكايات وأنا لا أمتلكها للأسف. حاولت أن أرتجل. اختلقت المغامرات مع بنات مصر لأرضيهم. ريفيٌّ حدوده مدينة طلبة كلها ذكور، وجامعة لا يقربها إلا نادرًا، وشقة قرويين تطل على رشاح، يحكي لمراهقين عن مغامراته في مصر فينبهرون.

كان اللقاء مُدبَّرًا، صديقي الطائش سيقابل حبيبته عند شريط القطار، يريدني أن أذهب معه، فالبنت معها ابنة خالتها، ووجودي ضروري. تقابلنا ومشينا حتى آخر القرية، الطائش أخذ حبيبته وبعدا وتركاني مع البنت. أنا وهي وشريط قطار ومحطة هُجِرَت منذ زمن. أحكي فتضحك منبهرة بقصصي عن العاصمة، التي أحسنت تأليفها. تجرأت وحضنت يدها بأصابعي، أطلت فلم تمانع. تشجَّعت وطوَّقتها، وقبل أن أهبط بفمي على شفتيها هبطت يدها على خدي كالمطرقة، صفعتني وجرت.

حكى الطائش كل شيء كعادته، فتحولت حادثة شريط القطار إلى نادرة تلوكها ألسنة شباب القرية.

– كمال عايز يبوس البت من أول مرة، ده فالنتينو بذات نفسه معملهاش!

خفت أن تصل الحكاية إلى أبي وأختَي. ارتعبت من أن تعرف أم ليلى فتخلع حذاءها وتضربني كأيام زمان. انقطعتُ في بيتنا أسبوعين، شغلت نفسي فيهما بالمذاكرة إلى أن غادرت.

أغلقتْ المدينة الجامعية أبوابها بعد نهاية الامتحانات، فانتقلت إلى شقة العُزاب. لم أُرِد أن أعود إلى قريتنا، تحججت لأبي بأني ملتزم بعمل مع جماعة بلدياتي، فتفهَّم الأمر ولم يُلِح عليَّ بالعودة. في تلك الفترة كان أغلب عملِنا منحصرًا في المناطق العشوائية بالضواحي. قاع القاهرة الذي يقبض القلب، بشوارعه الضيقة التي سُفلتت بالوحل وزُيِّنَت جوانبها بالقمامة. عندما أخبرت الأخرق بضيقي من المكان، رد بضيق:

– كُله شغل، اشتغلت في فيلا، اشتغلت في زريبة، المصنعية واحدة. ده حتى الناس هنا كُرما وبيغدُّونا.

لا أعرف سببًا لانقباض قلبي في تلك الأيام، ربما حادثة شريط القطار هي السبب، أو أن فترة الراحة التي طالت أثَّرت على جسدي، فأصبح رخوًا لا يحتمل العمل الشاق. في نهاية اليوم أيقنت أني أُنهكت تمامًا ولم أعد أحتمل، فالوخز يضرب في شتى أنحاء جسدي وكأنه يمزقها. تركت العمل مع بلدياتي، ولكن علاقتي بشقة العزاب لم تنقطع.

***

– مُخبِر.

قالها مفتش الدور عندما سألناه عن مصير السرير الفارغ.

التسكين في المدينة الجامعية له قواعده الراسخة، ولكن ببعض الخدمات البسيطة والعلاقات الطيبة مع الموظفين ومشرفي الدور، وبعض من الفطير المشلتت والعسل وأدكرة البط، من الممكن تجاوزها، وهذا ما حدث.

في بداية سنتي الجامعية الثانية انتقلت إلى الغرفة الجديدة، أو عنبر المنايفة كما يسميه زملائي. عنبر صغير بأربعة أسرة بدورين وسبعة طلبة من نفس المحافظة، وسرير فارغ ينتظر ثامننا، الذي أتى بعد شهر من بدء الدراسة.

ابن قرية مثلنا، ظلمه مَن رسَمَ الخرائط، فوضع قريته داخل حدود العاصمة. قوانين المدينة الجامعية رفضت قبوله، فأنصفه أمن الجامعة. أمروا بتسكينه تماشيًا مع روح القانون.

بعد أن أمضى سنته الأولى في العمل معهم وأثبت جدارته كافؤوه بسرير وثلاث وجبات يومية بالمجان. أول ما استوطن عنبرنا تجنَّبناه، كنا حذرين في الحديث أمامه. ما بيننا سلام وكل منا في حاله. بعد فترة أحضر المخبر الفطير والعسل وأصر أن نشاركه الطعام، لا أدري لماذا فعل ذلك، ربما ارتاح لنا، قد يكون ملَّ وحدته، فهو في النهاية ابن قرية مثلنا يرهب العاصمة.

بعد أن تناولنا الطعام معًا انطلق المخبر في الحديث، قال بصوت هامس: دي تقارير فارغة بكتبها عن النشاط الطلابي في

الحرم الجامعي. والعيش والملح اللي ما بيننا، مش بكتب تقارير في زمايلي في السكن. أنا هنا باكل وأنام وبس.

حكى لنا عن سنته الأولى في الجامعة، والمشوار الذي هدَّ حيله وبدَّد نقوده القليلة.

– كل يوم 7 جنيه مواصلات، و3 ساعات رايح وزيهم وأنا مروح. بوصل البلد بعد العِشا.

حدَّثنا عن موظف الأمن الذي أوقفه وذهب به إلى ضابط الحرس الجامعي. أخبرنا عن سرواله الذي ابتلَّ وهو جالس في مواجهة الضابط. بمجرد أن قدَّم الضابط عرضه قبِل، فلا مفر. أصبح يكتب التقارير، ويسلمها إلى المختص في اجتماعهم الأسبوعي في لاظوغلي.

بعد أشهر أخبره المختص بالمكافأة وهو يسلمه مبلغ الإعانة الشهرية.

– من السنة الجديدة هتقعد في المدينة الجامعية بدال مرمطة المواصلات.

الأخرق الذي عاد إلى مدينة الطلاب بعد نجاحه كان أكثرنا نفورًا من المخبر، فبمجرد أن يحضر الأخير يصبح الأخرق كالأخرس، في إحدى المرات لم ينتبه لقدوم المخبر، وأكمل حكايته المثيرة عن سهرة الكازينو وما فعله مع إحدى العاملات

هناك. بعد أن أنهى حديثه اكتشف وجود المخبر؛ تجهَّم وجهه وصمت، بعد ساعة تحدث فجأة موجهًا حديثه إلى المخبر:

– اوعى تكتبها في التقرير يا بلدينا أحسن أروح ورا الشمس.

ضحكنا وضحك المخبر، ولكن الأخرق بقي متعكرًا.

***

بعدما تركت العمل عاودت الانتظام في الحضور إلى الجامعة.

كان تقديري خاطئًا، هذا ما عرفته لاحقًا بعدما انحشرت وسط بلدياتي في المدرج. اكتشفت أنهم ليسوا بحالمين سُذَّج أتوا إلى الجامعة ليطاردوا أحلامًا مستحيلة التحقق. المتفوقون فقط جالسون للتعلم، وعلى الأرجح سيتحقق حلمهم، وسيأتي اليوم الذي يقفون فيه في مواجهة الطلاب كمحاضرين جدد. فأغلب أساتذة الجامعة أبناء قرى مثلنا.

أما بقية بلدياتي المحشورين في الصفوف الأولى، فهذا عملهم لا أكثر. عرفت ذلك أثناء بحثي عن عمل جديد. انحشرت وسطهم وعملت معهم في كتابة المحاضرات وبيعها للمكتبات. عمل بسيط كل ما يحتاجه السرعة في التدوين.

– لو الدكتور عطس اكتب الدكتور عطس.

قالها صاحب المكتبة في لقائنا الأول، والتزمتُ بما قاله. أصبحت أقضي أغلب النهار متنقِّلاً بين المدرجات والسكاشن

لأدوِّن المحاضرات. وفي أوقات الراحة أتسكَّع في طرقات الجامعة. العمل الجديد لم يرهقني مثل العمل مع سكان شقة العُزَّاب، وأجري منه يفوق ما كنت أتقاضاه في السابق.

تجوَّلت لفترة مع العشوائيين ودخَّنَّا السجائر، جلست معهم على الأرصفة وسلالم المدرجات، شاركتهم النكات والضحكات الصاخبة، ارتديت مثلهم البنطلونات الجينز الضيقة والتيشيرتات الرياضية المقلَّدة.

أحيانًا كنت أشتري زجاجة مياه معدنية وأتمشَّى في طرقات كلية الألسن، أو أجلس لأتناول الكابتشينو في كافيتريا تجارة إنجليزي. في النهاية لم أنسجم، وأيقنت أن الجامعة بالنسبة لي مكان للعمل ليس أكثر.

في التيرم الثاني من هذا العام تركت الصفوف الأولى بلا رجعة بعدما فشلت في التأقلُم. ودَّعت الجامعة بمدرجاتها الواسعة الكئيبة، بفلاحيها ذوي الابتسامة البلهاء، وصعايدتها المشغولين على الدوام، بعشوائييها ذوي النكات البذيئة وأولاد ذواتها المتأففين من الجميع.

عمل جديد خارج أسوار الجامعة. كنت أول المستخدمين في المكتبة الجديدة التي فتحت أبوابها مع بداية الفصل الدراسي الثاني. ساعدت صاحبها في التأسيس. أحضرت له بلدياتي محترفي تدوين المحاضرات وبعضًا من حديثي التخرج الموهوبين. الطلبة مسؤولون

عن كتابة المحاضرات والسكاشن، والخريجون الجدد مهمتهم إعداد ملازم الشرح والمراجعات النهائية.

تركت كتابة المحاضرات واشتغلت بالبيع والتصوير. كنت أعمل بالوردية الصباحية، أفتح أبواب المكتبة في الثامنة صباحًا، وأبدأ في استلام محاضرات اليوم السابق من بلدياتي. أصورها وأستعد لقدوم الطلبة لأبدأ في البيع. في الخامسة ينتهي دوامي، أسلم العمل لزميلي الذي يتولَّى الوردية المسائية وأغادر إلى مدينة الطلبة.

في المكتبة تعاملت مع أبناء العاصمة بكل صنوفهم عن قُرب، ربما للمرة الأولى. أقدم النصائح للطلبة الجدد، يسألني الجميع وإجاباتي دائمًا جاهزة. أصبح لي معارف من أبناء القاهرة. معارف سطحية أو كما يقولون طيَّاري، ولكني سعدت بها على أي حال.

في المكتبة تجاذبت أطراف الحديث مع أولاد الذوات أصحاب زجاجات المياه المعدنية. اكتشفت أنهم يُطلِقون النكات البذيئة فيما بينهم كالعشوائيين تمامًا. أغلبهم ودودون على عكس ما كنت أتصور. بمجرد أن يقابلني أحدهم مرة أو مرتين على الأكثر يعاملني كصديق وسلامه يصبح عناقًا. يتبادل معي الجميع أرقام التليفونات، وهم أيضًا من يبادرون بالاتصال ليسألوني عن ملزمة مراجعة أو لأرشح لهم معيدًا جيدًا يعطي الدروس الخصوصية في الخفاء.

قابلت الصعايدة في المكتبة أكثر ما قابلتهم في الجامعة. وجوههم المتجهمة على الدوام تخفي خلفها خفة دم، عندما

يبدؤون في الهذر والمزاح فيما بينهم لا أتمالك نفسي، أظل أضحك وأقهقه إلى أن يحمر وجهي ويتمسكني السعال. أحببتهم وصرنا أصدقاء.

المشكلات التي يفتعلها الأخرق أرهقت كلَّ من في العنبر، وللأسف فشلنا جميعًا في حلها. هو متأكد بأن المخبر يكتب فيه التقارير سرًا و"هيوديه ورا الشمس". نقنعه بأن أمن الدولة لا تهتم بأخرق مثله، لا يفعل شيئًا سوى اختلاس النظر إلى أرداف بنات القاهرة، فلا يقتنع ويختلق المشكلات من جديد.

– المخبر بيراقبني يا جدعان، كل ما أروح حتة ألاقيه ورايا، في العنبر ورايا، في المطعم ورايا، في الجامع ورايا، حتى في الحمام بلاقيه ورايا.

نقول له: يا ابني كلنا بناكل وبنصلي وبنام وبنشخ في نفس الوقت.

مرة تعارك معه بحجة أنه وضع الكتب على منضدته بالخطأ، ومرة أخرى لاختفاء كوبه الزجاجي، ومرة يقول: المخبر فتِّش في هدومي وأنا برة. استمر الأخرق في افتعال المشكلات، حتى وقعت حادثة الستارة، فتغيَّر الوضع تمامًا.

الأخرق أيقظنا جميعًا في منتصف الليل، وهو يهمس في آذاننا بالتزام الصمت، أشار إلى سرير المخبر فلم نفهم.

– بيبعت التقارير دلوقتي وإحنا نايمين، ابن الكلب عامل ستارة على سريره عشان يداري بيها نفسه، بس على مين!

قالها الأخرق، فدققنا النظر، وجدنا أن المخبر وضع أطراف البطانية على السرير العلوي وأسدلها إلى الأسفل لتخفي سريره تمامًا. لمحنا ضوءًا أبيض يتراقص خلف الستارة، الحاجز الذي صنعه يهتز بين الحين والآخر، مما يؤكد أنه مستيقظ ويعدل وضعية الستارة كي لا يراه أحد. كلَّفنا أحدنا بإضاءة أنوار العنبر، وفي اللحظة ذاتها أزلنا الستارة.

المخبر في وضع لا يُحسَد عليه، ونحن أيضًا. عيناه تبحلقان في صورة عارية بسطها على صدره. جسمه يرتعش ووسطه آخذ في الصعود والهبوط بشكل ميكانيكي متوازيًا مع حركة يده القابضة على عضوه المنتصب، يده الأخرى مضمومة على كشاف ينير به محرابه. كان في لحظته الأخيرة قبل أن ينتهي، ونحن من أفسدها. فكَّ يده القابضة وسكن، لكن قبل أن يخفي المنتصب بين فخذيه قذف ماءه.

تراجعنا إلى أسِرَّتنا وهو يلف جسده بالبطانية كعروس فُضَّت بكارتها للتو. أطفأ الأخرق الأنوار وعمَّ السكون.

صمتٌ لم يقطعه إلا قول الأخرق: إحنا آسفين يا صلاح. أعقبها بضحكة لم يتفاعل معها أحد منا.

في اليوم التالي كان لا بد من عقد قعدة عرب، كما قال زملائي. في البدء تأسَّفنا للمخبر عما حدث بالأمس، وأخبرناه بالحكاية. الخجل تلاشى مع الوقت، وخصوصًا بعدما قال له أحدنا: يا عم طب خش الحمام، محبكتش في العنبر. فرد المخبر: بخاف أخش الحمام بالليل؛ الدور يبقى ضلمة كحل.

ضحكنا وزاد ضحكنا بعدما تحدَّث الأخرق، ليحاول أن يصلح ما أفسده: يا بلدينا ولا يهمك، هي طلبت معاك بالليل هتعمل إيه يعني! بعدها وجَّه حديثه إلينا: يا رجالة فيه ناس كتير زي أخونا مبيعرفوش يجيبوهم في الحمام أبدًا ولو عملوا إيه، وهما واقفين مستحيل، لازم يقوا فاردين جسمهم عشان يخلصوا.

كالعادة لم يُعقِّب أحد على ما قاله الأخرق، وانتهت القعدة بسلام.

ما استفدناه من حادثة الستارة هو انتهاء العراك بينهما بلا رجعة، بعدما توقف الأخرق عن افتعال المشكلات مع المخبر.

– أنا خلاص مسكت عليه زِلة، لو كتب فيَّ تقرير هفضحه.

قالها بلهجه الواثق، فكتمنا ضحكتنا.

***

أعرف أن ما قام به المخبر يفعله جميع من في العنبر. أما أنا فطوال إقامتي في مدينة الطلبة لم أفعل ذلك قط في سريري. ربما لم

أمتلك الجرأة مثلهم لأداعب نفسي وسط سبعة رجال آخرين. ربما أكره أن يشاركني أحد في لحظاتي الخاصة، فقد يفسد تلصصهم ذروتي. في النهاية أعتقد أنني لا أستطيع فعلها وأنا مُراقَب.

جميعنا يشعر بما يحدث في أسِرَّة العنبر ليلاً ولا يُعلِّق. كم من زفرة انفلتت فكشفت صاحبها! أنفاس تعلو فجأة وصرير سرير يتبعه سكون، وصوت اصطدام قدم متشنجة بعمود سرير! لكن لا أحد منا يريد أن ينكشف السر الصغير فيزعج صاحبه.

بالأساس فكرة عمل البطانية كستارة ليست من اختراع المخبر، ولكنها تقليد توارثته الأجيال في مدينة الطلبة للحفاظ على خصوصية تلك اللحظات السرية. قد يكون أحد الطلبة في الماضي قد ملَّ من تقلبه في سريره لساعات دون جدوى، ففكر في إسدال البطانية طمعًا في لحظة ذروة تنهي أرقه لينام.

لا أعرف أهو تفريغ لطاقة الشباب الفائرة أم ماذا. ربما لحظات المتعة تقلل مِن توتر مَن ترك أهله ونزح إلى العاصمة وحيدًا، ربما تنهي رهبة من فشل في التأقلُم وانسحب إلى داخله مكتفيًا بأحلام يقظته. قد يكون الاختلاط الذي لم نألفه بعد هو السبب، فمدارس قُرانا كانت خالية من الإناث، وعندما أتينا إلى الجامعة وجاورناهن في المدرجات انبعثت في أدمغتنا الخيالات، فتحركت مكامن الرغبة في أجسادنا.

حتى أنا طاردتني صورهن في الأحلام. فأول أنثى قابلتها في الجامعة حلمت بها لأيام. كان ذلك في المحاضرة، جلست بجانبي وبدأت بالكلام. سألتني وكالعادة تلعثمتُ، أجبتها بصعوبة وتبادلنا الحديث. وجدتُ نفسي بعد دقائق أتحجج لها بحجج فارغة وأغادر المحاضرة. قضيت يومي كالمسحور إلى أن جاء الليل ونمت.

في الحلم كنت أكثر جرأة وهي أقل تحررًا، هي خجولة وأنا فحل. لم أمهلها حتى أن تخلع ملابسها، مزقتُها ولم أرحم. كانت تصرخ وأنا أعوى. عندما استيقظت كنت غارقًا في عرقي، تحسست بنطالي فوجدته مُبتلاً.

ربما المخبر وبقية زملائي كانوا أكثر جرأة مني، فلم ينتظروا حلمًا قد لا يأتي. بادروا بصنع مشهدهم مثلما أرادوا، اختاروا من بين بنات الجامعة من تروقهم، حددوا المكان والزمان، ألَّفوا الحوار ورسموا الأوضاع ونفَّذوها إلى أن أُنهَكوا. أيشعرون بالتقزز بعد أن ينهوا فعلتهم أم لا يبالوا؟ لا أعرف، فلم أجرؤ على سؤالهم. أننتقم من بنات العاصمة؟ أنعاقبهن على عدم التفاتهن لنا، أم لفشلنا في التقارب معهن؟

الأيام تمر وأنا على حالي لا أتغير، العمل في المكتبة صباحًا ثم المكوث في المدينة الجامعية حتى النوم. أحيانًا أصحب الأخرق والمخبر ونتجول في الأروقة المجاورة. يدفعني الحنين بين الحين والآخر إلى شقة العُزاب فأقضي سهرتي معهم. زياراتي إلى قريتنا قليلة، لا

تحدث في الغالب إلا بعد اتصال أبي أكثر من مرة وإلحاحه بأن أحضر.

لا أعرف لماذا تركت قريتي واستعجلت الغربة!

لا أفهم كيف لم أتأقلم بعد كل تلك الفترة!

الرهبة من المدينة الواسعة تملَّكتني منذ اليوم الأول، وإلى الآن لم تنتهِ. أهرب منها وأختبئ وسط بلدياتي في مدينة الطلبة وشقة العُزاب، ولكن بلا جدوى. أعتقد بأنني لم أقع في غرام العاصمة، وهي الأخرى تريد لفظي.

## (4)

بعد حادثة شريط القطار قاطعتُ شِلة الطائش نهائيًا، وأصبحت أمضي معظم وقتي في القرية مع الأخرق ورفقائه. شلة أغلبها من العاملين في العاصمة، يأتون إلى القرية في الإجازات.

أنا والأخرق أصبحنا لا نفترق منذ مقابلتنا الأولى. معًا في مدينة الطلبة وفي شقة العُزاب وعندما نعود إلى قريتنا لا أجد غيره لأقضي معه سهراتي.

أبي على حاله لم يتغير، هادئ وقليل الكلام، نادرًا ما أراه في المنزل في غير أوقات النوم. يومه مقسم بين العمل والصلاة في مسجد أمير الجيوش وسهرات الغيط مع أصدقائه. ولكن عندما تحضر أختاي وأطفالهما يتغير كل شيء. المأتم يتحول إلى عرس، فيمكث أبي ولا يبرح مكانه مهما طال وقت زيارتهم. تنبعث في البيت حياة لم آلفها من قبل. أختاي وأم ليلى في المطبخ تجهزن الطعام. وليلى الصغيرة تلاحق الأطفال الذين يتحركون من حولنا، منهم من يحبو وهناك من يستند على الكراسي ليتعلَّم المشي. صراخ وبكاء وضحكات، أمهات منشغلات بالطبخ وبطلبات أطفالهن التي لا تنتهي. نكات يطلقها حامد زوج أختي فُتنة فيتفاعل معها أبي ويضحك على غير عادته. وحكايات محمود زوج أختي منى عن الصحابة والصالحين التي أنصت لها على غير طبيعتي.

– عروسة كمال.

أتذكر أنني سمعتها للمرة الأولى في عزومة الخميس الأسبوعية، بالتحديد الخميس الأخير قبل مغادرتي القرية لألتحق بالجامعة. قالتها أختي فُتنة لليلى ابنة عمي دون مناسبة. لم أندهش من ضحكة ليلى الطفولية أو من صمت أبي الذي تعودته. ما استغربته هو الابتسامة التي ارتسمت على وجه أم ليلى، وإن لم تعلق.

كلما تلعثمت وفشلت في الحديث مع إحدى بنات الجامعة أتذكر "عروسة كمال" وكأنني أعاقب نفسي وأقول: فلاح لا يجيد الكلام مع بنات مصر، فقط يحمر وجهه ويتذرَّع الحجج ليرحل، بالتأكيد ستكون نهايته الزواج من عود القصب التي تنتظره في قريته.

اكتشفت فيما بعد أن جميع من في العنبر مثلي، له عروسه المنتظرة. طفلة في الإعدادي حددها الأهل ستكون يومًا أمًا لأولاده.

كلما رأتني ليلى وجريت لتغطي شعرها أكتم ضحكتي. أقول في سري: يا عود القصب تعالي إلى هنا، فما زلتِ طفلة، ما فيكِ من فتنة لتغطيها.

لقاءاتي بليلى نادرة الحدوث. فأغلب الوقت أقضيه بالعاصمة، وعندما أعود إلى القرية لا أفارق الأخرق وشلته. وعزومات يوم

الخميس ليلى لا تحضر أغلبها بسبب الدروس الخصوصية التي تصر أمها أن تتلقاها.

ابتسامة أم ليلى لم تتغير، كلما قالت فتنة جملتها المأثورة، ولكن ما تغير هو ضحكة ليلى. طفلة في الإعدادي تضحك، وفي بدايات الثانوي تخجل ويحمر وجهها، ومتنمرة على أبواب الجامعة تستشيط غضبًا وتشخط في فتنة كي لا تكرر جملتها ثانية: مبحبش الهزار في الحاجات دي يا فتنة.

كبرت ليلى، وهي الأخرى ستذهب إلى الجامعة. عود القصب التفَّ وأصبحت آنسة، أو كما قالت أختي فتنة لتدفعني إلى إتمام الخطبة سريعًا: خرطها الخراط واتمدد مات. لم أفهم كيف خرطها ولماذا مات بعد ذلك! لا أدري لماذا الاستعجال، فأنا لم أنهِ دراستي بعد.

أعرف أنها عروسي لا مفر، وأنا غير قانط أو حزين، لكن الوقت لم يحِن بعد لذلك. أعتقد أن أم ليلى كانت هي الأخرى تميل لتأجيل الخطبة إلى ما بعد تخرُّجي، وإن لم تُصرِّح. لكن ذلك لم يمنعها من البدء في العمل على تقريبي من ابنتها. كلما رجعت إلى القرية اختلقت لي المشاوير.

"ودِّي ليلى الدرس.. روح جيبها من الدرس عشان الوقت متأخر.. نازلين نجيب لبس لبنت عمك لازم تيجي معانا مش هننزل شِبين لوحدنا من غير راجل".

حتى أبي الصامت تحدَّث، وبدا مُهتمًا هو الآخر.

"طلَّع لبيت عمك قفص الفاكهة ده عشان ليلى بتحبه.. شوف مراة عمك محتاجة حاجة.. خد الفلوس دي اديها عيدية لبنت عمك".

حتى أنه كلف أختي فتنة بشراء عباءة وأصر أن أصعد بها إلى بيت عمي وأهديها إلى أم ليلى بمناسبة عيد الأم. وصمم أيضًا أن أزورهما في ذكرى المولد النبوي وفي يدي علبة الحلاوة وعروسة المولد.

في تلك الفترة عرفتُ ليلى عن قُرب. ابنة العم كبرت، تشبه أمها كثيرًا، نفس العينين العسليتين والشعر البني الذي يظهر كلما انزلقت الطرحة عنه. ربما شعرها الناعم هو ما يجعلها تنزلق دومًا إلى نصف رأسها، أو أنها لا تربط حجابها بإحكام لتريني جمال شعرها.

ليلى أشبه ببنات العاصمة، ولكن أكثر تحشُّمًا بقليل. ملابسها على أحدث موضة، تسافر هي وأمها لعاصمة المحافظة خصوصًا لشرائها.

تحتاج أن تطيل النظر إلى وجه ليلى لتلاحظ أنها تضع المساحيق. فهي تستخدمها بحذر ودقة فنان، عكس بنات العاصمة اللاتي أقابلهن في المكتبة. أشعر بأن وجوههن وُضِعَت في علبة طلاء متعدد الألوان، ومع الحر والعرق ذابت الألوان واختلطت، فجعلت وجوههن مضحكة كالمهرجين.

ليلى لا تنتظر الحكايات عن القاهرة. عرفتُ ذلك بعد أن أرهقت نفسي في تأليفها. لعن الله الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي؛ جعلتها تعرف كل شيء وكأنها ولدت هناك! بعد أن تحدثت معها اكتشفت أنني لا أعرف القاهرة على الإطلاق. مجرد ريفي ذهب إلى هناك ليدرس ويعمل وفي الأخير ينام في عنبر المنايفة.

أربع سنوات فقط لا تكفي لأعرف العاصمة، كان هذا هو عذري. ولكن ما العذر في أنني لم أعرف قريتنا حتى الآن؟!

الأخرق الذي أصبح مرشدي أراني الوجه الآخر لقريتنا.

عرفت أن جرجس يبيع البيرة. طالما اشتريت الحلاوة والزيتون من دكانه ولم أكن أتخيل أن بيته الملاصق للدكان مخزن للخمور ومحل البقالة مجرد واجهة.

اندهشت من أن عم سعيد ممرض الوحدة الصحية يؤجر شرائط الفيديو والأسطوانات الجنسية.

دفعني الأخرق لأطرق الباب، وعندما ظهرت زوجة الممرض فزعت. سألتها عن عم سعيد فقالت إنه لم يعد بعد. تنفستُ الصعداء ولكن الأخرق تدخَّل.

– هييجي امتى؟ إحنا عايزينه في مصلحة.

– عاوزين شرايط؟

ردت المرأة، فأعطيتهما ظهري وفكرت في الهروب.

– لا عاوزين أسطوانة.

قالها الأخرق فبهتُّ.

– عربي ولا أجنبي؟

سألتنا زوجة الممرض، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أركض على سلالم البيت هاربًا.

– إنت عيل ياض.

قالها الأخرق ثم جلس بجانبي على الرصيف المقابل للبيت، وأخرج الأسطوانة من جيب بنطاله. لم أرد، فما زلت أنهج.

– هتدفع العشرين جنيه تمن السي دي عشان حركة العيال اللي إنت عملتها.

قالها فأومأت برأسي مستسلمًا لحكمه. عرفت أن مصطفى ابن مجدي الترزي لم يشترِ التوكتوك ليقف به في أول البلدة انتظارًا لزبون يأتي. توكتوك مصطفى بيت دعارة متنقل. لم أصدق الأخرق إلا بعد أن اتصل به ليحدد موعدًا. تحرك بنا مصطفى وعند أطراف البلدة توقف، إلى أن أتت البنت.

قصيرة، سمينة، شحومها تكاد أن تمزق عباءتها الضيقة لتتحرر. جلست بيني وبين الأخرق فانكمشتُ وتمسكتُ بمقعد السائق كي لا أقع. غاص بنا مصطفى في غيط مظلم ثم أوقف المحرك.

– عشر دقايق بس، عشان محدش يشوفنا.

قالها وابتعد عنا أمتارًا قليلة لينتظر. بدأ الأخرق في تلثيم السمينة في أي موقع تطاله شفتاه، ويداه تتجولان تحت عباءتها السوداء تلمسان وتعتصران كل ما يقابلهما. انسحبت من التوكتوك ووقفت بجانب مصطفى الذي أعطاني سيجارة، وبمجرد أن دخنَّاها صاح: خلَّصوا.

كلمته كانت إشارة إلى البنت، فبمجرد أن نطقها بدأت على الفور بالعمل. تركت الأخرق يلثم ويعصر سارحًا في واديه، وقبضت بيدها على المنتصب، وفي ثوانٍ أنهت عليه.

"خلصنا".. صاحت فعدنا إلى التوكتوك، وأدار مصطفى المحرك.

حتى سهرات الغيط كانت مختلفة مع الأخرق ورفقائه. وأنا طفل كان أبي يصحبني معه إلى هناك. نخرج من البيت قبل غروب الشمس بقليل. نقطع الطريق من بيتنا إلى مسجد أمير الجيوش في ساعة. كلما مررنا أمام منزل ألقوا علينا السلام. يرد أبي ويضغط على يدي لأردد وراءه: وعليكم السلام ورحمة الله.

يقابلنا أصدقاؤه ونحن في الطريق فينضمون إلينا، ندخل المسجد في مسيرة، أشبه بمسيرات شيوخ الطرق التي تأتي إلى قريتنا في مولد أمير الجيوش وفي الرجبية.

نُصلي المغرب، وبعد أن ننتهي يستند أبي إلى أحد الأعمدة ويفتح مصحفه. يقرأ فأردد وراءه، بعد فترة أبدأ في التمتمة وكأنني أردد، ثم أنسحب بهدوء من جانبه وأتجوَّل في أروقة المسجد. أشاهد حلقات الذكر والداعين عند المقام والطائفين حوله بغير هُدى. أمُر بين النائمين في بيت الله والشحاذين الملتفِّين حول من يوزع طعام النذور. أتأرجح بين القارئ والذاكر والنائم والطائف، إلى أن يؤذن للعشاء فتستوي الصفوف. بعد الصلاة يصحبني أبي إلى هناك.

سهرات الغيط هي مكافأتي على الدوام، أطلبها فيلبيها أبي ويصطحبني معه في الأعياد والمناسبات. أجلس بجانبه هو وأصحابه، تحوطنا الخضرة الممتدة، متجمعين حول ركية النار وأدوار الشاي لا تنتهي طيلة الجلسة، كلما تصاعد البخار صبو ا وأعادوا ملء البراد ثانية بالمياه.

حكايات أصدقاء أبي لا تنضب أبدًا. مرة يحكون عن سيدي أمير الجيوش وكيف قاتَل مئة من الروم وحده، ومرة أخرى عن سيفه الذي يطيِّر الرقاب بضربة واحدة لا تُخطِئ أبدًا. وفي سهرة ثانية يروون واقعة استشهاده وكيف خانه أقرب قواده نظير دراهم معدودة. يحكون عن دمائه التي ما زالت تسيل، فتفوح رائحتها الزكية لتعطر ضريحه. في قعدة غيط طويلة تكلموا عن حادثة نقل رفات أمير الجيوش من مقامه إلى مقابر الصدقة.

كانوا ينوون أن يهدموا المقام ويشيدوا مستشفى مركزي فوق حطامه. يُقسِم آباؤهم بأن جسد سيدي أمير الجيوش الملفوف بالقماش الأبيض، كان دافئًا كأجساد الأحياء، ودماؤه القانية تقطر فتخترق الكفن والنعش لتسيل على أرض قريتنا، وكأنه يترك لنا ذكرى. يخبروني عن النيران التي التهمت الأخضر واليابس وكأنها حزينة على فراق سيدنا لمقامه. تحدثوا عن الناس المتجمهرة والمحافظة التي قُلِبت رأسًا على عقب ولم تهدأ إلا بعد أن عاد أمير الجيوش إلى مقامه وبُنِي مسجده.

كنت أنبهر بحكاويهم المدهشة، سعيد بشربي لشاي الركية كالرجال، فرح برفقة أبي وبأكواز الذرة التي يُلقى بها إلى الركية لتُشوى لأجلي. كل ذلك كان قبل وفاة أمي، فبعد أن تركتنا بعُد أبي وأنا الآخر بعدت.

سهرات الغيط مع شلة الأخرق مختلفة، لا محل لأمير الجيوش فيها، لا نتقابل أمام مسجده، بل أمام مخزن جرجس. يشترون البيرة ويكفنوها بورق الجرائد والشنط السوداء ثم ننطلق إلى الغيط. قد يجري أحدهم اتصالاً فيتغير المسار، ننحرف يمينًا ويسارًا إلى أن يقابلنا شاب يبيع الممنوعات. الأخرق وأصدقاؤه يدخنون الحشيش. اكتشفت أنه يُباع في قريتنا، والعجيب أن من يبيعه كان زميل دكة في المدرسة الابتدائية.

قعدة الغيط لم تتغير رغم السنون التي مرت. خضرة ممتدة ونجوم تنير السماء وركية وبراد وأدوار من الشاي. صحيح بدأت من دكان جرجس وانتهت بشراء المخدرات لكنها كالسابق مليئة بالحواديت. حكايات جنسية ونكات بذيئة وألسنة تحررت بعد أن فك الحشيش قيدها.

ما يميز شلة الأخرق عن غيرها أن جميعهم قد سكن العاصمة لفترة، إما لدراسة وإما لعمل، لذا لم أحتج إلى تأليف الحكايات كي أبهرهم. أجلس وسطهم وأنا صامت فلا يبالون. هم يتحدثون على الدوام وأنا أتصنَّع الإنصات.

يقول الأخرق متعجبًا: حاجة عجيبة، يعني الدكاترة في الجامعة فلاحين، واللى بيبنوا البيوت صعايدة، والسباكين والنجارين وكل الصنايعية جايين من الأرياف، حتى الريس والوزرا منايفة. أومال أهل مصر بيشتغلوا إيه؟

ينتهي من حديثه فتتعالى ضحكاتنا ولا نُجِب على سؤاله.

أصدقاء أبي بالتأكيد أفضل من رفقاء الأخرق. حكاويهم عن سيدي أمير الجيوش مُسلية رغم أنني لم أعد أصدقها. رائحة شواء الذرة لذيذة عكس دخان الحشيش الذي يخنقني. المكوث مع فلاحين لعبَ الحشيش بعقولهم أمر لم يرُق لي على الإطلاق، ولكن لا بد من رفقة أبدد بها الوقت حتى يحين موعد عودتي للعاصمة.

***

تركت ليلى بطرحتها المنزلقة على الدوام، وفُتنة بجُملها المأثورة وإلحاحها المستمر لإتمام الخطبة، وشلة الأخرق بحماقاتها. غادرت قريبتي بعد أن رأيت وجهها الآخر وعدت إلى العاصمة.

عنبر المنايفة تحول إلى خلية نحل، فامتحانات السنة النهائية على الأبواب. بلدياتي يذاكرون بلا هوادة، وأنا الآخر مثلهم، فجميعنا يريد أن يجتاز تلك المرحلة؛ بدأت بالانتظام في الجامعة وحضور المحاضرات بعد أن تركت عملي بالمكتبة. أصبحنا نشرب القهوة مثل زكريا ونسهر ونضيء الأنوار إلى ما بعد منتصف الليل.

"معسكر مغلق ينتهي بنهاية المباراة النهائية" قالها الأخرق ليُصبر نفسه، فالملل يقتلنا. من الجامعة إلى العنبر وعلى الفور نبدأ بالمذاكرة. لا خروج مطلقًا ولا سهرات في شقة العُزاب.

لا أعرف لماذا لم أتمرد على ذلك الوضع وأغادر حتى لأتمشى بالجوار. فاليوم طويل ومن المستحيل أن يقضيه أحد بالكامل في المذاكرة. ربما لم أجد أحدًا من بلدياتي قد تذمَّر من المكوث فأتشجع ونخرج معًا. ربما محادثاتنا في أوقات الراحة تروقني وتدفعني للبقاء. فكل منهم يحكي قصصًا طازجة من الصعب أن تسمعها من أبناء العاصمة. حكايات عن المستقبل لا عن الماضي. الكل يحكيها بثقة كما لو أنها تحققت بالفعل.

زكريا سيصبح مُعيدًا بالجامعة ولكنه لن يستقر في القاهرة.

– المعيدين بيشتغلوا 3 أيام بس في الأسبوع، هقعد في البلد وآجى بالقطر، المعيدين ليهم اشتراك مُخفَّض في السكة الحديد.

وزميلنا الآخر سيعمل موظفًا في شركة المقاولون العرب.

– عمي هيشغلني هناك محاسب موقع، هنقعد في كل موقع لحد ما المشروع يخلص وبعدين نروح لغيره، مرة محطة مياه ومرة مدينة سكنية تحت الإنشاء، وساعات مشاريع مد طرق وبُنى كباري. الميزة إن فيه سكن للمغتربين ونظام الشغل أسبوعين في الموقع وأسبوع راحة أقضيه في البلد.

حتى الأخرق كانت له خططه هو الآخر.

– أبويا مظبَّط مع عضو مجلس الشعب، هيدفعله كام باكو ويشغلني في شركة الكهربا، الشركة الأم اللي في القاهرة، وهسكن مع بلدياتنا في شقة الغُراب.

لكل منا ليلى تنتظره. الجميع يحكي عن ليلاه التي سيتزوجها بمجرد تخرجه. قد تكون ابنة عم أو خال، جارة، قريبة من بعيد، وبالتأكيد اختارها الأهل. العجيب أن جميعهم مثلي مستسلمون للاختيار وكأنه أمر واقع لا محالة.

كانت تسليتي الوحيدة خلاف سماع القصص هي التفكير في ليلى. تمنيت أن أحدثها بالساعات مثلما يفعل العُشاق، أجلس

على سريري وأسدل الستارة كما يفعل المخبر وأقضي الليل في مكالمات الحب والغرام كما أبطال الأفلام. ولكنني لا أملك رقم هاتفها؛ خجلت أن أطلبه فترفض، وحتى لو معي فمن المستحيل أن أفعلها وأتصل. أخاف أن تُخبِر أمها. لست متأكدًا بأنها تبادلني مشاعر الحب. مشاعري مختلطة وغير مفهومة.

في الصباح عندما أكون بالجامعة أقول لنفسي "عروسة والسلام وأهي شبه بنات مصر"، ولكن في الليل وبعد أن تُطفَأ أنوار العنبر ويعم السكون يصبح الأمر مختلفًا.

أجد نفسي متوترًا بغير سبب، فأنسحب إلى داخلي. أجلس على سريري وأسدل ستارتي لأصنع حاجزًا يفصلني عن الجميع. أستلقي في العتمة وقلبي يخفق كمراهق ينتظر حبيبته، إلى أن تأتي ليلى. جميلة، ساحرة، أشبه بنجمات السينما. تجلس بجانبي فتنقلب العتمة نهارًا ويتحول الضيق إلى براح.

أنطلق في الحديث على غير عادتي. لا تلعثُم ولا حمرة تكسو وجهي. ينطلق لساني بكل كلمات الحب المخزونة في دماغي منذ زمن. ترد ليلى بهمسات لا أسمعها بأذني، وإنما تصل مباشرة إلى قلبي فتسكنه. قبل بزوغ الشمس ترحل بعد أن توصيني بالمذاكرة.

– خلّص الجامعة بقى عشان أبقى مراتك.

ليلى ليست كأي امرأة بالنسبة لي، ليست عروسة والسلام. عرفت ذلك في أحد أحلام يقظتي. كنت مستلقيًا على سريري منتظرًا خيالها أن يحضر، ولكنه تأخر.

ربما الملل هو السبب، أو أن توتر ما قبل الامتحانات جعلني في حاجة إلى لحظة شبق تُرِيح جسدي. خيالي بدأ في العمل. رسم مشهدًا أنا بطله وبطلته إحدى بنات الجامعة.

ستارتي مُسدَلة والبنت أمامي بغنجها وقميصها الشفاف وأنفاسها الساخنة. تحررت من قميصها واستلقت بجانبي فتصاعدت أنفاسي. أقترب منها فتتدلل لتزيد هياجي، أحتضنها وقبل أن أهم بالفعل تظهر ليلى.

خيالها يحضر فيصنع حاجزًا على الفور. تختفي البنت بقميصها الشفاف ويتوقف لهاثي. تشعر ليلى بما أنا فيه فتسامحني على فعلتي المشينة. ترى جسدي المتشنج وحبات العرق التي تكسوه، فتمد يدها وتحتضن يدي فيبرأ جسدي. قبل أن ترحل تكافئني بقبلة على خدي فأطمئن وأنام.

أذاكر لأطرد الملل الذي يسكنني، أريد أن أقطع الأمتار الباقية عدوًا لأصل لخط النهاية. لا أنتظر التتويج، بل اجتياز الخط هو كل ما أطمح إليه. أحلام المراهق القروي في أن يصير سفيرًا تبخَّرت منذ يومي الأول في العاصمة. الأخرق كان كاذبًا، فالكلية لا علاقة لها على الإطلاق بوزارة الخارجية. من سبقونا في التخرج

يملؤون المقاهي وأقصى آمالهم وظيفة مريحة في مصلحة حكومية. أكذوبة اختلقها أخرق ليرحل إلى العاصمة، فصدقها طائش.

أكانت الامتحانات في ذلك العام سهلة، أم أن انقطاعي في العنبر للمذاكرة قد أتى بثماره؟ فبمجرد أن يلقي المراقب بورقة الامتحان إلى طاولتي، ينسكب حبر قلمي على الورق بلا توقف، حتى أنهي عليه. للمرة الأولى أنهي الامتحانات وأنا مطمئن ومتيقِّن من النجاح.

حزمتُ أغراضي، وودَّعت بلدياتي في مدينة الطلاب وفي شقة الغُراب. رحلت وبصحبتي أخرق يصر على أن نودع الجامعة قبل أن نغادر العاصمة. "نبص عليها بصة أخيرة قبل ما نمشي".

إلحاحه أرغمني على الموافقة رغم عدم اقتناعي، الوقت متأخر والحقائب التي نحملها تثني ظهورنا. وأنا في الأساس لا أرغب في أن أودع جامعة لم أقع يومًا في غرامها.

قبل أن نصل إلى هناك أخبرني بغرضه من الزيارة "هنطرطر على أبوها قبل ما نمشي، دي جامعة نجسة بنت كلب".

كنت قد سمعت عن ذلك التقليد ولم ألتفت إليه، ولكن الأخرق ملتزم بتطبيق القواعد. أخبرته بأنني سأتوقف عند ناصية الشارع المقابل للجامعة وأنتظره خمس دقائق، وإن تأخر سأرحل.

– لو عسكري مسكك وخدوك على القسم مليش دعوة. همشي وأرجع البلد.

قلتها فأشار إلى الشارع أمامنا وضحك.

عشرات الطلبة متوجهون إلى الجامعة، خليط من الريفيين والعشوائيين حضر، فالتقاليد الراسخة يجب أن تُتَّبع. سحبني الأخرق ومشينا وسطهم حتى وصلنا. في مواجهة السور وقفت، فلا مفر. فعلوها فشاركتهم، وانهمرت المياه.

## (5)

أيام طويلة قضيتها في قريتنا مُنتظرًا، لا أعلم أكنت أنتظر إتمام خطبتي من ليلى أم نتيجة الامتحانات.

– ليلى جالها عريس.

قالتها أم ليلى في نهاية إحدى عزومات يوم الخميس، ألقتها بلا مقدمات ورحلت، ففهمنا الإشارة، عرفنا أن الوقت قد حان لإتمام الخطبة.

عريس بلا عمل أو حتى شهادة جامعية، سيتقدم لخطبة عروس لم تُسأل في الأساس عن رأيها.

فُتنة رتبت كل شيء مع أم ليلى، حددتا ميعاد الخطبة وأخبرتانا أنا وأبي به.

– هنقرا الفاتحة مع مين؟

قالها أبي، فتأجلت الخطبة لأشهر، المشكلة بسيطة في ظاهرها ولكنها عصية الحل، ممن سنطلب يد ليلى للزواج؟

اكتشفت بأنه لا أقارب لأم ليلى مُطلقًا، "ست وحدانية" همست بها فُتنة في أذني وكأنها تُصرِّح بسِر خطير.

حكى أبي باقتضاب بأن أم ليلى ليست من قريتنا، وإنما من قرية أخرى تقع في أقصى حدود المحافظة.

– بلد أرياف بيوتهم لسة بالطوب النيء.

سافر أبي إلى هناك منذ زمن، "أمها وأبوها ميتين من زمان، وكانت عايشة مع أخوالها، روحت مع عمك وجدك وكتبنا الكتاب هناك، وجت معانا بشنطة هدومها".

منذ أن استقرت أم ليلى في قريتنا لم يأتِ أحد لزيارتها، وهي الأخرى لم تعد إلى قريتها منذ أن تركتها، مداولات شارك فيها الجميع لحل الأزمة، حتى الأخرق أدلى بدلوه:

– يا عم كمال الحل بسيط، اطلع إنت وأبوك عند أم ليلى، وبعدين حط إيدك في إيد أبوك واقروا الفاتحة وزغروطتين من إخواتك البنات وألف مبروك.

بعد تفكير طويل وصلنا إلى حل، همست فتنة لأبي: الفاتحة اتقرت من زمان بينك وبين عمي، مفيش داعي لتكرارها.

فهز رأسه بالموافقة وتمت الخطبة.

شراء قميص جديد هو كل ما فعلته لأستعد. فتنة وأم ليلى قامتا بكل ما يلزم للإعداد للعرس. أبي تكفَّل بالمصاريف، وهن كالعادة تصرفن.

كاسيت موصَّل بسماعة ضخمة تنبعث منها أغنية "يا دبلة الخطوبة"، وطبق به قطعتا جاتوه وبعض من البقسماط الرفيع وضعوه أمامي، وعلبة قطيفة حمراء حملتها يد فتنة.

أبي الصامت جالس أمامي وأختاي بجانب أم ليلى تتضاحكن، ليلى قريبة للمرة الأولى، تجلس بجانبي وكتفها تلامس كتفي، لا أدري أهي خجلى أم أن الحُمرة التي تكسو وجهها بفعل المساحيق.

كل ما أتذكره هو خاتم ذهبي ظهر، ويد بضَّة احتضنتها يدي لثوانٍ ثم انسحبت، وزغاريد انطلقت لتؤذن بانتهاء دوري في العرس، بعدها صحبني أبي إلى الخارج وكأنني غريب، ليبدأ احتفالهن.

وحيدٌ في غرفتي بعد أن تركني أبي ورحل كعادته، ألعن أختَي وخجل البنات الزائف، أسب أم ليلى في سري وأتوعد ابنتها، أسمع صوت الأغاني المنطلق من منزل ليلى فأستشيط غضبًا. الأقدام تطرق بعنف سقف غرفتي، أعرف أنهن يرقصن، أحاول النوم فأفشل.

تأتي ليلى متأخرة كعادتها وتجلس بجانبي، أعاتبهاعلى يدها التي سحبتها وهربت، على طردي وتركي وحيدًا، على رقصها الخليع أمام أختَي.

– حتى لو بنات مترقصيش قدامهم، أنا بس اللي أشوف رقصك.

أقولها فتخجل، تعتذر عن كل ما فعلته، تحتضن يدي وتطيل، تُقبِّلني قُبلتنا الأولى، يحمر وجهها وتريد أن تغادر، تحاول بدلال أن تسحب يدها، لكن يدي تأبى أن تنفك وتتركها، تحاول ثانية

فأجذبها وأطوِّقها بذراعي. في النهاية تستسلم وتستلقي بجانبي على السرير.

أفيق على صوت المؤذن لصلاة الجمعة. أنهض من السرير وأنا غارق في عرقي ومائي. أستحم وأرافق أبي إلى المسجد.

بمجرد أن زيَّن خاتمي إصبع ليلى ظهرت النتيجة ونجحت، وكأن القدر يأبى أن نقترب، فالخطوات القادمة مُحددة سلفًا، وضعها من سبقونا ووجب علينا تنفيذها، خطوبة فنجاح ثم غربة، يتخللها زيارات قصيرة للعروس وبعدها يتم الزواج.

لم أضع خططًا مستقبلية كزملاء العنبر، قلت لأبي: سأرحل إلى القاهرة وأبدأ رحلة البحث عن عمل، أقيم في شقة الغُزَّاب وقد أعمل معهم كالسابق، إن لم أعثر على عمل.

– لا لازم تشتغل بشهادتك، مش هتشتغل صنايعي وإنت معاك بكالوريوس.

رد أبي بغضب وكأن قواعد الأسلاف أصبحت دستورًا ينبغي الالتزام به. خريجو الجامعة يجب أن يعملوا موظفين.

اكتشفت أن أهل قريتنا مقسمون إلى فئات: غير المتعلم يعمل بالفلاحة، والمتسرب من مراحل التعليم الأولى سيصبح صاحب حرفة، أما من أكمل تعليمه فغالبيتهم موظفون، قلة تعمل في

المصالح الحكومية في المحافظة، والأكثرية نزحوا إلى العاصمة للعمل هناك.

فور ظهور النتيجة بدأ أبي بالعمل على توظيفي، محادثات مع زملائه في العمل ورفقائه بالمسجد، لأول مرة أراه جالسًا على المقهى، ارتاده لمقابلة معارفه العاملين بالعاصمة، في ظرف أسبوع أنهى مهمته بنجاح، خيَّرني بين وظيفتين، الأولى في مصلحة الري بشبين الكوم، والثانية بالعاصمة، رفضت الأولى وحزمت حقائبي للعودة ثانية إلى العاصمة.

لا أدري لماذا اخترت العودة إلى القاهرة مرة أخرى، ربما لم أرد أن أثقِل كاهل أبي، فالعمل في مصلحة الري سيُكلِّفه الكثير، عشرون ألف جنيه لسيادة النائب، وخمسة آلاف أخرى سيتقاضاها الوسيط، كل هذا المبلغ مقابل وظيفة بعقد عمل مؤقت، مرتبها بالكاد يكفي مصاريف المواصلات من قريتنا إلى شبين. واحد من شلة الأخرق يعمل هناك محاسبًا، كلما لعب الحشيش بعقله في سهرات الغيط ندب حظه.

– شغلانة خرا، فلوسها مبتكفيش ثمن الدخان وأجرة الميكروباص.

ربما لا أرغب بالاستقرار في قريتنا إلى الأبد وأصبح شهيدًا مثل أبي، لذا اخترت الوظيفة الثانية ورحلت؛ أحتاج إلى فرصة ثانية في العاصمة، وقد أتت، فلِمَ أضيعها؟! تلك المرة ستكون مختلفة، سنة

أو سنتان على الأكثر سأقضيها بمفردي، ثم تأتي ليلى إلى جواري وتؤنسني. قد نتأقلم على العيش هناك فنستقر إلى الأبد.

***

على أطراف العاصمة يقع مقر عملي، في مدينة جديدة كانت منذ سنوات قليلة مجرد كثبان من الرمال على تخوم العاصمة، بناها حاكم إحدى الدول الخليجية، ملك أو أمير لا أعرف. حكى زملائي في العمل أنه أحب مصر فقرر أن يبني في صحرائها مدينة للفقراء تحمل اسمه، أرسل ملايين الدولارات إلى حكومتنا وكلَّفها بالتنفيذ. ردُّوا الجميل بأن شيَّدوا له تمثالاً ووضعوه عند مدخل المدينة.

"المهندس نبيل نائب رئيس جهاز المدينة لشؤون المرافق".

دوَّنت الاسم والوظيفة على قصاصة ووضعتها في جيبي كي لا أنسى.

ابن قريتنا تكفَّل بتوفير العمل، صديق لأبي، تحديدًا معرفة مسجد، فهو مقيم في العاصمة بحكم منصبه، ويأتي إلى القرية في المناسبات والأعياد، عندما يحضر يقابله أبي في مسجد سيدي أمير الجيوش، فهو من مريديه.

حدَّثه أبي في إحدى المرات عني فرد الرجل: "ابعتهولي مصر.. الشغل كتير".

رجل طيب يوظِّف أبناء قريته دون مقابل، حتى الهدايا يأبَى قبولها، لكن الشغل درجات كما يقولون، أبناء الإخوة يوظفهم بمجرد التخرج في جهاز المدينة، وأبناء الأعمام والأخوال يعينهم في إحدى شركات التشغيل والصيانة، أما أبناء عموم قريتنا فعملهم يكون على الأغلب مع أحد مقاولي الباطن.

أول ما وصلت المدينة دهشت، فشباب قريتنا في كل مكان، حارس الأمن الذي استقبلني أمام بوابة الجهاز يسكن في آخر شارعنا. من أرشدني إلى مكتب المهندس نبيل كان زميلي في المدرسة. حتى السكرتير من قريتنا.

بمجرد أن دلفت إلى مكتب ابن قريتنا البار وعرَّفته بنفسي حصلت على وظيفة. أجرى مكالمة هاتفية فحضر بعدها إلى المكتب سكرتيره.

– خد بلدياتك ووصَّله لمجمع الخدمات وخلي المقاول يكلمني.

المسافة بين جهاز المدينة ومجمع الخدمات هي مساحة المدينة بأكملها، الجهاز على مشارفها والمجمع عند خط النهاية. كلما توغلت بنا العربة داخل المدينة قل العمران وحلت الرمال محل المسطحات الخضراء، إلى أن أصبحنا في صحراء تنتهي حدودها ببوابات الخروج من العاصمة، هنا يقع مجمع الخدمات، قبل نهاية حدود العاصمة بكيلو متر واحد.

بوابة ضخمه كبوابات السجون عبرنا منها إلى داخل المجمع، منطقة تحت الإنشاء، كان هذا انطباعي الأول عن المكان، مبانٍ صغيرة من دور واحد متناثرة في الأرجاء، شوارع شبه ممهدة ومسطحات رملية تنتظر التشجير، خزانات مياه ضخمة وأسطول من العربات المتنوعة أشكالها، أغلبها أراه للمرة الأولى ولا أعرف فيمَ يُستَخدم.

السكرتير سحَبني خلفه كالطفل، هو يبحث عن المقاول لينهي مهمته، وأنا أتأمل عالمي الجديد، عنابر ضخمة ينبعث من داخلها أزيزٌ مزعج، وهناجر عالية مُكدَّسة بالمعدات، كلاركات وأوناش تذرع الطريق طولاً وعرضًا وجو معبأ برائحة الكلور، نتنقل من غرفة إلى عنبر ومن ورشة إلى مخزن، إلى أن عثرنا عليه. السكرتير لم يُضِع الوقت في الحديث، فبمجرد أن قابلنا المقاول اتصل بالمهندس نبيل وأعطى التليفون للمقاول.

– على العين والراس يا سعادة الباشا.. طلبات سيادتكم أوامر.

لم يغادر السكرتير إلا بعد أن اطمأن على تسلمي للعمل، أعطاني رقم هاتفه ثم انصرف.

الجهاز هو المسؤول عن مرافق المدينة كافة، مياه وكهرباء، نظافة وتشجير، إنارة ورصف طرق... إلخ، لكنه للأسف لا يملك العمالة المدرَّبة، لذا تعاقد مع شركة حكومية كبرى متخصصة، وتلك

الشركة بدورها لا تمتلك العمالة الكافية لصيانة وتشغيل مرافق المدينة، فأوكلت المهمة إلى عدة شركات خاصة، وحددت لكل منها مسؤوليتها. شركة مسؤولة عن إنتاج المياه، وأخرى للصرف الصحي، شركة للتشجير والري، وأخرى للنظافة والقمامة، شركات لرصف الطرق والإنارة والأمن.

للأسف أغلب تلك الشركات لا تمتلك الخبرة الكافية في النشاط الموكل إليها، لذلك تعاقدت كل منها من الباطن مع مقاول محترف في مجاله لتنفيذ الأعمال، حكى لي ذلك أحد زملائي، فلم أفهم.

انتقلت من عنبر المنايفة في مدينة الطلبة، إلى شقة المنايفة في مجمع الخدمات، فبلدياتي لا يفارقونني أينما حللت.

عمارتان ملحقتان بالمجمع يسكن بهما المغتربون، الأولى احتلها المنايفة منذ أن وطأت أقدامهم المجمع ولم يدخلها غريب، والثانية يسكنها خليط من الشراقوة والصعايدة. عندما سألت أحد شركائي في السكن عن فحوى ذلك التقسيم رد: الشراقوة والصعايدة ولاد عم، عشان كده بيرتاحوا في السكن مع بعض.

هززت رأسي، وكأنني اقتنعت بأننا من جنس آخر، وجب عليه الانعزال عن الجميع والعيش وحده.

تعوَّدت على السكن المشترك، لذا لم أتذمَّر رغم طباعنا المختلفة. في العمل صباحًا، وليلاً أمام التليفزيون حتى أنام. لم أفكر حتى في استكشاف المدينة، فتجربتي الأولى في العاصمة كانت مريرة، ولا أريد أن أكرر خيبتي ثانية.

عملي كان سهلاً، مهمتي هي التدوين ليس إلا. أخرج يوميًا من المجمع إلى شوارع المدينة، برفقة مشرف الجهاز ومقاول المشروع أسير، هما يشرفان على الأعمال وأنا أكتب ملاحظاتهما الشفوية على الورق.

يوم في حصر أعمده الإنارة التالفة، وآخر في استلام شبكة خطوط الري، وأيام في تدوين الملاحظات بشأن المسطحات الخضراء، وأخرى في حصر أعداد الأشجار في المدينة وأنواعها. عندما ننتهي أعود إلى المجمع، أجلس إلى جهاز الكمبيوتر وأكتب الملاحظات، ثم أرسلها بالفاكس لشركة التشغيل والصيانة.

الشركات المسؤولة عن مرافق المدينة تتغير باستمرار؛ مقاولو الباطن تنتهي عقودهم فيأتي غيرهم، الجميع يرحل إلا نحن باقون، المنايفة والشراقوة منذ أن أتوا إلى هنا لم ينقصوا واحدًا إلا بالموت، وكأنهم استوطنوا المجمع فأصبحوا من مقتنياته التي يستحيل الاستغناء عنها. المهندس نبيل حصن أمان بلدياتي، والشراقوة يستندون على كبيرهم نائب رئيس الجهاز لشؤون الإسكان.

ربما لم نرحل بفضل بلدياتنا المسؤولين ودعمهم، وقد يكون السبب أن أبناء العاصمة يرفضون العمل في أطرافها البعيدة عن العمران، ربما المرتبات الضئيلة وساعات العمل الطويلة هي السبب في امتناعهم عن الحضور إلى هنا، ولهذا بقينا.

ذات مرة ونحن نحصر سلات القمامة، قال لي المقاول: "سبع ساعات في نقرة الشمس بنعِد صناديق الزبالة ومش راضية تخلص، ده لو واحد من بتوع مصر كان مكاننا، كان جاتله ضربة شمس، وقالهم عايز أجازة مرضي".

تركت أم ليلى في قريتنا وجئت إلى هنا لأجد أمامي مائة أم ليلى.

تُصِر أن أناديها بعمتي وهي ليست بعمة، والآخرون هنا يُصرِّون بأنهم أعمامي، أنا الوافد الجديد، صغير السن الذي ينصحه الجميع، ينبغي قبل أن ينطق لساني باسم أحدهم أن أسبقه بكلمة "يا عم".

عمارة كاملة تعج بالأعمام.

تبدأ بعم الشيخ أحمد ساكن شقة الدور الأرضي، الذي كلما قابلني يبدأ نصائحه "الصلاة جماعة يا كمال"، نصيحة بصيغة الأمر، فهي من عم، يمسك بيدي ويسحبني خلفه كتلميذ خائب حتى نصل إلى مسجد السكن، ولا يرحل إلا بعد أن يتأكد أنني أدَّيت الفرض والنافلة.

وتنتهي بعم بيشوي حامي حِمى الأخلاق والفضيلة، ومُنقِذ الشباب الطائش من الوقوع في الرذيلة. عندما أخبره زملاء السكن بأنني ركَّبت عدسة جديدة للدِش لمتابعة الدوريات الأوربية اتنفض، قطع الأسلاك وهدد بسحب الريسيفر من الشقة إذا كررت هذا الفعل ثانية. بعدها ألقى عليَّ خطبة عصماء وكأنه إمام جامع سيدي أمير الجيوش.

– يا كمال يا ابني حرام عليك، أنا خايف عليك من غضب ربنا، الأوربي ده قمر نحس وكله وساخة.

ممدوح البطل كبير شقتنا هو صورة من أم ليلى، عندما أراه أشعر بأن عمتي قد نبت شاربها، وقصَّت شعرها وجاءت هنا لتُكدِّرني.

– الصحيان هنا بميعاد والنوم بميعاد يا كمال، ما هي مش عربخانة كل واحد فيها على راحته!

يوقظنا في السادسة صباحًا ولا يقبل بأي حجج أو أعذار، يوزع المهام ويحدد المسؤوليات المنزلية لكل منا.

– كمال يجهز الفطار وعلي يغسل المواعين وأنا هكنس الشقة.

أتذكر أنه قد أرجعني أكثر من مرة لأرتب سريري، أكون قد خرجت من مدخل العمارة، ينادي عليَّ من بلكونة السكن: "اطلع يا كمال"، فأصعد وأنا مغتاظ، أرتب السرير وأرحل.

دائمًا ما يقول: أنا لو سِبتكم على راحتكم هتخلوا الشقة زريبة. فلا نُعقِّب.

"الورشة العمومية مُلحَق بها زاوية للصلاة"، قالها زميلي في العمل بعدما لاحظ عدم التزامي بصلاة الظهر، صحبني إلى الزاوية، وبعد أن أنهينا صلاتنا تركني ونام مع النائمين هناك.

ورشة كبيرة لم أرَ مثلها من قبل، مساحتها قيراطان أو أكثر، مخارط ضخمة وأوناش ومعدات لحام، فناطيس مياه يجري إصلاحها وطلمبات يتم صيانتها. على جانبي الورشة غُرف للعمال وحمامات وبوفيه، وفي المنتصف غرفة واسعة ذات واجهة زجاجية، عرفت أنها مخصصة للمهندسين ليتمكنوا من مراقبة العمل دون أن يغادروا مكاتبهم.

"يا عالم يا حرامية" صِحت بها فلكمني على الفور.

شكله المضحك هو ما دفعني لمراقبته، طويل وضخم، يرتدي نظارة غريبة، يده الكبيرة قابضة على مسدس اللحام، يوجهه إلى ماسورة مكسورة، فترتَد شرارات النار لتحيط به من كل اتجاه، ذكَّرني بصديق اللمبي في فيلم الناظر، فانفلتت من فمي ضحكة، فلاحظ.

– فيه حاجة يا بلدينا؟!

– البوفيه مقفول ومستني يفتح عشان أشتري حاجة.

قلت ذلك لأبرر مكوثي الطويل في الورشة، وليتني ما قلته! فالضخم هو المسؤول عن البوفيه، عرفت ذلك عندما خلع نظارته وترك ماسورته المكسورة وصحبني إلى هناك.

اشتريت أول ما وقع علية نظري، دفعت ثمنه ورحلت. "كده ناقص جنيه" قالها الضخم فأكملت المسير فـ"الحساب مظبوط".

ثلاث من خطواته الواسعة كانت كافية ليصل قربي. مد يده وقبض على كتفي.

"إنت عامل من بنها؟!" قالها فاستدرت وأزحت يده بعنف.

– الفلوس اللي دفعتهالك مظبوطة، إنتو عالم حرامية.

قلتها بصوت جهوري علَّ أحدًا من بلدياتي يسمع فيأتي لنجدتي. لم يرد الضخم على صياحي بصياح، وإنما بلكمة أدمت وجهي، ويومها عرفت كانتين الغلابة.

– أصله ميعرفش إن ده كانتين يتامى.

كلمة قالها ممدوح البطل للضخم، فأنهت الشجار، بعدها لثم الضخم على رأسي وتصالحنا.

لم أفهم معنى لقب "كبير الشقة" إلا يوم استلامي للمرتب، اتصل زميلي ليُبشِّرني "الفلوس وصلت"، فأنهيت مهام التدوين والحصر بسرعة وعدت إلى المجمع. في الطابور الطويل وقفت، وعندما حان دوري ناولني الصرَّاف ورقة.

"دي قسيمة القبض، احتفظ بيها" قالها الصراف فظننت أنه يمازحني.

"ريفي ساذج في شهره الأول بالعمل، فلا ضرر من الهذر معه"، همست بها لنفسي، ثم قلت له ضاحكًا لأجاريه:

طب دي الورقة، فين النقدية بقى؟!

فاجأني بسؤاله: إنت في عمارة الشراقوة ولا المنايفة؟

– المنايفة.

– ساكن في شقة كام؟

قالها فتيقنت بأن نهاية ذلك المزاح مشاجرة. كتمت غضبي وأجبته: في شقة رقم 7.

رد: الفلوس مع عمك ممدوح البطل.

كبير كل شقة هو المنوط باستلام المرتبات. عُرْف تحوَّل مع مرور الوقت إلى قانون. الأمر بدأ بزميل استدان من الجميع ورحل بغير عودة، لم تُحَل الأزمة إلا بعد أن تدخَّل كبراء الشقق. سافروا إلى قريته وحصَّلوا الدين من عائلته. من يومها وكبير كل شقة يستقطع من المنبع. يوزع المرتبات بعد أن يسدد الديون ويخصم الاستحقاقات.

أقف في مواجهة ممدوح البطل وأنا أكاد أنفجر من الغيظ، أشعر بأنني طفل صغير ينتظر هبة من محسن، يناولني هو الآخر

ورقة، ولكن تلك المرة بداخلها نقود، قصاصة ملفوفة بإحكام بداخلها ثلث راتبي، هو كل ما أعطاني. قبل أن أنطق مُعقِّبًا بادر هو بالحديث.

– معلش يا كمال، الخصم كتير عشان ده أول شهر ليك هنا، بعد كده بنخصم التلت بس وهتاخد التلتين.

القصاصة مدوَّن بها أرقام وبنود، تبدأ بالرقم الكبير ثم تتوالى عمليات الطرح لتنتهي بالمبلغ المستحق. خزين وصندوق عمارة وصندوق يتامى وبطاقة رقم قومي، آل لتلك البنود ثلثا راتبي.

– الخزين بنجيبه أول الموسم جملة، والأكل حسابه بالشهر وبندفعه مقدم، بس إحنا استثيناك أول شهر لحد ما تقبض.

قالها كبير شقتنا بكل فخر.

بلدياتي يعيشون في العاصمة ويفكرون بعقلية القرية، المطبخ مُكدَّس بشكائر الأرز والمكرونة وأجولة البطاطس والبصل، وكأنهم يستعدون لمجاعة قادمة.

– مخزون إستراتيجي.

قلتها فلم يضحك أحد.

استغربت من بندَي الصناديق، فسألت ممدوح البطل: إنت بتخصم مننا تأمينات ومعاشات ولا إيه؟

أخبرني بأن لكل صندوق وظيفة محددة، صندوق للابتسامات والآخر للدموع.

الأول صندوق العمارة، أنشأه بلدياتي فور استلامهم العمل بالمجمع، عشرة جنيهات تخصم من كل واحد منهم شهريًا، أعضاؤه هم المنايفة فقط، ويتولَّى إدارته أكبرهم سنًا، الصندوق مخصص لحالات الزواج والإنجاب والمرض، مبالغ محددة سلفًا لكل حالة، تُصرَف لترسِم الابتسامة على الوجوه وتشيع روح الود والتكافل بين أبناء المحافظة الواحدة.

أما الثاني فهو صندوق اليتامى، جاءت فكرته عندما حدثت حالة الوفاة الأولى بالمجمع. مات أحد الزملاء فسالت الدموع حزنًا على فراقه. ساهم كل واحد من بلدياتي بمبلغ وأرسلوه إلى زوجة الفقيد، بعدها بشهور حضرت الزوجة إلى المجمع تطلب العون.

– الحال صعب والعيال مصاريفهم كتير.

أعطوها ما فيه النصيب ورحلت، ذرفوا الدموع وبعدها أنشؤوا الصندوق، أعضاء الصندوق هم كل العاملين بالمجمع، فالاشتراك إجباري والخصم يتم من المنبع. يوم صرف المرتبات يجلس المسؤول عن الصندوق بجوار الصراف ويقتطع من كل كبير حصة شقته.

صندوق الدموع مخصص للموت فقط، ولا يُصرَف منه قرش لأي حالة خلاف ذلك. ألف جنيه تُصرَف بعد الوفاة مباشرة،

ومائة جنيه تُصرَف شهريًا لكل يتيم، ومائة جنيه أخرى في الأعياد. النقود يستلمها في أول كل شهر زميل يسكن في نفس قرية المتوفَّى ويسلمها باليد لزوجته.

سنين مرت وزميل تلو الآخر انتقل إلى جوار ربه، وأيتام زاد عددهم، وصندوق قارب أن ينضب، تفاقمت المشكلة وأوشك الصندوق أن ينهار، إلى أن أتت الفكرة وأنشئ كانتين اليتامى.

كانت فكرة الضخم، اقترحها فلاقت استحسان الجميع. استلم ما تبقى من رأس مال الصندوق واشترى البضاعة، بعدها حوَّل إحدى غرف العمال بالورشة العمومية إلى كانتين. بضع موافقات شفهية من المسؤولين، تمت بعد مباركة المهندس نبيل للمشروع الخيري، وبدأ العمل، ثلاثة دواليب قديمة حوَّلها الخرَّاطون واللحَّامون في ساعات قليلة إلى استاندات لعرض البضائع، كانت كافية ليتم الافتتاح.

الضخم نجح بامتياز، فبعد أربعة أشهر فقط أرجع لإدارة الصندوق أصل المبلغ بالكامل، وفي نهاية كل شهر يُسلِّمهم الأرباح. قواعده في إدارة الكانتين أتت بثمارها، رغم الاعتراضات التي لاحقته في البداية.

– الشكك ممنوع. آخد الفلوس في إيدي قبل ما تمد إيدك وتاخد حاجة. آه كل صنف أغلى نص جنيه، ما هو مش

الجمعية التعاونية اللي في بلدكم، ده صندوق يتامى، احمدوا ربنا إنكم بتلاقوا أكل وشاي في وسط الصحرا.

جسده المفتول العضلات وصوته العالي وطريقته الخشنة في الحديث، ولكماته القوية التي يستخدمها إذا ما تأزم الوضع، جعلت الجميع يلتزم بالقواعد. بفضل سياسات الضخم انتعشت موارد الصندوق فتغيرت لائحته، تضاعفت المبالغ التي تُصرَف في حالات الوفاة، وأُضيفت منحتان جديدتان تُصرفان للأيتام قبل دخول المدارس وفي بداية شهر رمضان.

## (6)

شقة المنايفة تحتوي على ثلاث غرف وستة أسرة وخمسة من السكان، كل اثنين منا في غرفة، وممدوح البطل يحتل الثالثة بمفرده، ربما حصل على غرفة مستقلة بحكم كونه أكبر سكان الشقة سنًا وأقدمهم في العمل بالمجمع، وربما لا أحد يريد رفقته فبقي وحيدًا مضطرًا.

ممدوح من قرية ملاصقة لقريتي، بمجرد أن حصل على دبلوم الصنايع ترك قريته وسافر إلى أعمامه بالخليج، عشر سنوات قضاها هناك، نجار باب وشباك ممتاز، هكذا يقول الجميع، عاد من الغربة فشيَّد بيتًا وأسَّس محلاً للنجارة ولوازمها. استقر في قريته ولم يكن ينتوي الغربة ثانية، إلى أن عرض عليه أحد أقربائه أن يوظفه بالقاهرة، الوظيفة الحكومية أغرته فشد الرحال إلى العاصمة.

– عشان المعاش للعيال، لو الواحد حصله حاجة، الشغل الحر مش مضمون.

وصل إلى هنا فتبددت أحلامه، اكتشف أن العمل بالمجمع ليس حكوميًا وإنما مع مقاول، محاولة تلو الأخرى وأقارب يتصلون ومعارف يترجون، حتى لان المهندس نبيل ونقله للعمل بوظيفة أخرى، طبعًا لم يوظفه في جهاز المدينة، فالقواعد راسخة، ولكن كثرة إلحاح ممدوح جعلتها مرنة بعض الشيء. عيَّنه في إحدى

شركات التشغيل الخاصة، عمل ليس حكوميًا ولكنه يشتمل على تأمين صحي واجتماعي.

مع مرور الوقت حصل البطل على بعض الامتيازات: غرفة بمفرده في السكن، استقلال الأوتوبيس المخصص لموظفي الجهاز من أبناء محافظتنا "خط القاهرة – المنوفية"، ويوم إجازة إضافي خلاف الجمعة والسبت نظير عمله نوبتجيات مسائية في المجمع.

ممدوح البطل فني ميكانيكا في المجمع بحكم الدبلوم، وفي قريته نجار، يغادر المجمع يوم الأربعاء بعد انتهاء الدوام، وبمجرد أن يصل إلى قريته يتوجَّه للورشة، يراجع الحسابات مع أخيه ويبدأ في العمل.

– الشغل في المحل بالنص، أنا 3 أيام وأخويا 3 أيام، والمكسب أنا التلتين وهو التلت، ده حق ربنا، ما أنا صاحب المحل والعدة.

مدمن عمل، صباحًا في المجمع ومساءً في شقق المدينة، وأيام إجازته يقضيها بالمحل.

– لو الواحد ارتاح وبطَّل شقى هيموت.

يقولها فينقبض قلبي ولا أرد.

***

مدينة رائعة تشبه المدن الأوربية التي أراها في الأفلام، ينقصها ثلوج تتساقط من السماء وبعض من أصحاب الشعر الأشقر

لتصبح مثلها بالضبط، تلك كانت ملاحظتي الأولى بعد أن سِرت في شوارعها لساعات طويلة أدوِّن وأحصُر.

فيلات ضخمة وشوارع عريضة مُزينة جوانبها بالأشجار ذات الورود، مسطحات وأحزمة خضراء تُروى بأحدث طرق الري وتُشذَّب بإتقان، فتشعر من فرط استوائها أنها اصطناعية، سيارات فارهة تتهادى في الطرقات وممرات خاصة لسائقي الدراجات، ومربيات آسيويات يصطحبن الأطفال للتنزُّه. مدينة بُنيَت للفقراء فسكنها الأغنياء.

– هما كام بلوك بنوهم للغلابة وعملوا عليهم قُرعة، واللي رسيت عليهم الشقق باعوها واستفادوا بالمكسب.

قالها ممدوح البطل، وبعدها هرولنا خلف الأوتوبيس لنلحقه.

لم أخرج من المجمع إلا للعمل، لم أحضر إلى هنا للتنزُّه؛ لا أريد أن أستكشف أو أتأقلم أو أنسجم، جئت إلى هنا من أجل العمل ليس إلا.

في ذلك اليوم اتصل بي ممدوح وطلب مني أن ألاقيه عند موقف الأوتوبيس. "رايحين مشوار". تحججت بالعمل كي أتهرَّب من الخروج، فأخبرني بأن حضوري مهم وأنه استأذن المقاول لأنصرف.

عمي البطل يضع الخطط وينبغي أن أنفذها.

خرجنا من المدينة وتوجهنا إلى منطقة إمبابة، أخبرني ونحن في الطريق بأن أخاه يستقر هناك منذ زمن ويمتلك محلاً للأثاث والموبيليا. بعدما وصلنا وشربنا الشاي صحبنا أخوه إلى قسم الشرطة.

بادر البطل بالحديث: زميلنا بطاقته ضاعت وعايزين نعمل محضر.

نظر إليَّ أمين الشرطة، وقبل أن يبدأ بالأسئلة ألقى البطل بورقة من فئة خمسين جنيهًا في درج مكتبه المفتوح، دقائق وخرجنا من القسم وبيدي محضر مُذيَّل بخاتم شعار الجمهورية، وفي جيبي بطاقتي، بعدها صحبني إلى مكتب سمسار عقارات في الجوار، أعتقد أنه صديق للبطل، فبمجرد أن دلفنا إلى المكتب تعانقا، سلَّمه البطل النقود واستلم منه عقد الإيجار وإيصال الكهرباء، تأكد من الأوراق ثم انصرفنا.

أصرَّ أخوه على دعوتنا إلى الغداء بمنزله.

– معلش الجايات أكتر من الرايحات؛ الطريق طويل ولسة قدامنا مشوار تاني.

تركنا أخوه لدقائق وبعدها عاد حاملاً شنطة مليئة بالسندوتشات، تركها لنا وانصرف، قبل الساعة الثانية ظهرًا بعشر دقائق كنت أقف أمام موظف السجل المدني. فحص الموظف

الأوراق بدِقة وتأكد من وجود خاتم شعار الجمهورية على محضر الفقد، طابق العنوان المدوَّن بعقد الإيجار بإيصال الكهرباء، وفي الأخير استلم الأوراق وأعطاني إيصالاً ممهورًا بتوقيعه، محددًا به موعد استلام البطاقة الجديدة.

– ألف مبروك يا عم كمال، بقيت من سكان القاهرة الكبرى رسمي.

قالها البطل ونحن في طريق عودتنا إلى المجمع.

جميع بلدياتي في المجمع يمتلكون بطاقتَي تحقيق شخصية بمحلين مختلفين للإقامة، الأولى بالعنوان الحقيقي والثانية بمحل إقامة آخر في العاصمة. السبب في ذلك أن أغلب الشركات التي تتولى أعمال المرافق في المدينة تشترط بأن يكون العاملون من سكان القاهرة الكبرى، شرطًا من شروط التعيين.

– وكمان عشان التقديم في الشقق.

قالها ممدوح البطل بلهجة العارف ببواطن الأمور.

أحلامي تبخَّرت، فليلى بعيدة رغم القرب، اللقاءات أصبحت رسمية والمكالمات التليفونية لا تتجاوز السلام والسؤال عن الأحوال، حوارات افتراضية أؤلفها في خيالي، أغيِّر وأبدِّل فيها حتى أستقر، ثم أجلس بالساعات لأحفظها، وبعدها أتصل. بمجرد أن ترد ليلى "آلو.. إزيك يا كمال؟"، تطير الكلمات من عقلي وأصير أبكم،

أجاهد وأحايل لساني لينطق، فيخرج كلامي متقطعًا، جُمل تتكرر فتفقد معانيها.

– إزيك؟ عاملة إيه؟ إيه أخبار المذاكرة؟

ترد ليلى باقتضاب، فأيأس وأنهي المكالمة.

أعود إلى قريتنا لأطارد أحلامي المؤجلة، أصعد إلى ليلى لعلَّني أقترب، لكن الباب المفتوح ونظرات عمتي المصوَّبة دائمًا باتجاهي تجهض تمنياتي في مهدها. كل شيء أصبح رسميًا منذ أن تمت الخطبة، أصعد مُحمَّلاً بأكياس الفاكهة فتقابلني أم ليلى بالترحاب. لست متعودًا على ذلك، الابتسامة المرتسمة على شفتي عمتي وصوتها الخفيض وضحكتها التي تنطلق بعد كل جملة أقولها، تشعرني بأنني غريب، ضيف أتى فوجب على الجميع أن يتصنَّع الاهتمام.

حتى ليلى لم تعد كما كانت في السابق، "أتوحشك يا عود القصب"، أفتقد نظرة عينيها عندما تراني على باب شقتهم وهروبها من أمامي، أشتاق إلى خجلها بعدما تعود والطرحة تطوق رأسها، حتى تنمُّرها وغضبها كلما قالت لها فتنة "عروسة كمال" أفتقده.

منذ أن خُطِبنا وكل شيء تغيَّر، أجلس في غرفة الصالون كالأغراب، تلاحقني أم ليلى بأكواب العصير وأطباق الحلوى، وكأنني خروف تُسمِّنه استعدادًا لنحره في العيد. وقت يمر وكلمات تكررها على مسامعي عشرات المرات.

– إزيك يا كمال؟ كيف أحوالك؟ الشغل تمام؟ وحشتنا والله.

لا أفهم أتكررها للتوكيد أم لتمرير الوقت حتى تحضر الغائبة.

أراها قادمة فأشك أهي حقيقة أم سراب العطشى إلى الماء. تقترب من باب الغرفة فأتيقن أنها حقيقة، تشرق ليلى فتنير المكان، كل ما عاداها يتلاشى وكأنه لم يكن، الصالون الذهبي، المنضدة، الأكواب والأطباق، حتى عمتي تختفي.

تُحييني فيعجز لساني عن الرد وأومئ لها برأسي، تجلس في مواجهتي وتبتسم، أحاول أن أستفيق من سكرتي، أجمع الكلمات المبعثرة في دماغي، لكن قبل أن ينطق بها لساني يخترق أذني صوت أم ليلى.

– تشرب إيه يا حبيبي؟

لا أعرف يقينًا السبب في ارتباكي، أهو الباب المفتوح وأم ليلى التي بالخارج تراقبني، أم خطيبتي التي أصبحت رسمية. جلباب البيت لم تعد ترتديه في حضوري مُطلقًا، طرحتها لم تعد تنزلق كالسابق، ومساحيق وجهها زادت وأصبحت واضحة. ربما مظهرها الذي أصبح مطابقًا لبنات الجامعة هو ما جعلني أتلعثم.

عشاء يوضع وخروف تعلفه أم ليلى ليسمن، وبعدها أحمل خيبتي وأودعهما، أهبط إلى شقتنا وأستلقي على سريري علَّ ليلى تأتي في أحلامي ونقترب.

أحلامي مؤجلة إلى حين.

– هتاخدوا على بعض بعد الجواز، وهتزهقوا من كتر الكلام.

تقولها فتنة لتواسيني فيزيد غضبي، فأم ليلى حكت لها كل شيء.

– الواد واكل سد الحنك، بفضل ألاغي فيه وأفتح مواضيع ومفيش فايدة. الاتنين قاعدين مع بعض زي الخُرس.

الزواج مؤجل حتى تنهي ليلى دراستها. قرار أم ليلى لا يقبل النقاش، حاولت فتنة كثيرًا أن تثنيها ولكن بلا جدوى.

أختي تشعر بما أنا فيه فتتصرف كعادتها.

– كمال عايز يشتري جزمة وشنطة لليلى ويعزمها على الغدا في شبين.

وافقت أم ليلى بصعوبة، وبعدها وضعت الشرط: هتروحي معاهم يا فتنة.

خرجنا نحن الثلاثة، وعند موقف الميكروباص ودَّعتنا فتنة، أخبرتنا بأنها ستعود لمنزلها، وقرب أن نعود من شبين نتصل بها لتوافينا في الموقف.

– أجيلكم ونركب مع بعض توكتوك لحد البيت، عشان أم ليلى متشُكِّش في حاجة.

أنا وليلى وحدنا، أجلس بجانبها وكتفي تلامس كتفها كيوم خطبتنا، تتحرك العربة فتتوارى قريتنا وننطلق إلى عاصمة المحافظة. السير برفقة فتاة للمرة الأولى جعلني أنتشي. غريبان في مدينة لا يعرفنا فيها أحد، ربما هذا ما حرَّرني وجعل لساني ينطلق بالحديث، صحيح كلماتي غير مُرتبة كما في الأحلام، ولكنها خرجت على أي حال. حُمرة وجهها وعيناها اللتان تتهربان من نظراتي أشعرتني بالظفر. تشجعت وطبقت على يدها بأصابعي ثم طرحت عليها السؤال:

– بتحبيني زي ما بحبك؟

نظرت في الأرض ولم ترد؛ كررت سؤالي وهي تحاول أن تسحب يدها. ضحكتُ وضغطتُ بأصابعي أكثر.

– ما أنا مش هسيب إيدك إلا لما تردي.

أومأت برأسها: خلاص سيب بقى ما أنا رديت.

أغمضت عيني: ما أنا مش بشوف، أنا بسمع بس.

– فتح عينك العربيات هتخبطنا، خلاص أنا كمان بحبك.

قالتها بسرعة وبعدها سحبت يدها.

اكتشفت أنني الوحيد الذي اكتفى بالعمل الصباحي فقط، جميع بلدياتي بمجرد أن ينتهي دوام عملهم بالمجمع، ينطلقون إلى أعمال أخرى بالمدينة.

نجار وحارس أمن وطباخ وبائع ملابس هم زملائي في السكن، نتقابل وقت الغداء وبعدها يرحل كل منهم إلى عمله، وأبقى وحيدًا، يعتبرونني مجرد عاطل يستفيد بالامتيازات، فيثقلون كاهلي بالمهام المنزلية، الطباخ يعود من عمله بعشاء مجاني للجميع، والنجار يُصلِح أثاث الشقة المتهالِك، وحارس الأمن وبائع الملابس يحضران لنا من خيرات المول ما استطاعا. يحثني ممدوح البطل دائمًا على العمل.

– المول مليان شغل وفلوسه حلوة، بلدياتك كلهم شغالين هناك.

مهما أبرر وأشرح له أسباب رفضي للعمل لا يقتنع. مرتبي يكفي ويزيد عن حاجتي، ثلثه يُخصَم نظير الأكل والصناديق، والباقي أودعه في دفتر التوفير الذي تضخَّم، السير في شوارع المدينة يوميًا لساعات طويلة لإتمام مهام التدوين والحصر يستنزف طاقتي بالكامل. عمل سهل لكنه مُرهِق، زاد من نحافتي وأبرز عظام وجهي وكساه سُمرة. بمجرد أن ينتهي دوام عملي أهرول إلى السكن لأرتاح، جسدي لا يتحمَّل أن أعمل بوظيفتين مطلقًا.

التفكير في ليلى ومشاهدة التليفزيون والقيام بالأعمال المنزلية، تلتهم الوقت حتى أنام. في كل ليلة أحلم بيوم عودتي إلى قريتنا، بليلى التي تنتظرني هناك، بالباب المفتوح ونظرات عمتي، بوعد فتنة لي بفسحة أخرى مع ليلى في شبين، بالأخرق وخططه التي فشلت

وإلحاحه أن أقابله عند عودتي، أحلم ببطاقتي الجديدة وعنواني القاهري.

دائمًا ما يفسد البطل حلمي، إما أن يوقظني قبل أن ينتهي الحلم، وإما يظهر في منامي ويوبخني.

– شوفلك شغلانة واسعى على أكل عيشك أحسن من قعدتك في البيت قدام التليفزيون زي الحريم.

***

– معاك خمس تلاف جنيه؟

قالها البطل فظننت أنه ظهر في حلمي كعادته. كرر سؤاله ولكزني في ظهري كي أستفيق: معاك فلوس ولا لأ؟

أجبته بنعم وأكملت نومي، رشَّ وجهي بالماء: صحصح وفوق يا كمال عشان رايحين مشوار.

بعدها اصطحبني كالعادة لنُنفذ خططه.

طابور تلو طابور حتى أنهينا المهمة، بدأنا بطابور السجل المدني لأستلم بطاقتي ذات العنوان الجديد، وبعدها طابور مكتب البريد لنسحب المبلغ من حسابي هناك، وانتهينا بطابور طويل وقفنا به لقرب العصر حتى أنهيناه.

لافتة على مرمى البصر أراها. ساعات تمر وطابور يتحرك ببطء إلى أن ظهرت اللافتة بوضوح يسمح لي بقراءة الكلمات المدوَّنة عليها، "شقق الإسكان الاجتماعي لأبناء محافظة الجيزة".

يتركني البطل ليستكمل الأوراق ويعود بين الحين والآخر ليطمئنني.

– تعب يوم ولا تعب كل يوم يا كمال، فرصتك كبيرة، عنوان بطاقتك الجديدة على محافظة الجيزة، ومكان شغلك في نفس المدينة اللي فيها الشقق.

أخبرني بأنه قد جهَّز إفادة من المجمع، بأنني من العاملين به، وأسكن في استراحات الموظفين، لحاجة العمل لي على مدار اليوم. قال بثقة: اطمن.. المهندس نبيل موصي الناس هنا عليك.

حكى لي البطل بأن أغلب بلدياتي في السكن قد حصلوا من قبل على شقق الإسكان الاجتماعي بنفس الطريقة. عنوان قاهري وإفادة من المجمع وتوصية من المهندس نبيل ويتم الأمر.

أنهينا الطابور وسلَّمت أوراقي وسددت المبلغ، بعدها أعطوني ورقة، قال البطل وهو يشير إلى الورقة التي طويتها:

– إيصال السداد ده حافظ عليه، عشان أول ما الشقة تتخصصلك هتبيعه بـ25 ألف جنيه.

لم أعرف بماذا أرد، فأومأت برأسي وتمتمت.

زياراتي إلى قريتنا أصبح لها طعم مختلف بعد رحلة شبين وتحرري أنا وليلى من خجلنا. وأنا في المجمع أنتظر بفارغ الصبر أن يأتي يوم الخميس لأرحل وألاقي حبيبتي. الدقائق القليلة التي أهاتف فيها ليلى تهون ساعات الليل الطويلة في السكن، صحيح لساني لم يتحرر بالكامل، ولكن بِت أقول لها أحبك، ولا أنهي المكالمة إلا بعد أن تكررها على مسامعي، تقولها بصوت خفيض ثم تغلق الخط في وجهي.

محاولات فتنة باءت بالفشل؛ أم ليلى رفضت أن نذهب معًا خارج حدود البلدة مرة أخرى، أصبحنا نتصنَّع الحجج لنهرب من عمتي وبابها المفتوح ونظراتها المتلصصة، مرة بحجة إصلاح موبايل ليلى، ومرة لشراء لوحة مفاتيح أو فأرة للكمبيوتر. فتنة تتصنع مراقبتنا لتُطمئن أم ليلى.

– هنصلَّح الموبايل عند حامد جوزي في المحل، وأنا مش هسيبهم، رجلي على رجلهم.

معرض "حامد أبو رضا وشركاه للأجهزة الكهربائية وأجهزة المحمول" كان واجهتنا الدائمة، تُرافقنا فتنة وبمجرد أن نغيب عن نظر أم ليلى الواقفة في الشباك تتركنا.

– هخلص مشوار كده وأستناكم عند حامد في المعرض، ساعة زمن وألاقيكم قدامي.

"الأونطجي".. هكذا تسمي أم ليلى زوج فتنة، خطف قلب أختي منذ لقائهما الأول، رفضَت الكثير من طالبي الزواج حتى أتى حامد، وافقت عليه رغم ظروفه المادية المحدودة وعدم امتلاكه لشقة.

– هعيش معاه ولو في أوضة.

قالتها فتيقنت عمتي بأنها لن ترضى بغيره، وأقنعت أبي بإتمام الزواج رغم تردده.

حامد الأونطجي من القلائل الذين اختاروا بكامل رغبتهم العيش في قريتنا، لم تُغرِهِ العاصمة على الإطلاق، أنهى دراسته الجامعية وعُيِّن بعدها في المجمع الاستهلاكي بالقرية، وظَّفه نائب دائرتنا في البرلمان بعد جهوده منقطعة النظير في انتخابات مجلس الشعب، فحامد شُعلة من النشاط تمشي على قدمين، يجيد الإقناع والحشد والهتاف، ولهذا حاز عضوية الحزب. بدأ عمله الخاص بعد أن تزوج فتنة مباشرة، باعت ذهبها وتنازل هو عن نصيبه من إرثه لأخيه، وأتموا المشروع. رفضت فتنة أن تشاركه، قالت "أنا وإنت واحد"، لكنه أصر وأضاف اسمها في الأوراق.

بيع الأجهزة الكهربائية بالتقسيط تجارة مربحة في قريتنا، عرفتُ ذلك بعد أن رأيت تجارة حامد تتوسع وتشمل الموبايلات وأجهزة الكمبيوتر والملابس. بعد خمس سنوات فقط من العمل، اشترى حامد قطعة أرض وبنى البيت.

– رضا الله ومباركة سيدي أمير الجيوش ومجهود حامد والتزامه، هو السبب في اللي إحنا وصلناله.

هذا ما قالته لي فتنة يوم افتتاح المعرض الجديد. على مساحة الدور الأرضي بالكامل شيد المعرض. فوقه دوْران، الأول مخزن للبضائع والثاني تسكنه فتنة وزوجها.

جلساتي مع حامد قليلة، نتقابل فقط يوم عزومة الخميس الأسبوعية، نِكاته وقفشاته تُضحِكنا جميعًا، لكن عندما يترك الهذر ويتكلم في السياسة أفكر في أي حجة لأهرب من أمامه.

– الله يسخِّر من عباده أناسًا لقضاء حوائج الناس.

يقولها فأعرف بأن الحكاية ستُتلى للمرة الألف. يتكلم بمرارة عن جهوده التي لا يقدرها قيادات الحزب في المحافظة: ابن الريس عايز ينضَّف الحزب من جوَّاه ويدي فرصة للشباب، لكن دول حيتان ولاد كلب مبيشبعوش وبيحاربوه، إن شاء الله ربنا هينصره وهناخد فرصتنا قريب ونخدم ولاد بلدنا.

أحاول أن أغير مجرى الحديث.

– سيبك من السياسة ووجع القلب وروح القاهرة عند أعمامك افتح معرض هناك.

يرد بأنه لن يذهب إلى العاصمة إلا لحضور جلسات البرلمان.

– بكرة يا كمال هبقى سيادة النائب، وأجيلكم البلد في الأعياد والمناسبات وبس.

يقولها فنضحك ونعود لحوار الهذر.

نصل إلى معرض حامد فتقابلنا فتنة مكشرة؛ تأخرنا كالعادة وأم ليلى تلاحقها بالمكالمات. يلطف حامد الأجواء ويصر على إهداء ليلى موبايلاً جديدًا، يقول: "ده هدية كمال ليكي مش هديتنا"، قبل أن أرحل يذكرني بموعد الانتخابات.

– لازم تيجي، نِسيبك بقى أمين التنظيم في البلد وقريب هيبقى عضو مجلس المدينة.

أعده بالحضور وأصحب ليلى وفتنة للعودة.

الأخرق ظهر من جديد، حضر إلى أسفل منزلنا بعد أن يأس من عدم ردي على مكالماته، عندما عدت وجدته بانتظاري. أحضان وسلامات أعقبها حديث ضاحك عن ذكرياتنا في المدينة الجامعية، ثم دخل في الموضوع.

– إيه أخبار الشغل في المجمع، عشان أبويا كلم المهندس نبيل واحتمال أجيلكم الأسبوع الجاي.

ساعة كاملة يطرح عليَّ الأسئلة وأنا أجيب.

أين تقع المدينة؟ كيف يصل إلى هناك؟ ما نوع الأعمال؟ المرتب؟ بعدما انتهى سألته ضاحكًا:

– وفين شغلة البترول اللي كنت مزهقنا بيها أيام الجامعة؟

سحب نفسًا من سيجارته ذات الدخان الأزرق، وصمت برهة وكأنه يفكر في إجابة، ثم انطلق في حديث طويل عن أبيه الذي خيَّره بين وظيفة شركة البترول والزواج المبكر.

تكاليف تشطيب الشقة وإقامة العرس تساوي المبلغ المطلوب لتعيينه. قال أبوه: لو عايز أشغلك في البترول هشغلك، بس الجواز يتأجل لحد ما تحوِّش فلوس تكفي مصاريفه.

الأخرق اختار أن يُكمِل نصف دينه، يبرر أسباب اختياره للزواج، بالرغم من أنني لم أعترض. ينفث دخان سيجارته ويتلو الأحاديث النبوية.

– النبي قال من استطاع منكم الباءة فليتزوج.

يتحدث عن تحمل المسؤولية والاستقرار وتكوين أسرة، ثم يتحول المسار تدريجيًا إلى الحديث عن الرغبة والجسد الفائر وحرارة الشباب. يُذكِّرني بحكايات الستارة في المدينة الجامعية، وتأجير الأسطوانات والأشرطة الجنسية، يطيل الحديث عن ذكرياته مع فتاة التوكتوك التي رحلت عن قريتنا بعد أن أدمن لقاءها.

– المجمع هينوَّر.

قلتها لأنهي اللقاء ورحلت.

## (7)

حضر الأخرق إلى المجمع فبدأت المشكلات في الحدوث، أتى ومعه البرق والرعد والعواصف والأمطار، وكأن الطبيعة تعلن بأن الأيام القادمة عصيبة.

بعدما استلم العمل جاء الاتصال، المهندس نبيل شخصيًا هاتَف ممدوح البطل، مكالمة ظاهرها توصية وباطنها تحذير.

– الواد لسة صغير وطايش وأهله موصينّي عليه. خد بالك منه يا ممدوح.

جاءت التعليمات بأن يسكن الأخرق بشقة رقم سبعة، لا أعرف أهو من طلب ذلك ليكون بجانبي، أم أن المهندس نبيل أراد أن يسهل مهمة البطل، فأرسله إلى شقتنا ليكون تحت نظره طوال الوقت. انتهى المطاف بالأخرق بالسكن في شقتنا، بالتحديد في غرفة ممدوح البطل.

تلبَّدت السماء بالغيوم يوم أن حضر المقاول إلى شقتنا، أخبر البطل بأن الأخرق دائم الغياب.

– الواد يوم ييجي ويومين يغيب، واليوم اللي نشوفه فيه يزوَّغ قبل الضهر.

في ذلك اليوم لم يخرج البطل لعمله المسائي كالعادة، بقي في المنزل منتظرًا عودة الأخرق.

بعد منتصف الليل بقليل عاد، ثم بدأ المطر بالهطول. النبرة الخشنة التي استخدمها البطل في الحديث لم تُرهِب الأخرق، صوت غليظ قوبل بصوت جهوري، فظن الجميع بأن في شقتنا مشاجرة، صعد مَن في الأسفل وهبط من بالأعلى، فتحوَّلت صالة المنزل إلى حلبة يحيط جوانبها المتفرجون، اشتد المطر وأنار البرق السماء، ثم أتى الرعد ملازمًا لصياح الأخرق بجملته الأخيرة:

– وإنت مالك أروح الشغل ولا مروحش؟ متحشرش نفسك في اللي ملكش فيه عشان متسمعش كلام يزعلك.

عمَّ السكون بعدها إيذانًا بانتهاء الجولة، وانصرف الجميع إلى سكنه.

كلمات كالحجارة يقذفها الأخرق على الجميع، وكأنه مُصِر أن يستعديهم، كالمغرِّد خارج السرب أصبح، يقضي أغلب يومه في التسكع بالمدينة، يوقِّع صباحًا في دفتر الحضور بالمجمع ثم ينطلق إلى الخارج، ولا يعود إلا وقت النوم. حضوره إلى المجمع لم ينهِ وحدتي كما تمنيت، لا أعرف أين يذهب ولا متى سيعود، ومع من يقضي كل ذلك الوقت. لا أفهم لماذا يترك العمل وكيف لم يجازِه المقاول حتى الآن! أستغرب كيف لم يعرض عليَّ مرافقته في سهراته كالماضي.

في إحدى المرات وبعد أن تركني الجميع وانطلقوا إلى أعمالهم المسائية اتصلت به، علَّه يدعوني لأرافقه، فالملل يقتلني. لم يعرض

عليَّ أن ألاقيه في الخارج، وإنما سألني: هل البطل موجود؟ عندما أجبته بالنفي قرر أن يعود ليقضي سهرته معي بالمنزل.

قبل أن أوجِّه إليه الأسئلة بادر بتقديم الإجابات.

– كان لازم أعمل النمره دي، عشان كل واحد يخليه في حاله. يا عم متقلقش عليَّ أنا مظبَّط كل حاجة، الواد بتاع الأمن حبيبي مش بيسجل في الدفاتر إني بخرج من المجمع، يعني كله ميري. المهندس نبيل عضمة جامدة قوي يا كمال، والمقاول ميقدرش يكح ويرفدني، آخره يروح للبطل ويشتكي زي النسوان.

الأخرق يشعر وهو في المجمع بأنه لم يغادر قريتنا، لذلك يرحل، أخبرني بذلك بعد أن سألته عن سر غيابه المستمر، في الصباح يتجوَّل في الشوارع ويذهب إلى المول الضخم بالمدينة، وليلاً يقضي سهرته مع بعض العاملين بالمحال القريبة من المجمع، أو يذهب إلى أصدقائنا بشقة العزاب.

كقنبلة أُلقيت وسط الجموع ولم تنفجر، صحيح لم يتأذَّ أحد ولكن الارتياع والخوف تملكا من النفوس وكمنَا، كان ذلك أول ما تبادر إلى ذهني يومها.

الأخرق توجَّه إلى الصرَّاف لاستلام راتبه. أخبرني زملائي بذلك فهرعت إلى هناك. لا أعرف لماذا لم أُخبره بالقواعد، أهو تمنِّي من

ساذج بمرور موقف كهذا بسلام، أم رغبة خبيث في قنبلة تنفجر فتنسف القواعد إلى الأبد؟

ردة فعله كانت متوقعة، ثار وهاج، سب ولعن وكاد أن يشتبك مع الصراف لولا تدخُّلنا، ما أدهشني هو ما فعله بعدها، لم يتوجَّه إلى شقتنا ويتشاجر مع ممدوح البطل، وإنما جلس في مواجهة الصراف وتحدث معه بهدوء.

– اسمي في كشف المرتبات صح؟

جاوبه الصراف بالإيجاب.

– أنا موقَّعتش قدام اسمي، يبقى مين اللي مضى مكاني وخد الفلوس؟

أخبره الصراف ثانية بأن ممدوح البطل هو من يتسلم رواتب جميع من في الشقة. كان رد الأخرق مفاجئًا:

– ده تزوير في أوراق رسمية، يا إنت حرامي وزورت إمضائي، يا إنت مهمل وصرفت مرتبي لحد تاني بالغلط، يبقى لازم تتصرف وتجيب الفلوس عشان ميحصلش مشكلة، سهل إني أعمل محضر في القسم وأقدم شكوى كمان في جهاز المدينة.

ألقى الأخرق بالحجر وبعدها صمت. تكلم الجميع وهو ودن من طين وأخرى من عجين. مداولا ت استمرت أكثر من ساعة،

والأخرق على موقفه، إلى أن اتصلوا بممدوح البطل ليأتي ويحل الأزمة، حضر والجميع منتظر أن تبدأ المشاجرة، ولكن ما حدث خيَّب آمالهم. البطل اعتذر للصرَّاف وقبَّل رأسه ثم سلَّمه رواتب جميع من في الشقة، وبعدها انصرف.

يوم كئيب قضيته، وحيدًا كالعادة. البطل فور انتهاء الدوام غادر المجمع، لم يصعد إلى شقتنا كالمعتاد ليُعِد الغداء ويوزع المهام. الأخرق هو الآخر اختفى بعد أن تسلَّم مرتبه. زملائي في السكن أصابهم الخرس، وعندما حان موعد عملهم المسائي رحلوا. أتصل بالأخرق فلا يجيب، أهاتف البطل فأجد تليفونه مغلقًا، ساعات طويلة أقضيها في التفكير فيما حدث وما سوف يحدث.

قبل منتصف الليل حضر الجميع عدا الأخرق. البطل دلف إلى غرفته دون أن يلقي السلام، وبلدياتي جلسوا إلى جواري بالصالة. لم يستغرق اتخاذ قرار كهذا سوى دقائق، بعدها توجهنا إلى غرفة البطل وسلمناه كامل رواتبنا. انصرفنا بعدها إلى غرفنا دون أن يتفوَّه أحدنا بكلمة.

***

زادت الشكاوى من أفعال الأخرق، وجميع من في المجمع ينتظر أن يبلغ البطل كبيرنا المهندس نبيل بما يحدث. آخر حدود بلدياتي هو الشكوى لكبراء الشقق، وهم وحدهم المنوطون بالتصرف.

سكان عمارة المنايفة فاض كيلهم، زميلنا حارس الأمن بالمول يشكو مُر الشكوى من الأخرق.

– طول اليوم عمَّال يلف في المول وعينه مبتنزلش من على الستات، فضل ماشي ورا واحدة زي الحمار، راحت داخلة مكتب الأمن تشتكي، والبهيم فضل واقف برة مستنيها.

لولا وجود زميلي هناك لحدثت أزمة. اعتذر للسيدة، وأخبرها كذبًا أن الأخرق يعمل بمطعم المول وما حدث كان صدفة.

وزميلنا الطباخ قلِق من صداقة الأخرق للعاملين بالمحال المجاورة للمجمع: دول عيال ولاد كلب شمامين، خايف يعلِّموه البلطجة وشرب المخدرات.

وعم الشيخ أحمد يقسم بأنه رأى الدخان الأزرق يتصاعد من سيجارة الأخرق، لمحه وهو ذاهب إلى المسجد ليصلي الفجر: الأدان بتاع ربنا شغال، والبيه مستخبي ورا الورشة بيحشش.

حدث يليه حدث، والبطل يستمع فقط ولا يُعقِّب، حتى رفْض الأخرق للاشتراك في صندوق اليتامى مر بسلام، أحاول أن أثني الأخرق وألطِّف الأجواء، لكن ردَّه القاطع يدفعني لعدم تكرار المحاولة ثانية.

– يا عم أنا مش هدفع قرش في صناديق. لما أموت مش عايز حد يدي لأهلي جنيه. مش عايز آكل معاكم، يا عم أنا حر، دي لوكاندة للنوم مش بيت عيلة.

الكل يعرف بأن النهاية باتت قريبة، ولكن لا أحد يريد أن يكون سببًا في إنهاء خدمة الأخرق ورفده من المجمع. نعلم أنه بمجرد وصول الأخبار للمهندس نبيل سيطرده فورًا، وربما يتصل بأهله ويُعنِّفهم.

لا أعرف سببًا لصمت البطل حتى الآن، أهو صبور إلى تلك الدرجة ويخشى مثلنا على مستقبل الأخرق من الضياع، أم أنه صمت الضباع الذي يسبق الانقضاض على الفريسة؟

قبل بزوغ الشمس استيقظت. طرقٌ على الباب أعقبه أنوار تُضاء وأصوات عدة تتناقش، أجبروني على الصحو والقيام من سريري، صالة شقتنا تحولت إلى سوق مزدحمة، أغلب سكان العمارة متجمعون، جميعهم يتحدث في الوقت ذاته فلا أفهم، ما ميزته هو صوت ممدوح البطل الغليظ وهو يقول: كل مشكلة ليها حل يا إخوانا، متقلقوش أنا هتصرف.

قالها ثم غادر الشقة وتبعه الجميع. أنظر من البلكونة فأرى جمعًا يحيط بالأخرق، دائرة مغلقة هو في منتصفها، كالبقرة التي يحيطها جزارون تمهيدًا لذبحها، يحاول الهروب والولوج إلى خارج الدائرة، لكن الأيادي الكثيرة تصده.

بمجرد أن ظهر البطل متقدمًا سكان العمارة انسحب أحدهم من الدائرة واستقبله، الفناء المقابل لعمارة المنايفة تحوَّل إلى ملعب، مربع تحيطه الجماهير من كل جانب، بداخله دائرتان، دائرة بداخلها الأخرق والأخرى بداخلها ممدوح البطل ومسؤول الأمن بالمجمع، الأولى يحيطها أفراد الأمن لمنع الأخرق من الهروب والثانية يحيطها كبراء الشقق.

الأخرق ضُبِطَ متلبسًا بسيجارتي حشيش، واحدة مشتعلة والأخرى في جيبه، داهمه أفراد أمن المجمع وهو يدخن، كان منزويًا في ركن قصِي خلف الورشة العمومية، تحفَّظوا على المخدرات واقتادوه إلى أسفل عمارتنا.

أستمع لصوت ممدوح البطل الغليظ وهو يترجَّى مسؤول الأمن لإطلاق سراح الأخرق، فأتذكر مسلسلات الراديو: حقك علينا، عارف إن البلوة كبيرة بس بلاش توديه القسم، الولا مستقبله هيضيع، عارف والله إنهم سيجارتين حشيش، يعني إتجار مش تعاطي.

يصر مسؤول الأمن أن يأخذ القانون مجراه، إعداد محضر إداري بالواقعة، ثم اقتياد الأخرق إلى قسم الشرطة لتسليمه هو والأحراز المضبوطة، وقبل ذلك الاتصال بالمهندس نبيل لإخباره بفعلة ابن قريته الشنعاء.

الأخرق يسب ويلعن ويتوعَّد، كالثور الهائج يحاول النفاذ من بين الأجساد المتلاصقة، تمر الساعات فيتحول هياجه إلى استسلام، يجلس على الأرض في منتصف الدائرة ويبكي، تسمع الآذان صوت النحيب فتخرس الألسنة. ينظر ممدوح البطل إلى الأخرق وبعدها يوجِّه حديثه إلى مسؤول الأمن: طب عشان خاطري أنا سماح المرة دي، ولو البغل ده كررها أنا اللي هرميه برة المجمع.

وكأنها شفرة مُتَّفق عليها، فبمجرد أن أنهى البطل جملته انفكت الدائرة من حول الأخرق، "عشان خاطرك إنت بس يا بطل" قالها مسؤول الأمن بصوت عالٍ ثم رحل هو ورجاله.

– قوم اطلع السكن نام، البُكا والولولة دول للحريم.

ألقى البطل بحجره فأصاب الأخرق، وبعدها توجَّه إلى العمل.

منذ ذلك اليوم وشيء في داخل الأخرق قد انكسر، ظل يتسكَّع في المدينة لكنه التزم في العمل، ولم يعد المقاول يشكو من تزويغه، امتنع عن الذهاب للمول والسهر مع العاملين بالمحال المجاورة، عندما يمل من السير وحده في شوارع المدينة يذهب إلى بلدياتي في شقة العزاب.

عندما حان موعد استحقاق المرتب ذهب إلى الصراف وأخذ نقوده كالعادة، لكنه توجَّه بعدها إلى شقتنا وترك اشتراك الصناديق على المنضدة ثم رحل.

الجميع متيقن بأن للبطل دورًا فيما حدث؛ أمن المجمع نادرًا ما يقوم بمرور ليلي، عمله منحصر في تسجيل أسماء الداخلين والخارجين من المجمع، وتدوين أرقام السيارا ت والمعدات. بلدياتي يؤكدون بأنه لم يجرِ تفتيش لأحدهم مطلقًا من قبل.

– إحنا بلديات مينفعش نفتش جيوب بعض، وبعدين إيه اللي يتسرق من المجمع؟! هنحط عربية ولا لودر في جيب البنطلون ونخرج بيهم؟!

وحتى لو حدث مرور ليلي، فعلى الأكثر سيقوم به فردا أمن أو ثلاثة، لكن أن يتحرك مسؤول الأمن ومعه جميع معاونيه فالأمر غريب، ويؤكد أن هناك إخبارية.

ليس ببعيد أن يكون البطل هو من رسم السيناريو ونفَّذه بالتعاون مع مسؤول الأمن، ليكسر شوكة الأخرق إلى الأبد. أحد بلدياتي قال بأن الموضوع أكبر من ممدوح البطل، ولا بد أن المهندس نبيل كان على علم بكل شيء، فلا يستطيع أحد هنا أن يفعل شيئًا قبل موافقة كبيرنا القابع في جهاز المدينة، ربما الأخبار وصلت إليه فكان رحيمًا ولم يفصل الأخرق من العمل، فقط كلَّف البطل بأن يؤدبه. هناك شيء خفي وراء ما حدث، لكن لا أحد يمتلك الجرأة ليواجه ممدوح البطل بشكوكه.

أيام رتيبة تمر وصديقي يبتعد أكثر فأكثر، البطل أصبح يتدخَّل في كل كبيرة وصغيرة. لو تأخر الأخرق في النزول إلى العمل ولو لدقائق يلاحقه بالمكالمات.

– المقاول بيشتكي منك وعايز يبلغ المهندس نبيل وأنا مانعه بالعافية، بدَّر شوية في النزول يا بيه وراعي أكل عيشك.

وإذا عاد الأخرق متأخرًا يبدأ البطل في إلقاء موشَّحه الذي حفظناه من كثرة تكراره.

– الأمن واكل وشي، بيقولولي الرسمي إننا مندخلهوش المجمع بعد الساعة 10 بالليل، دي الأوامر اللي عندنا، إحنا بنستثنيه بس عشان خاطرك يا عم ممدوح.

شهر مر والأخرق على صمته. كنت أظن أنها استراحة محارب وبعدها يعود للنزال. أنتظر صوته الجهوري وردوده القاسية وكسره للقواعد، تمنيت أن تنتهي الهُدنة، لكنه خيَّب آمالي ورحل.

حزم أغراضه وانتقل للسكن مع بلدياتي في شقة العزاب، قال لي إنه سيستمر في العمل بالمجمع لكنه لا يستطيع أن يبقى في عمارة المنايفة بعد الآن.

لا أعرف لماذا أصبح مزاجي متعكرًا، لا أطيق المكوث مع بلدياتي في السكن، أفكر بين الحين والآخر أن أفتعل مشكلة مع ممدوح البطل وأرحل أنا الآخر، سئمت من النصائح، كرهت

القواعد التي وضعوها وننفذها مرغمين، أشمئز من الجميع كلما تذكرت ما حدث للأخرق.

أحلم بأنني داخل دائرة ويحيطني أناس يحملون السياط، مُلقى في وسطها أرتعش وأبكي، على مرمى البصر يظهر الأخرق، أراه فأستنجد به، يجري نحوي ويخترق الجموع ليخلصني، يده الممدودة تقترب بالرغم من السياط التي تجلد ظهره، أمد يدي وقبل أن أمسك بيده يظهر البطل من خلفه، تهبط عصاه الغليظة على رأس الأخرق فتفقده الوعي، يستلقي بجانبي في منتصف الدائرة، أتحسس رأسه فتمتلئ يدي بالدماء، أفيق من نومي مذعورًا على صوت ممدوح البطل:

– قوم يا كمال وصحصح كده، نتيجة قرعة الشقق بانت.

***

وسط الهياكل الخرسانية وأكوام الأسمنت والحفر العميقة نتحرك، تنغرز أقدامنا في الرمال فنتعثر، يصر البطل على إكمال المسير لنرى موقع شقتي المنتظرة. يقول جملته المأثورة: "تعب يوم ولا تعب كل يوم يا كمال".

على أطراف إحدى الحفر جلست، وأكمل هو البحث عن العمارة، أنظر إلى الرمال المنبسطة أمامي وأتعجب، كيف سيحولها المهندسون ذوو الخوذات البيضاء إلى عمران؟! لهيب الشمس يلسع الوجوه والعرق المنهمر يرطبها، كان الله في عون هؤلاء العمال!

مهندسون يرتدون القبعات يعطونهم الأوامر ثم ينصرفون إلى غرفهم المكيفة، ويتركونهم يُشووا وحدهم في نقرة الشمس.

تذكرت مقولة أبي: لازم تشتغل بشهادتك، اللي معاه بكالوريوس يقعد على مكتب.

أبتسم وأحمد الله أنني أكملت تعليمي الجامعي، لولا أم ليلى وتعنيفها لي لأذاكر، لكان مكاني وسط هؤلاء العمال.

حضر البطل ومعه أحد مشرفي المشروع.

– قوله يا كمال العنوان اللي مكتوب في جواب التخصيص.

استمر بحثنا عن العمارة لنصف ساعة إلى أن وصلنا، أمام إحدى الحفر وقفنا. نظر المشرف إلى الخريطة التي في يده ثم أشار "هنا هيبقى مكان العمارة"، يرفع يده إلى الأعلى، يحركها يمينًا ويسارًا وأعيننا تلاحق يده، إلى أن استقرت.

– بصوا معايا.. هنا بالظبط الدور الرابع ويمين شوية شقة 35 د.

أنظر أمامي فلا أرى سوى الرمال، أصمت والبطل يناقشه باهتمام.

– الشقة على شارع جانبي بس عريض، حوالي 15 متر، والواجهة بتطل على الجنينة، والأوض على المدرسة الابتدائي، يعني مش مجروحة خالص. وكمان حظك حلو،

شقتك في المرحلة الأولى، يعني هتستلمها خلال سنة بالكتير.

أحاول أن أسرح بخيالي وأتخيل، لكن أكوام الأسمنت والرمل تظهر أمامي فتفشل محاولتي. يشكره البطل وننصرف.

– لو احتجت حاجة من المجمع إحنا خدامينك، اسأل بس على ممدوح البطل وألف مين يدلك.

شقة العزاب لا تختلف كثيرًا عن شقة المنايفة، لاحظت ذلك بعد زياراتي المتكررة إلى هناك. في البدء ذهبت لأقنع الأخرق بالعودة إلى السكن، وبعدها توالت الزيارات، مرة لأفض اشتباكًا وقع بينه وبين أحد السكان، وأخرى لعزومة أصروا أن أحضرها، لا أعرف لماذا تكررت زياراتي لشقة العزاب، ربما أفتقد الأخرق وأشفق عليه بعد ما حدث، فأذهب لأواسيه وأشد من أزره، ربما الوحدة هي السبب، فأحضر طمعًا في ونس.

الأخرق هو الأخرق، والشقتان متماثلتان، هناك نقود تُقتَطع وأيضًا صندوق، والأدهى أن لشقة العزاب كبيرًا. لم أعرف ذلك أيام الجامعة، كنا مجرد صبية نأتي ونذهب ولا يُحمِّلنا أحد بالمسؤوليات، ولكن الآن الأمر مختلف.

الأخرق استكان والتزم بالقواعد، فلا بديل أمامه، يدفع الأموال نظير الإيجار والطعام وصندوق الشقة، معهم بجسده ولكن روحه تطوق للرحيل، يغيب طوال اليوم ولا يعود إلا مُنهكًا لينام.

بلدياتي في شقة العزاب يقولون بأنه سيتأقلم مع الوقت.

– زيه زي غيره، كلنا في الأول كنا كده، عايزين نلف ونصيع، عاملين فيها ولاد مصر.

يؤكدون بأنه سيفطن في النهاية بأنه ليس له في العاصمة إلا بلدياته.

– خبطة ولا خبطتين في الراس بعد كده هيفوق.

زملائي في شقة المنايفة ينتظرون عزومة بمناسبة فوزي في قرعة شقق الإسكان. أجَّلتها أكثر من مرة أملاً في إقناع الأخرق بأن يحضر، بعدما فشلت في إقناعه قررت أن أقيم عزومتين، واحدة في شقة المنايفة والأخرى في شقة العزاب.

أخبرت البطل بما أنتوي فعله فضحك.

– هي عزومة واحدة لكل الحبايب، وليمة فاخرة، ومش هتدفع كتير.

بعدها طلب مني رقم تليفون كبير شقة العزاب.

البطل وضع الخطط وكلَّفني أنا وبلدياتي بالتنفيذ، لكل منا مُهمة، زميلي بائع الملابس في المول مسؤول عن اختيار الطعام،

وزميلنا حارس الأمن يقع على عاتقه تأمين الطعام حتى أصِل، وأنا من سيتولَّى دفع النقود.

الخطة دقيقة، بائع الملابس سيترك عمله في التاسعة ويهبط إلى الدور الأرضي بالمول، يتوجَّه إلى الهايبر ماركت ويختار من بين المأكولات المعروضة ما لذ وطاب.

– فراخ وكفتة وسلاطات وعصاير، وكتر من المكرونة البشاميل والممبار.

هذا ما أكد عليه البطل، وخلاف ذلك متروك لذائقة زميلي. يضع الطعام في عربة الطلبات ثم يتحرك، قبل أن يصل إلى باب الخروج بخطوات سيقابله بلدياتي حارس الأمن، يترك له العربة ويصعد بعدها إلى عمله، دوري ينحصر في الحضور إلى هناك في الوقت المناسب ليس إلا.

قبل الثانية عشرة ليلاً بقليل وصلت إلى الهايبر ماركت، انطلقت على الفور إلى بلدياتي لأستلم الأمانة، عربة موضوع عليها لافتة "أمانات"، سلمها لي وأشار إلى الكاشير، عند منتصف الليل انطلق المذياع الداخلي بالمكان "خصم 60% على جميع المأكولات الجاهزة والعصائر الطازجة"، دفعت العربة باتجاه الكاشير ودفعت النقود، ورحلت لأنتظر بلدياتي بالخارج، حضرا بعد أن أغلق المول أبوابه وتوجهنا بعدها إلى المجمع.

الشعور بالظفر والحنكة والذكاء الخارق يفوح من كلماتهم فيزكم أنفي. أسخر منهم في سري "صحيح ريفيين سُذَّج"، كنت سأحضر وأشتري الطعام وحدي، فالخصومات على الأطعمة ليست بمفاجئة، تتم يوميًا في نفس التوقيت، فالهايبر ماركت يجب أن يتخلص من كل الأطعمة الطازجة قبل أن يغلق.

قلت ذلك عن استحياء فسخروا مني.

– حمار.. مش ده الأكل اللي بيفيض، لو استنيت لحد ما يعلنوا العرض مكنتش هتلاقى غير شوية رز ناشفين وطبقين خضار بصلصة قربوا يحمضوا.

ظلوا يبررون ويشيدون بخطه البطل، وعقله "اللي يوزن بلد"، حتى وصلنا إلى المجمع.

– لازم تباتوا معانا انهارده، والشقة تساع من الحبايب ألف.

قالها البطل لسكان شقة العزاب، بعد أن شاهدنا في التليفزيون صورًا لمظاهرات في بعض أحياء العاصمة. سهرة رائعة قضيتها، حضور الأخرق أثلج صدري، فلم أكن أتوقع أن يأتي رغم تأكيدات البطل "لازم هييجي؛ كبير شقتهم قالي هيجيبه معاه".

في البداية كان حذرًا في الحديث، ولكن بعدما سأله البطل عن المغزى من المظاهرات انطلق، تقمَّص دور ابن العاصمة وظل يشرح لنا ما حدث اليوم وما يتوقع حدوثه في الأيام القادمة. اهتمامنا بما

يقوله جعله ينظِّر ويحلل الأحداث، إلى أن انتهى بأن النتيجة الحتمية للمظاهرات هي إقالة وزير الداخلية، قالها وأذان الفجر يُرفَع.

أغلق البطل التليفزيون: يلا يا رجالة على الجامع، الراجل صوته اتقطع وقاعد يقول الصلاة خير من النوم.

ثم نظر إلى الأخرق: خش نام إنت يا أخويا ومتخافش، مش هيمشِّي شوية عيال وزير الداخلية.

قمت على الفور لأتوضأ قبل أن يرميني البطل أنا الآخر بكلمة من حجر.

***

عدت إلى قريتنا لأبشِّر ليلى بشقة العاصمة، جئت لأحاول إثناء عمتي عن قرارها ونعجِّل بالزواج، قلت لفتنة اقنعيها نتزوج وتعود ليلى إلى القرية في أوقات الامتحانات. اتفقنا أن تصعد معي يوم الجمعة وتحاول أن تليِّن قلب عمتي. وعدتني بأنها ستتصرف.

قالت ضاحكة: ديك البرابر مش قادر يصبر، هجوزهالك يا حبيب أختك.

بعد أن نتناول العشاء ستصعد فتنة وتجلس مع عمتي، بعدها ستتركني ليلى وتنضم إليهما، كطرفي الكماشة ستحاصران عمتي فلا تستطيع التملُّص، فتنة ستتكلم وكلما احتدم النقاش ستسأل ليلى عن رأيها فتجيب: اللي تشوفيه يا أبلة.

سارت الأمور مثلما خططنا، دق الجرس وحضرت فتنة في الميعاد، ولكن بدلاً من أن تفاتحها في تعجيل الزواج صاحت لاهثة: الدبابات نزلت الشوارع وأعلنوا في التليفزيون حظر التجوال.

قالتها فوأدت خططي في مهدها.

سكان العاصمة ثاروا على الرئيس ويريدون رحيله. بدؤوا في الهتاف والنزول إلى الميادين، فقلدهم سكان عواصم المحافظات، الجميع في الشوارع، إما ليهتف بسقوط الرئيس وإما ليحرس ممتلكاته. رجال قريتنا متجمعون عند مداخل القرية ومخارجها بعدما انتشرت الأخبار بأن السجون اقتحمت والمساجين هربوا.

الشباب كوَّنوا لجانًا للحراسة والأمن، حتى الشيوخ شاركوا في التأمين، أبي يقف مع جيراننا أمام مدخل شارعنا ويمسك بعصا غليظة، حامد وفتنة استأجرا بعضًا من البلطجية المسلحين لحماية المعرض، تحسُّبًا لأي أعمال سلب ونهب قد تحدث. أم ليلى أحضرت الجنازير والأقفال وأغلقت بها الباب الخارجي للبيت.

أقف بين شباب شارعنا أحمل هراوة في يد وسكينًا في الأخرى، أعطوهما لي وقالوا إذا ظهر الأشقياء وحاولوا اقتحام الشارع تعامل.

أكتم غضبي وألعن حظي العاثر، أتمنى العودة إلى المجمع، أريد أن أستلم شقة العاصمة وأستقر فيها مع حبيبتي. التوتر والقلق يسيطران

عليَّ، لا يشغلني أن يرحل الرئيس أو يبقى، كل ما أتمناه هو أن ينتهي ذلك العبث في أسرع وقت.

## (8)

مكالمة المهندس نبيل كانت طوق النجاة، اتصل بأبي وأخبره بضرورة حضوري إلى المجمع في أسرع وقت. منذ أن بدأت المظاهرات وأنا أتوق إلى الرحيل، ليلى المحتجبة في شقتها وخططنا التي فشلت، ووقوفي بالساعات وسط شباب مدججين بالسلاح الأبيض، جعل من أيامي بالقرية جحيمًا؛ أريد أن أغادر لكنني أخجل من أبي، فكيف لديك البرابر أن يترك عائلته في تلك الظروف الصعبة؟ لذا بعد أن جاءت المكالمة غادرت على الفور.

شوارع المدينة خاوية من البشر، فلا مظاهرات هنا أو حتى لافتات معلقة تؤيد أو تعارض، سكانها إما رحلوا وإما مختفون داخل مساكنهم المحاطة بالأسوار العالية، أفراد الشرطة اختفوا، وحل محلهم قوات من الجيش، بضع دبابات موزَّعة في أحياء المدينة، ودوريات تطوف في شوارعها، الكمبوندات أضافت مزيدًا من الحواجز أمام بواباتها واستعانت بشركات خاصة للأمن.

المول هو المكان الوحيد الذي يضج بمظاهر الحياة، الهايبر ماركت مزدحم عن آخره، والسكان يتكالبون على شراء كميات ضخمة من الأطعمة، وكأن مجاعة على وشك الحدوث ستصيب البلاد.

موتوسيكلات تطوف شوارع المدينة يقودها شباب معصوبو الرؤوس، جلالييهم وسمرة بشرتهم توحي بأنهم ليسوا من سكان العاصمة، اعتقدت أنهم صعايدة ولكن بلدياتي أخبروني أنهم عربان.

– دول العرب يا كمال، اوعى تحتَكّ بيهم، الناس دي مبيهزروش، بيضربوا نار على طول.

أخبرني البطل بأن العربان هم سكان المدينة الأصليين، عندما بدأت الحكومة في إنشائها رحلوا، كلما امتد العمران انسحبوا إلى الصحراء، يستقرون عند آخر حدود المدينة ويقدمون خدماتهم للجميع.

كانت بداية معرفة ممدوح البطل بهم يوم تلك الحادثة الشهيرة، سُرِقَت ثلاثة لوادر خاصة بالمجمع في وضح النهار، أجريت الاتصالات بكل الجهات المسؤولة، حضرت الشرطة وتداول المسؤولون سُبُل الحل، في النهاية حضر مندوب العربان، شاب نحيل أسمر يستقل موتوسيكلاً، استلم الشيك ورحل، بعدها ظهرت اللوادر أمام بوابة المجمع.

– فلوس الإتاوة اتأخرت والعرب مواعيدهم سيف، عملوها مرة واحدة وبعدها كل الناس التزمت بالدفع في الميعاد.

قوات الجيش وشركات الأمن الخاصة يؤمِّنون المدينة ظاهريًا، أما المسؤول الحقيقي عن الأمن فهم العربان، الجميع يدفع لهم النقود بانتظام نظير الحراسة، وإن تأخر تظهر القلاقل.

المجمع على حاله لم يتغير به شيء، الكل حضر بعد مكالمات كبيرنا المهندس نبيل، الحياة في الداخل تدور وكأن شيئًا لم يحدث في الخارج، الاختلاف الوحيد الواضح هو وجود تلك الدبابة في مدخل المجمع والعربة المصفحة المركونة بجانب الورشة العمومية.

أربعة جنود وضابط هم القوة المنوط بها تأمين المجمع، استقروا قرابة الشهر معنا فتكوَّنت الصداقات، الجنود أبناء قرية مثلنا، حظهم الجيد جلبهم إلى هنا.

– الحمد لله، ده زمايلنا متمرمطين في الشوارع وسط الخبط والرزع، وإحنا قاعدين هنا آخر راحة.

يتناوبون نوبتجيات التأمين فيما بينهم، والضابط يغيب ويأتي في زيارات مفاجئة للتفتيش، في أوقات راحتهم يصعدون إلى السكن؛ البطل أصر على ذلك؛ "إنتو ضيوفنا".

طعام ساخن وحمام نظيف وسرير مريح، كان هذا أقصى أمانيهم.

– يا رب الثورة دي تقعد لحد أما نخلص جيشنا، عشان نقضيه كله معاكم هنا.

يقولونها فنضحك.

عندما يحضر الضابط إلى المجمع يهرع على الفور كبراء الشقق للترحيب به. أخلى البطل شقة بالدور الأرضي وجعلها استراحة لضابط التأمين، رفض في البداية لكن بعد إلحاح كبراء الشقق وافق على مضض.

– يا باشا الشقة فاضية أصلاً ومحدش ساكن فيها، ناملك ساعتين وخُدلك دش، إنتو تعبانين عشان خاطرنا، ربنا يحفظكم.

الجميع يمارس مهام عمله صباحًا ويتابع أخبار الثورة مساء.

انقسم بلدياتي إلى فريقين، فتحولتُ إلى حَكَم، قاضٍ عادل يُقسِّم أوقات مشاهدة التليفزيون بالتساوي، ساعة لفريق التليفزيون المصري المؤيد للرئيس، وساعة لفريق قناة الجزيرة المؤيد للمظاهرات. ريموت التليفزيون في يد وفي الأخرى ساعة، أقلب بين القنوات وأُهدِّئ من انفعالات الفريقين وأمنع نشوب المشادات.

كانت مباراة عصبية أرهقت الجميع، لحظات من البهجة يعقبها ذرف للدموع، قلوب مُعلَّقة بخطاب منتظر، وأخرى تتشوق لرؤية الحشود المكتظة بالميادين، مباراة انتهت بمجرد أن خرج الرجل على التليفزيون ليعلن تخلِّي الرئيس عن الحكم، بعدها صاح البطل في وجهي:

– اطفي التليفزيون يا خويا الموضوع خلص، عايزين نشوف بقى أكل عيشنا.

ممدوح البطل كان صامتًا أغلب الوقت، لا يتابع النشرات ولا أخبار التظاهرات، لا يميل إلى فريق من الفريقين، يترك مجلسنا دائمًا بحجة صوت التليفزيون العالي، ويتوجَّه إلى غرفته ولا يغادرها إلا صباح اليوم التالي.

اعتبرت أن الثورة معركة لا ناقة لي فيها ولا جمل، مباراة بين فريقين لا أتحيَّز فيها لأحد على حساب آخر، فأنا لا أحب المباريات بالأساس، أكره ما يصاحبها من توتر في النفوس وضجَّة تملأ الأجواء، ربما السبب هو عدم قبولي فكرة أن أصبح خاسرًا وأنا لست مَن لعب، فالفوز والخسارة يوسم بهما اللاعبون، وأنا مجرد متفرج.

للأسف ظني كان خاطئًا، اكتشفت أن المتفرج من الممكن أن يصبح خاسرًا هو الآخر، عرفت ذلك يوم استحقاق المرتب؛ عاد ممدوح البطل إلى الشقة بيدٍ فارغة. وجهه المكفهر وصمته غير المعتاد جعلانا نبتلع ألسنتنا، وننتظر أن يبدأ هو بالحديث، ساعة مرت كالدهر وبعدها تكلم البطل، لم يحدثنا وإنما هاتف كبراء الشقق. بعد بضع مكالمات هاتفية حضروا إلى شقتنا.

فهمنا مما سمعناه ما جرى، جهاز المدينة لم يصرف للشركات المنوط بها أعمال الصيانة مستحقاتها، وبالتالي هي الأخرى لم تصرف استحقاقات مقاولي الباطن.

قال البطل بأن الجهاز والوزارة على كف عفريت، الشباب الثائر يسميهما أذناب النظام، يهتفون في الميادين منتشين بخلع الرئيس، ومُصرين على ضرورة تطهير المؤسسات الحكومية، يقولون بأن رائحة الفساد تزكُم الأنوف.

رئيس الوزراء يهابهم ويخشى انقلابهم عليه، فهم الفائزون في المباراة، لذا بدأ في تنفيذ حملة ضخمة لتغيير القيادات في جميع الوزارات، كل المسؤولين في جهاز المدينة يتهرَّبون من الإمضاء على أي ورقة خوفًا من المحاسبة.

الاجتماع الذي تم بين ممدوح البطل وكبراء الشقق كان مغلقًا، انتظرناهم لساعات حتى خرجوا ليخبرونا حزمة من القرارات، تلاها كل كبير على أفراد شقته. اعترض الأخرق وقال: كان من المفترض أن يكون الاجتماع عامًا، يضم جميع سكان عمارتي المنايفة والشراقوة، فالمصيبة تخص الجميع وليس الكبراء وحدهم.

رد البطل بحسم بأن التجمعات في هذه الأيام تثير الريبة.

الكبراء أخبرونا بأدوارنا فحفظناها عن ظهر قلب. لم أنم يومها من القلق والخوف والتوتر، عند الثامنة صباحًا نهضت، بدلاً من أن

أنطلق كالعادة إلى العمل، وقفت بين المتجمعين في الفناء المواجه للعمارتين. الكلمات الحماسية التي سمعتها لم تنجح في إنهاء توتري. راجعنا الخطة والأدوار وبعدها انطلقنا صوب المبنى الرئيسي للمجمع وأحطناه.

رفعنا اللافتات وبدأنا في الهتاف:

عايزين فلوسنا.. عايزين فلوسنا.

على الفور أجرى مندوبو الجهاز في المجمع الاتصالات برؤسائهم.

الأخرق كان مسؤولاً عن الجانب الإعلامي، أعدَّ اللافتات وألَّف الهتافات المستوحاة من هتافات الثوار في الميدان، فقد كان متابعًا جيدًا لأحداث الثورة. الكبراء كلَّفوه أيضًا بإرسال صور الاعتصام وأخباره للمواقع الإلكترونية والقنوات التليفزيونية، فهو الوحيد فينا الذي يمتلك تليفونًا محمولاً مزوَّدًا بكاميرا ومتصلاً بشبكة الإنترنت، أما ممدوح البطل فكان مكلَّفًا بالجانب التفاوضي، مع أي مسؤول سوف يحضر إلى المجمع لغرض إنهاء الاعتصام.

في البداية حضر بعض من المسؤولين الصغار، لكن مع تعالي الهتافات وسقف المطالب الذي ارتفع بعد توافد مراسلي القنوات التليفزيونية والصحفيين، حضر رئيس الجهاز شخصيًا بصحبة نائبه.

وصول المهندس نبيل كان نقطة فاصلة، فبمجرد أن حضر ساد الصمت وتوقفت الهتافات على الفور، فكيف نختصم كبيرنا؟! وإن لم نختصمه شخصيًا فمن الواجب علينا التأدب في حضرته.

كادت الخطة أن تفشل، لولا إشارة ممدوح البطل إلى الأخرق، الذي فهم على الفور وبدأ في الهتاف، ليردد خلفه الجميع.

– حرامية حرامية.. حرامية حرامية.

لكل منا دوره، كماكينة بها عشرات التروس تتحرك في تناغم، إذا عطب أحدها أو انحرف توقفت وفشلت في أداء عملها.

عم الشيخ أحمد بذقنه الرمادية الطويلة وجلبابه الأبيض الفضفاض يقف في المقدمة، وكلما توقفنا عن الهتاف يردد بصوته الجهوري:

– حسبنا الله ونعم الوكيل في الظالم والمفتري.

يعقبه صياح عم بيشوي الواقف بجانبه: الظلم ظلمات يا إخوانا.

يكررا جملتيهما المحفوظتين عن ظهر قلب مرات ومرات، حتى نريح حناجرنا المرهقة برهة، ونعود للهتاف من جديد، فيصمتان وينسحبان للوراء.

الضخم مهمته مُحددة سلفًا ويجيد أداءها منذ زمن، اصطناع الهجوم.

عندما يشعر ممدوح البطل بأن وتيرة الهتافات انخفضت، أو أن المسؤولين اعتادوها ولم تعد ترهبهم يشير للضخم، فيخترق الجموع وينطلق صوب المسؤولين، إيذانًا بتحويل الاعتصام إلى معركة بالأيدي. طبعًا كما هو متفق عليه يتشبث بالضخم مجموعة منا قبل وصوله إلى المسؤولين بسنتيمترات، يرجعونه إلى الخلف ليختفي وسط المحتشدين، لكن تقطيبة وجهه وعضلاته المفتولة تفي بالغرض وتعيد الرهبة إلى المسؤولين مرة أخرى.

أما أنا فدوري بسيط وسهل التنفيذ، مجرد كومبارس أو فرد من أفراد المجاميع التي يستخدمونها في تصوير الأفلام، بالأحرى عضو في كورس غنائي يردد جملاً محددة خلف المطرب، يهتف الأخرق فأردد وراءه، يتوقف فأصمت وأنتظر.

في البداية انحصرت المطالب في صرف رواتبنا، ومع تعنُّت المسؤولين وتأكيدهم بأن الأمر ليس من اختصاصهم وإنما مسؤولية الوزارة، عَلَت مطالبنا، وتخلل هتافنا السباب وصب اللعنات عليهم، بعد فترة تحوَّل الهتاف من "حرامية حرامية" إلى "التعيين التعيين لا بديل عن التعيين".

العربان هم أول من استغاث بهم المسؤولون. حضر كبيرهم في سيارة جيب يحيط بها سائقو الموتوسيكلا ت معصوبو الرأس من الجانبين، البطل انسلَّ من وسطنا وتوجَّه مباشرة إلى كبيرهم.

الرجفة سرت في جسدي، وأنا أنظر إلى العربان وهم يحيطون بالبطل، أتذكر ما حكاه لي عن عدم تفاهمهم إلا بالسلاح. لأول مرة منذ أن حضرت إلى هنا أشعر نحوه بتعاطُف، طالما اعتبرته ديكتاتورًا، صورة من أم ليلى على هيئة رجل.

كلما تذكرت خوفي عليه، واعتقادي بأن العربان سيقتلونه أو على الأقل سيبرحون هضربًا ليكون عبرة لنا أضحك، فالبطل لا خوف عليه، عشر دقائق فقط هي كل ما لزمه من الوقت للفوز في الجولة الأولى من المعركة.

تحدَّث مع كبير العربان ثم قفز خلف أحد سائقي الموتوسيكلات وانطلقا إلى قلب المجمع، عادا بعد دقائق وابتسامة الظفر تلوح على وجهه، تحدَّث سائق الموتوسيكل مع كبير العربان لثوانٍ، وبعدها تحرك موكبهم إلى خارج المجمع، وسط ذهول المسؤولين وتعالِي هتافنا.

حكى لنا البطل فيما بعد عما جرى.

– كنت متأكد إن بتوع الجهاز هيستنجدوا بالعرب، كنت عامل حسابي ومخطط هعمل إيه، قولت لكبير العرب إنتو فوق راسنا، مستحيل نضركم، إحنا بس بنطالب بحقنا ورزق عيالنا، قولتله إحنا عارفين إنكم مسؤولين عن أمن المجمع وحراسته، وإحنا يا كبير مش هنخرج من باب المجمع ونعمل قلق، والمعدات اللي جوة المجمع إحنا نحافظ

عليها بعينينا. بعد ما لفينا واتأكدوا إن كل حاجة في مكانها، يعني لا سرقنا ولا نهبنا، اطمنوا ومشيوا.

بعد رحيل العربان بدأت المفاوضات الجدية، تحدث رئيس الجهاز مع البطل، أخبره بأن رواتبنا سوف تُصرَف قبل نهاية اليوم، وأن الجهاز بصدد عمل دراسة بشأن ضم العمالة بالمجمع إلى العمل بالجهاز، وستُعرَض على الوزارة في أسرع وقت، البطل لم يعطِه جوابًا، وإنما أخبره بأنه سيعرض الأمر على الجميع. خرج البطل واندسَّ وسطنا ثم تحول الهتاف إلى زئير.

- لا لا لا لا لا لا

- التعيين التعيين لا بديل عن التعيين.. التعيين دلوقتي.. التعيين دلوقتي.

الدبابة والعربة المدرعة ظلتا في مكانهما، لم يتحرك أحد من الجنود باتجاه الاعتصام، بالرغم من التهاب الأجواء، هم بلدايتنا وأيضًا لا شأن لهم بالموضوع، لكن بعد اتصال مسؤول الجهاز بالجيش وصلتهم إشارة بالتحرك، فنفَّذوها مرغمين.

قلبي لم يعد يحتمل أكثر من ذلك، خارت قواي وفكرت في الانسحاب والعودة إلى الشقة، قررت أن أحزم حقائبي بسرعة وأغادر المجمع بلا عودة، المدرعة خلفنا تتهادى وعربات الجيب العسكرية المليئة بالجنود والضباط أمامنا، ودبابة أخرى تظهر في

الأفق، وتستعد للدخول من بوابة المجمع. الزي العسكري المموَّه والأيدي الحاملة للسلاح جعلتني أنهار.

العسكريون أحاطونا من كل جانب، فنشروا في قلوبنا الرعب. حناجرنا وكأنها اقتلعت وأصبحنا بكمًا، أظن أن الخوف الذي ظهر في عيني ممدوح البطل هو سبب صمت زملائي، وليس هيئة العسكريين المدججين بالسلاح.

البطل كان ساذجًا هذه المرة، ظن أنه بإطعام الجنود وإخلاء شقة للضابط سيحيدهم. خطط لكل شيء لكنه لم يتوقع تدخل الجيش.

حكى لي بعدها أنه توقع كل ما حدث، كلنا انشغلنا بما يدور بالميادين وهو الوحيد الذي فكر كيف سنستفيد من هذا الوضع. عندما ظهرت بشائر نجاح الثورة بدأ في رسم خطته، حلمه القديم في الوظيفة الحكومية عاد يلوح في الأفق من جديد. البطل يعلم بأن تعثُّر الشركات في دفع رواتبنا مؤقت، شهر على الأكثر وستُحَل المشكلة، ثم تبدأ الوزارة في صرف المستحقات من جديد، تأخر صرف الرواتب كان حجة لا أكثر للتظاهر والمطالبة بالتعيين في الحكومة.

الجميع كان يعلم وإن لم يصرِّح، حتى الأخرق لم ينسَ وظيفة البترول التي كان يتمناها، قال لي بعد فترة إن العمل الحكومي ظل

يداعب رأسه طوال الوقت. اكتشفت أني المغفل الوحيد الذي نزل للتظاهر من أجل الراتب.

"يوضع سره في أضعف خلقه، أو بالأحرى أعبط خلقه"، هكذا قلت لنفسي بعدما اعتلى الأخرق الأكتاف وبدأ في الهتاف.

– الجيش والشعب إيد واحدة.. الجيش والشعب إيد واحدة.

يقولها بعلو صوته ولا مجيب، كررها كثيرًا وحده حتى بدأنا بالتفاعل والهتاف خلفه، أعتقد أن تحرر حناجرنا من الخوف لم يكن سببه إصرار الأخرق على الهتاف، أو حتى صوته الجهوري الذي يشع جرأة، إنما حركة أيدي الضباط، رفع كل منهم يده اليمنى وربت بها أعلى رأسه كي يبادلنا التحية.

هتاف الأخرق أتى بنتيجة فورية لم يتوقعها أحد.

تتحرك أنظارنا عن أيدي الضباط الرابتة على رؤوسهم، إلى رقبة الأخرق النافرة العروق، وتتوقف عند ممدوح البطل الذي لمعت عيناه وتحرك.

نهتف بحماس خلف الأخرق والبطل يتقدمنا، يهتف هو الآخر ويتحرك باتجاه العسكريين، يمد كلتا يديه صوب رأس أحد الجنود، يشب على أطراف أصابعه، يميل رأسه للأمام ويطبع قبلة على خوذة الجندي، يفعلها فيزيد الهتاف، يشير لنا فنلثم رؤوسه م حتى

يملُّوا من التقبيل، نتراجع فيشير الضباط للجنود بالتراجع وتوسيع الدائرة من حولنا.

فعلها الأخرق والبطل وجعلانا نفوز بالضربة القاضية، فبعد أن تم تحييد الجيش حضر مندوب الوزارة وبدأ على الفور في عقد اجتماع مغلق مع باقي المسؤولين.

ظللت أنبح مع القطيع لثلاث ساعات كاملة، ننطلق مع إشارة البطل ونصمت لإشارته، نباح ثم نباح ثم مزيد من النباح، إلى أن خرج المسؤولون من اجتماعهم.

تحرُّك المهندس نبيل باتجاهنا أقلقني، فصمَت، رغم استمرار زملائي بالنباح، نظر كبيرنا إلى البطل فأشار للجميع بالصمت.

أزاح المهندس نبيل تكشيرته المصطنعة من على وجهه وقال ضاحكًا:

– عملتوها يا ولاد الكلب! مبروك يا أوباش، اتعينتوا في الحكومة.

أصبحنا رسميًا موظفين بوزارة المرافق، أخيرًا تحقق حلم البطل والأخرق في الالتحاق بالعمل الحكومي.

## (9)

ابنة العم أتت إلى العاصمة، ويا للعج ب أنا الغريب أصبحت مرشدها!

كالعادة تصرفت فتنة وحققت حلمي المؤجل، أقنعت عمتي بإتمام الزواج قبل أن تنهي ليلى دراستها الجامعية، استخدمت كل الحيل، حتى اقتنصت الموافقة من فم زوجة الأسد المدعوة أم ليلى، مرة تقول لها: خلاص كمال اتعين في الحكومة ملكيش حجة. وأخرى تُحدِّثها عن الشقة الشرحة البرحة المطلة على الجنينة، وأحيانًا تحكي لها عن بنت مصر اللعوب التي لن تترك سبع البرمبة العازب في حاله.

في البداية أصرَّت عمتي على الرفض، هاجت وماجت على فتنة، حتى أنا لم أسلم من لسانها الطويل، كلما أزورها تُظهِر لي أنيابها ومخالبها، وتكاد أن تفترسني، لكن الزن على الودان أمرُّ من السحر كما يقولون. زن فتنة، ورغبة ليلى الواضحة في إتمام الزواج والانتقال للعيش في العاصمة، جعلا حماتي المستقبلية تلين رويدًا رويدًا حتى وافقت في النهاية. اشترطَت أن أعيد ليلى إلى القرية قبل الامتحانات بشهر على الأقل، أحضرت المصحف ووضعت يدي عليه، جعلتني أقسم بأن ليلى ستنهي تعليمها الجامعي مهما حدث.

لا أدري لِمَ كنت مُصِرًا على الإسراع بالزواج! أهو حب عنيف لا يحتمل فراقًا، أم وحدة قاسية عانيتها لسنوات وأريد أن أنهيها بوجود ليلى بجانبي؟ أظن أن رهبة العاصمة التي ما زلت أعاني منها هي أهم دوافعي. المؤكد أن رغبة التعجيل بالزواج لم يكن سببها اللهفة لتجربة ارتطام اللحم باللحم التي طالما حكى عنها الأخرق بتلذذ، وإن كنت أريد تجربتها في الحقيقة بعد أن اختبرتها في أحلامي.

استقراري مع ليلى في العاصمة كان مفاجئًا لزملائي في المجمع، البطل تعجَّب وضرب كفًا بكف، شجب وأدان واستنكر فعلتي، قال لي: ما إنت يا إما أهبل يا إما عبيط، الشقة اللي ربنا كرمك بيها دي استثمار مش سكن، يعني يا تبيعها يا تأجرها، ما كلنا متجوزين وبنرجع لحريمنا في البلد جمعة وسبت، ولا إنت نحنوح ومش قادر تبعد عن المرة؟!

الجميع ظن بأن استقراري أنا وليلى في العاصمة سيكون مؤقتًا، كانوا متأكدين أنني سأعيدها إلى القرية وأعود للإقامة معهم ثانية في شقة المنايفة.

قال أحدهم بلهجة العارف ببواطن الأمور: هما شهرين تلاتة بالكتير، تدوق فيهم لحد ما تشبع والحرمة تلقط منك، وأول ما بطنها تقب هترجعها البلد.

حضرت ليلى إلى العاصمة وفي نيتها الاستقرار فيها، أعتقد أن العيش في القاهرة كان أحد أمنياتها في الحياة، ربما أهم من الزواج ذاته، عرفت ذلك من الفرحة التي تشع من قسمات وجهها الطفولي يوم أن وصلنا. زوجتي تريد أن ترى وتعرف كل شيء، تبحث وتدوِّن وتصوِّر.

غيَّرت ليلى من الصورة النمطية المرسومة في ذهني عن الريفيات اللاتي يأتين للقاهرة للمرة الأولى، كنت أعرف أن أكثرهن يتوق لزيارة المساجد ذات الأضرحة، عندما زرت السيدة نفيسة وجدتهن هناك يتمسحن في المقام ويدعون. أعرف أن صغيرات السن من الريفيات تركن تلك العادة، وبمجرد الوصول إلى العاصمة ينطلقن إلى ميدان العتبة، لشراء الملابس والعطور وأدوات الزينة، والسير في شوارع العاصمة منبهرات. أما ليلى فمختلفة.

انطلقت معها وكلي زهو إلى منطقة وسط البلد، تمشينا ساعة دون أن تُبدي انبهارًا، حتى لا تطيل النظر بالمعروض خلف الواجهات الزجاجية، كل بضع دقائق أسألها: "مبسوطة؟"، فترد باقتضاب: "آه".

قلت لنفسي سأبهرها مهما كانت التكلفة، عرجت على ذلك المطعم الشهير المواجِه للسينما، تغاضيت عن أسعار المأكولات المبالغ فيها، واشتريت ساندويتشات الشاورما لأول مرة في حياتي، ليلى تلف الساندويتش في منديل، تمامًا مثل أولاد الذوات في

الجامعة، تقضم لُقيمة صغيرة وتزيد في المضغ مثلهم تمامًا، وللأسف تطابقهم في تعبيرات الوجه الخالية من الانبهار.

سألتها: عجبك؟

ردت: يسلم اللي جابه. حلو، بس شعبي.

استوضحت منها، فشرحت وأطالت، وكأنها تحفظ خريطة مطاعم ومحال القاهرة. لعن الله الإنترنت! لم يترك حتى أولاد الريف على حالهم.

منذ ذلك اليوم وأنا تارك الدفة بيد ليلى، توجهها كيفما تشاء، تحدد أين سنذهب، وكيف سنصل إلى هناك، ومن أي مطعم سنأكل. تجلس أمام شاشة الكمبيوتر بالساعات، ثم تأخذ قرارها. لم أعلم من قبل أن شبكة الإنترنت بها كل تلك المعلومات عن العاصمة.

ليلى أرتني قاهرة أخرى لم أكن أعرفها رغم طول المكوث، مطاعم وسينمات ومولات، وحتى شوارع لم أقربها من قبل، بمجرد أن أنهي الدوام في المجمع أتصل بها لتستعد، وعندما أصل أجدها في انتظاري أسفل المنزل، لنبدأ جولتنا الجديدة.

كنا كالسياح ندوِّن العناوين ونصوِّر الأماكن. ليلى سعيدة بما تراه وأنا فَرِح بانبهارها. أيام وأيام وأنا ألهث خلفها بلا كلل، للأسف، كان لا بد من نهاية. انتهت جولاتنا السياحية، لا بسبب

الإرهاق ولا لتبدد الأموال، وإنما للملل، فالسائح يأتي وينبهر ثم يرحل، أما نحن فمقيمون. بتكرار زياراتنا لذات الأماكن اختفى الانبهار، شغف ليلى انتهى، وتحوَّل تجولنا في العاصمة إلى مجرد وسيلة لتمرير الوقت، أعرف أن اليوم طويل والساعات تمر ببطء، هي وحيدة أغلب النهار، وعندما أعود أصحبها لساعة أو ساعتين في الخارج، وبعدها نستقر أمام التليفزيون حتى يحِنُّ النوم علينا ويحضر لينهي مللنا.

ليلى تغيرت، مع مرور الأيام تبدلت أحوالها، هجرت الكمبيوتر، صديقها الأثير الذي كانت تقضي أمام شاشته أغلب ساعات النهار، أصبح تكسوه طبقة من الغبار، كتب الجامعة خرجت من الكراتين وتناثرت على المنضدة، مكالماتها التليفونية مع صديقاتها في البلدة طالت وأصبحت يومية. زوجتي تقوقعت في المنزل، صباحًا تُسلِّمني ورقة باحتياجاتنا لأشتريها، كلما سألتها عن سبب مكوثها الطويل تتحجج بالإرهاق والمذاكرة. أقنعت نفسي بأن السبب هو وفاؤها بعهدي مع أمها. أيام من المذاكرة لا تضر وبعدها ننفض، قلت إنها فترة ستمر وتعود بعدها ليلى إلى طبيعتها، حنين مؤقت ستنهيه الأيام.

بعدما طال الوقت تيقنت بأن زوجتي فشلت في التأقلم، لا عهد ولا حنين ولا استراحة. ليلى يئست من المحاولة وتريد الرحيل، عرفت ذلك عندما عدت من المجمع ولم أجدها بانتظاري أسفل

المنزل، كنا حتى ذلك الوقت محتفظين بتلك العادة. اتصلت بها لأستعجلها، فقالت لي اصعد، تساءلت عن السبب، فردت لا سبب، فقط مللت من المسير بالساعات بلا هدف.

وجبة الغداء الدسمة المكونة من الأرز المعمر والبط أقلقتني، أعرف أنها لا تحب هذه الأكلة، تسميها أكل فلاحين، كل تجاربها في المطبخ منذ أن تزوجنا لا علاقة لها من قريب أو من بعيد، بما تطبخه عمتي أو أختي فتنة، ليلى تطبخ الأكل المودرن، تُقلِّد ما يصنعونه من طعام في البرامج التليفزيونية. التغيير في نوعية الطعام أكَّد لي ما كنت أخشاه.

بعد أن انتهينا ورفعت الصحون تكلمَت، ويا ليتها ما تكلمت!

– الناس هنا غير الناس.

قالتها وانفجرت في البكاء. محاولاتها الكثيرة في التعرف على الجيران باءت بالفشل، تصنَّعتُ الضحك لأخفي البركان المتصاعد بداخلي، قلت لها: متزعليش، هنا كل واحد في حاله، بس طيبين، مع الوقت هتعرفي ناس كتير وتبقوا صحاب كمان.

ليلى لم تصدق كلامي، ظلت لساعتين تحكي عن ذكرياتها المريرة في العاصمة. مرة تلقي السلام على جارة تمهيدًا لفتح حوار، فيكون الرد مقتضبًا، "حتى سلام ربنا بتقول نصه وتحط وشها في

الأرض، وتقفل بابها وكأني جربة"، ومرة تنحشر بين السيدات في محل الخضار وتسأل عن أي شيء، علَّها تبني صداقة مع أي أحد، "قلت أعمل عروسة مش فاهمة حاجة، أقولهم هو آني البقدونس وآني الكسبرة، قلت أهو حوار وخلاص وهنقعد نرغي"، توقعَت أن يبدأ الحوار بالخُضرة وينتهي بتبادل أرقام التليفونات. الخائبة خططت أن تعزمهن في منزلنا ليتذوقن النجرسكو الذي تعتقد أنها تجيد عمله.

– محدش عبَّرني ولا رد عليَّ؛ كررت السؤال مرة واتنين، وفي الآخر واحدة بصتلي من فوق لتحت وشاورتلي على صاحب المحل، وقالتلي اسأليه.

قالت لي إنها كرهت الخروج من المنزل، ملَّت من المحاولات، مقتت ناس تلك المدينة، نعتتهم بالمتعجرفين منعدمي الذوق. أنهت حديثها بالنهاية المتوقعة: عايزة أرجع البلد يا كمال.

ضممت ليلى إلى صدري، هي تحكي عن الناس ولاد الكلب وأنا سارح، أتذكر سنواتي في العاصمة التي كثُرت ومحاولاتي التي فشلت، أواسي ليلى في العلن وأشفق على حالي في السر.

كان أملي أن تأتي لأواجه بها غربتي، فزادت من آلامي.

أنا كمال.. أنا ابن الشهيد.. أنا جار أمير الجيوش.

أنا المسالم دائمًا.. أنا الحانق على الجميع في داخلي.

أنا الطائش الذي غوته العاصمة فحجَّ إليها، وكلما اقترب منها لفظته وكأنه أجرب.

أنا كمال محفوظ الذي حاول التأقلم حتى مل.

نامت حبيبتي ودموعها ما زالت تسيل، وكأن المتعجرفين لم يتركوها وزاروها أيضًا في أحلامها.

أحملها وأنا على وشك الانهيار، أضعها على السرير وأجلس بجانبها، أفتح محفظتي وأُخرِج البطاقتين، نظراتي تتحرك بين صورتي المتكررة فيهما وبياناتهما المختلفة.

الاسم ذاته والصورة نفسها والعنوانان مختلفان.

أحاول التماسك ويداعبني الأمل، أقول لنفسي ابن القرية أصبح رسميًا من سكان العاصمة.

أنا مُصِر على الاستقرار هنا.

عنواني هنا وسأبقى.

مسحت دموع ليلى، ربتُّ على كتفها كي تصحو، قلت لها:

– بكرة تجهزي نفسك، عشان نروح أغيرلك البطاقة ونكتب فيها العنوان الجديد.

نظرت إليَّ بعينين نصف مفتوحتين ولم ترد، أغمضتهما وأكملت نومها.

أغلقت ستارتي وتهيأت لأبدأ حلمي.

## (10)

لكل قديس معجزة، وعم بيشوي ارتقى إلى مراتب القديسين بمعجزته تلك، وُظِّف في العمل الحكومي وعمره تسعة وخمسون عامًا، سنة واحدة فقط سيقضيها معنا في المجمع وبعدها سيُحال إلى المعاش.

رجل طيب لم يؤذِ أحدًا طوال مدة خدمته هنا، ربما تحققت أعجوبة تعييننا في العمل الحكومي بفضل دعائه. هذا ما قاله البطل بعدما سمع كلمات الأخرق التي تفوح منها رائحة السخرية.

– سنة واحدة خدمة ويقعد يقبض معاش طول العمر هو وولاده! يا بلاش يا ولاد!

بعد رد البطل المفحم صمت الأخرق ولم يتمادَ في حديثه.

دور الأخرق البطولي يوم الاعتصام يُقدِّره الجميع ويثمِّنه، لكنه لم يشفع له عندما تشاجر مع البطل، طُرِد في وضح النهار ولم ينبس أحد ببنت شفة، حدث ذلك في اليوم التالي للاعتصام. كما المتفق حضر مندوب الوزارة لحصر العمالة تمهيدًا لصدور قرار تفصيلي بالتعيين متضمن أسماءنا ووظائفنا. قابله كبراء الشقق وبدؤوا المسير في أرجاء المجمع. التحق بركبهم الأخرق وظل يطرح الأسئلة: هنقبض كام؟ هنتعيين على أي درجة؟ التأمين الصحي بتاعنا هيبقى في أي مستشفى؟ لا يمل من طرح الأسئلة، ولا من رد

المندوب الذي لا يتغير: أنا دوري أعمل حصر وبس، وبعد كده هيجيلكم قرار شامل كل شيء.

في البداية نظر له كبراء الشقق ليصمت، فتجاهلهم واستمر في التحرك خلفهم من مكتب إلى مخزن ومن ورشة إلى عنبر، حتى نفد صبر البطل وأمره علنًا بالابتعاد: غور بقى يا أخي وحِل عن سمانا.

صياح البطل وشخطه معتاد، فقد حصل كل منا على حصته منه، فليس سُبة أن يعلو صوت البطل باتجاهك.

ما جعل الوضع يتأزم هو رد الأخرق، الذي لم يتقبل أن يُطرَد أمام مندوب الوزارة. صوت البطل الغليظ قوبل بصوت الأخرق الجهوري، وكأنهما يتباريان في مسابقة الأعلى صوتًا. الأخرق يرفض أن ينصرف، يعدد بطولاته يوم الاعتصام، يقول إنه من حق الجميع أن يسأل ويستفسر ويعرف.

– يا جدعان إحنا دلوقتي موظفين حكومة كلنا زي بعض، مبقاش فيه كبير وصغير.

الغبي يظن أن بكلامه هذا سيستميل زملاءنا ليقفوا خلفه، لكنهم بالطبع وقفوا أمامه ليجبروه على التراجع، فالبطل أمر بأن يبتعد وأمره نافذ، الأخرق سبَّ ولعن، وفي النهاية انصرف خاسرًا كالعادة، فثائر وحيد وسط قطيع مطيع من المستحيل أن يربح.

كنت أظن أن الأخرق سيترك شقة المنايفة كعادته بعد كل خلاف، ويعود للإقامة في شقة العزاب، لكن يبدو أن عم بيشوي بالفعل يمتلك كرامات، على غير المتوقع أقنع الأخرق بعدم المغادرة.

القديس الصائم على الدوام أصرَّ أن يقيم مأدبة غداء بمناسبة تعيينه، وأيضًا الصلح بين الأخرق والبطل، فهما ابناه كما يقول دائمًا، الغريب أنهما وافقا على الحضور، لا أعرف أبسبب نية صادقة في التفاهم أو رغبة في رؤية المعجزة التي توشك على التحقق، فعم بيشوي منوفي أصيل لم نضبطه في مرة يأكل الظفر، كالصوفيين يعيش، يكفيه بضع لقيمات جافة وقليل من المش الفلاحي ليصلب طوله، يؤكد دائمًا أن جميع من في المجمع أبناؤه، ويبرهن على ذلك بمشاركتهم طعامهم وشرابهم، يقول دائمًا إن "اللي في جيبه مش ليه"، لذا بمجرد أن يستلم الراتب يودعه في دفتر التوفير لتظل جيوبه فارغة.

انتظرنا عزومة بيشوي على أحَرِّ من الجمر، وعندما حلَّ اليوم كان القديس صائمًا صيامه الأبدي، أحضر لنا الفول والطعمية والباذنجان. أكلنا الغداء المقدس وتم الصلح بين الغريمين.

لو أن تعييننا في الحكومة أعجوبة، فما حدث في ذلك اليوم أعجوبة الأعاجيب. أتوبيسان مُحملان عن آخرهما بأبناء العاصمة يدخلان من بوابة المجمع ويتهاديان في أرجائه، أمام كل مبنى يقف

أحدهما ويهبط منه مجموعة من الشباب، ثم يعود للتحرك، أفرغا حمولتهما ورحلا، ليتركانا وجهًا لوجه مع أبناء العاصمة.

بنهاية ذلك اليوم تضاعف عدد العاملين في المجمع مرتين، أبناء العاصمة لم يرتضوا بأن يتركونا وحيدين، فأتوا لنستأنس بهم.

الأخرق قال بأنه كان يتعجَّب من طريقة تدوين مندوب الوزارة لأسمائنا وهو يجري الحصر.

– كان بيسيب سطرين فاضيين بين كل اسم والتاني، وأنا بقول الراجل ده حمار ولا إيه، بس طلعت أنا الحمار، وأسامي ولاد مصر اتحطت بين أساميا، كأنهم كانوا شغالين هما كمان مع المقاول.

زملاؤنا الجدد أصحاب خبرة، فهم أبناء للعاملين بالوزارة، انتظر آباؤهم حتى سنحت الفرصة وعينوهم، حققنا معجزتنا الخاصة فاستفاد منها أبناؤهم، ولكن لا يهم، فلا شفاعة في الرزق، هكذا قال ممدوح البطل بعدما لاحظ تبرُّمنا، "ده رزقهم ومكتوبلهم زينا بالظبط".

قبل أن ينتهي اليوم حدثت الأعجوبة الأخيرة، بركاتك يا مقدس بيشوي!

حضر المخبر، رفيق العنبر وبطل موقعة الستارة الشهيرة، عُيِّن هو الآخر في المجمع، ظهر أمامنا فجأة، واثق الخطوة يمشي ملكًا،

تلاقت الوجوه فذهلنا من ترتيب القدر، "بقينا زمايل يا بلدينا"، قالها ضاحكًا وهو يحتضنني أنا والأخرق، عرَّفناه على زملائنا، وأصر البطل أن يبيت معهم في شقة المنايفة لتأخُّر الوقت وبُعد سكنه، وافق المخبر، وليته ما وافق! فالقذيفة التي أطلقها الأخرق عكَّرت ليلته.

– هتنوَّر شقة المنايفة يا بلدينا، بس هنا مفيش ستاير، معلش قضيها بقى وإنت واقف.

قالها الأخرق فوَجَم المخبر وبهت، ظل صامتًا حتى تأكد بأن أحدًا لم يفهم.

انطلق صديقنا العائد في الحديث، الضابط المسؤول عنه –أطال الله عمره وجعله في ميزان حسناته– هو من عيَّنه، بعد أن أنهى دراسته الجامعية لم يجدوا من يحل محله، جنَّدوا غيره الكثير، لكنهم لم يكونوا بنفس المهارة والجَلَد والإخلاص، لذا أعادوه إلى الجامعة مرة أخرى، دفعوا له مصاريف الدراسات العليا، حتى يستطيع أن يبقى في الجامعة ويستمر في كتابة التقارير. سنتان أخريان قضاهما هناك، انتهيا بحصوله على دبلومة القانون الجنائي بتقدير امتياز، ووعد من ضابط لاظوغلي بمساعدته في التعيين بوظيفة حكومية.

المخبر يحكي بانطلاق، والأخرق يضرب كفًا بكف ويتعجب؛ كيف يعيِّنونه، وهم ذاتهم طُرِدُوا من أعمالهم واقتُحِمَت مقراتهم؟! المخبر يرد بأن الله لطيف بعباده، الضابط المسؤول عنه ظَل في

منصبه، الله أعمى أبصارهم عنه ولم يتأذَّ، فقط انتقل من مقر لاظوغلي إلى مقر آخر يبعد عن المجمع بكيلومترات قليلة. ضابط ابن أصول، لم ينسَ تفاني المخبر وخدماته التي لا تُعد ولا تُحصى للبلاد، عندما سنحت الفرصة لم يتردد لحظة وعيَّنه على الفور.

لا أهتم بحكاوي المخبر ولا بتعجُّب الأخرق واستفساراته المتكررة، أنا فقط فَرِح لقدومه، سعيد بتجمعنا نحن الثلاثة ثانية، غير منشغل بالطريقة التي عيِّن بها، كل ما يعنيني أن زميل الجامعة أصبح بيننا.

ظلا يتحدثان وأنا سارح، تذكرت رهبة وخوف جميع من في مدينة الطلبة من المخبر، عندما حضر للمرة الأولى، أضحك في سري كلما أتذكر حادثة الستارة، لم أنسَ رغم مرور السنوات تعبيرات وجه المخبر المذعورة عندما أزحناها عنه، ونظرات الخِزي في أعين جميع سكان العنبر.

– احضرنا يا عم كمال، يعني المقار اتقفلت والقيادات اتسرَّحت والوزير ذات نفسه دخل السجن، والبيه بتاعه نجي من كل ده، وكمان عرف يعينه، طب إزاي؟!

سؤال الأخرق لم يأتِ في وقته على الإطلاق، اقتلعني مما أنا فيه، من استعادة ذكريات تسعدني، الحاضر غالبًا لا يروق لي، لم أحب أي حاضر عشته، تمر الأيام وتتوالى الأحداث، فيتحوَّل حاضري إلى ماضٍ، ينسحب بخُطى بطيئة حتى يستقر في ركن

قصيٍّ مُظلم، غبار لهاثي المستمر خلف المستقبل يحيطه، غلالة رقيقة منه تحتويه فيصبح ذكريات، أحب الذكريات؛ كلما أردت أن أنتشي أستعيدها، أعشق لذة تذكُّرها.

لم أُجِب الأخرق على سؤاله، فظل يكرره، جاوبته بأول ما ورد في ذهني علَّه يتركني أصل إلى نشوتي.

قلت له: يا عم اعتبره أبناء عاملين، سطر فاضي بين أساميناء، يعني يا حمار الموظفين الصغيرين في الوزراة عرفوا يعينوا ولادهم، وظابط لاظوغلي مش هيعرف؟!

ما كُتِب بين السطور ظل بينها، كتب بحبر شاحب لا يُرى إلا بتدقيق النظر، تخفُّوا بين أسمائنا حتى عبروا، وأرادوا أن يظلوا متخفِّين، انتظرنا أن يجف الحبر فيسطع، لكنه ظل باهتًا، تلك هي حال أبناء العاصمة، زملائنا الجدد في العمل.

بعدما حضروا إلى هنا أصبح لكل منا بديلان قاهريان يشاركاه عمله، في البداية اكتفى أبناء العاصمة بالجلوس والفُرجة، قلنا مسألة وقت حتى يتعلموا، الوقت مر وهم على حالهم لم يتزحزحوا من على كراسيهم، علَّمهم آباؤهم أصول العمل الحكومي وأرضعوهم قواعده حتى فطموا، القاهريون إما جالسون في المكاتب يثرثرون، وإما مستلقون على ظهورهم في مسجد الورشة، أو مهرولون إلى الصراف يوم استحقاق الراتب.

في الحقيقة لم أكرههم على الإطلاق، فهُم ودودون للغاية ومرحون، "ولاد نكتة" مثلما يقول عنهم الأخرق، أما بلدياتي فكانوا على عكسي تمامًا، يمقتون القاهريين إلى أقصى حد، لم ينسوا السطور الفارغة بين أسمائهم التي لُطِّخت بالحبر، يشعرون أنهم غُرر بهم، ثورة واعتصام وفي الأخير يحضر أبناء العاصمة ليوظفوا على الجاهز.

قال البطل بأن ما يحدث بلطجة، ولا بد من وضع حد لذلك. تكلم مع القاهريين بجِدة، وأقسم بالله بأنهم لو ظلوا هكذا سيكون للمنايفة والشراقوة رأي آخر. بالطبع الرد كان جاهزًا: إحنا تحت أمر الشغل، بس للأسف معندناش خبرة، أهو بنتعلم منكم واحدة واحدة، ومع الوقت هتلاقونا معاكم كتف بكتف.

أختلف كثيرًا مع البطل وأرفض أغلب تصرفاته، لكنه للأمانة صاحب خبرة في الحياة وفي فرز البشر، لذلك عندما قال بأن أبناء العاصمة يماطلون من أجل إضاعة الوقت لا أكثر، صدقته.

في اليوم التالي نفَّذت مع الجميع تعليمات ممدوح البطل، كل منا جلس في موقعه، ثماني ساعات هي فترة دوامنا قضيناها في الثرثرة، لم ننجز أي عمل، استمرينا على ذلك الوضع أربعة أيام. في البدء لم يلاحظ القاهريون، لكن مع تراكم الأعمال غير المنجَزة وتوالي الاتصالات من المديرين، للاستفسار عن أسباب التأخير، فهموا؛ بدأت أحاديثهم معنا تأخذ منحى آخر، كثُر الكلام عن

الزمالة، وعن الجزاءات التي من الممكن أن تطال الجميع بلا استثناء، وعن لقمة العيش ووجوب صونها، يتحدثون ونحن ودن من طين وأخرى من عجين. في اليوم الرابع استسلموا وقرروا أن يشاركونا الأعمال.

انتهت المعركة بانتصارنا، لكنه كان فوزًا بطعم الهزيمة، ما حققناه لم يُرضِنا، فالعدل لم يتحقق مثلما أردنا، قسِّمت المهام بيننا، لكن بطريقة جعلتنا متحملين أغلب الأعمال، تحججوا بقلة الخبرة فوافق ممدوح البطل. عندما لاحظ ضيقنا قال: يا جدعان إنتو الواحد منكم يتفك بعشرة من العيال الفرافير دول، فمفيش مشكلة إن كل واحد فيكم يشيل شغل قد اتنين منهم، المهم خليناهم يشتغلوا معانا.

أحوال بلدياتي لم تتغير بالرغم من تبدُّل العالم من حولنا، عم الشيخ أحمد استغل قدوم القاهريين ليعود لممارسة مهمته المقدسة، يخرج في سبيل الله قبل صلاة الظهر ليدعو المؤمنين إلى أداء فرض الله، بفطنة ونظرات ثاقبة يحدد هدفه، صغار السن دائمًا ما يكونوا وجهته لسهولة التعامل معهم، يرسم الابتسامة السمحة على وجهة، ثم يطلق استفساره التقليدي كمدخل للحوار: إنت يا ابني ليه مبتصليش معانا في المسجد؟ إنت تعرف ثواب صلاة الجماعة قد إيه؟

القاهريون مختلفون عنَّا، أعصابهم مشدودة ومتوترون على الدوام، عندما تنظر إلى ملامح وجوههم تشعر بأنهم على وشك الدخول في مشاجرة، ربما يرجع ذلك إلى طبيعة الحياة في مدينتهم، ردودهم تضرب في الصميم كما يقول الأخرق، للأسف لم يفهم عم أحمد ذلك إلا بعد أن تلقَّى أكثر من ضربة. أحدهم قال له: "وإنت مالك؟!"، وآخر قال: "متتحشرش في اللي ملكش فيه"، والأخير رد بلؤم" "إنت بقى تبليغ ودعوة ولا تكفير وهجرة؟".

الأخرق هو الآخر لم يتغير، فبعد أن أنهى عم بيشوي الخلاف بينه وبين البطل ساءت الأمور من جديد، وترك شقة المنايفة، لم يكن السبب هو مزحات البطل الخشنة، فهو معتاد عليها، ولا الملل من نصائح بلدياتي وتحذيراتهم المتكررة من خطورة اندماجه مع زملائنا القاهريين، فالأخرق تجاهل كل ما قيل وتصادق مع أبناء العاصمة، عندما تراه وسطهم تشعر بأنهم أصدقاء منذ زمن وليس معرفة أشهر قليلة، ضحك ونكات في المجمع طوال النهار وسهر على المقاهي حتى الفجر، والبطل يحذر وهو لا يبالي.

– ما هما طبعًا على مزاجك، ملهومش في الشغل ويحبوا السهر في الشوارع للفجر وشرب المخدرات.

الخلاف حدث يوم عزاء والد أحد الزملاء، بعد الفجر بقليل جاء الاتصال، أخبرنا الزميل بأن الوفاة وقعت. عم بيشوي سارع بتأجير ميكروباص لنقل بلدياتي للشرقية، اتفق كبراء الشقق أن

يسافر نصفنا لتقديم واجب العزاء، ويظل النصف الآخر في المجمع لتأدية الأعمال. بالطبع لم يكن الأخرق في الحسبان، نعرف أنه سيسخر منا، وسيرفض المجيء معنا للتعزية؛ وضعه البطل في خانة الحاضرين للعمل، غادرنا المجمع والأخرق لم يكن قدم من سهرته، يوم شاق عدنا في نهايته مُنهَكين، عندما وصلنا فوجئنا بأن الأخرق لم يعد إلى المجمع، طالت سهرته فغاب عن العمل وبات عند صديقه القاهري، وصل إلى شقة المنايفة بعد المغرب، فعاتبه البطل، قال له: يا أخي خلي عندك دم، يعني إحنا سافرنا وطلع عين أبونا، وإنت نايم على بطنك؟! يعني ولا تعمل واجب العزا ولا حتى تيجي الشغل؟! ده أنا أكدت عليك وكلمتك أربع مرات، وبردو مفيش فايدة؟!

مشاجرة وتلاسن تعوَّدنا عليهما، تطورا بعدما رفض الأخرق الاعتراف بخطئه، يأس منه البطل فألقاه بقذيفة من النوع الثقيل، قال له: خليك كده متلزق في العيال بتوع مصر، وماشي وراهم زي الكلبة النتاية اللي عايزة عُشر.

غادر بعدها الأخرق شقة المنايفة للمرة الأخيرة؛ نعتُهُ بهذا الوصف آلمه، شعر بالإهانة فرَحَل ونوى عدم العودة مطلقًا.

أفضل ما في الوظيفة الحكومية أنها لا تُفرِّق بين كبير وصغير، قاهري وريفي، الكل سواسية، الجميع يقف في طابور طويل أمام الصراف ليستلم راتبه، طبعًا الوضع لم يعجب الكبراء، حاولوا تغييره

وفشلوا، فالصراف كان صعب المراس، قال لهم: مينفعش حد يقبض لحد، دي مش طابونة، اقفوا في الطابور زيكم زي زمايلكم.

كانت تلك هي أولى الضربات التي تلقاها الكبراء، فالمرتبات خرجت من أيديهم إلى الأبد. للأمانة لم يفرح أحد من بلدياتي لذلك، بالعكس، أظهروا بعضًا من الحزن المصطنع، والتزموا بتسليم الكبراء مصاريف الطعام واستحقاقات الصناديق فور تسلم المرتب.

حاول بلدياتي إقناع القاهريين بالاشتراك في صندوق كفالة اليتيم، عددوا لهم مزاياه، لكن أبناء العاصمة رفضوا، قال الكبراء هذا أفضل، نحن في الأساس لم نُرِد دخول الغرباء بيننا. أعرف أنهم قالوا ذلك لحفظ ماء وجوههم بيننا ليس إلا. أعتقد أن تملُّص القاهريين وعدم اشتراكهم في الصندوق لم يكن فقط مُكرَّسًا للانقسام بين العاملين في المجمع، إنما كان مسمارًا دُقَّ في نعش دولة الكبراء.

## (11)

اسمه نور، في نحو الثامنة من عمره، وإن يبدو أكبر بقليل، أشقر، مستدير الوجه، ملامحه دقيقة وكأنها مرسومة بريشة فنان، كـ"الخواجات"، كما قالت لي جدته ذات مرة وهي تضحك في زهو.

نلتقي يوميًا دون ميعاد، حين أذهب لشراء طعام الإفطار من المطعم المجاور الذي يعمل به، يستقبلني ضاحكًا، يسرع الخطى ليسبقني إلى الداخل، مع توجيه منه للعامل بإعداد أفضل السندوتشات لعمو كمال، يودعني بابتسامة، ويصر أن يوصلني إلى خارج المحل.

معرفتي بنور بدأت قبل ذلك بقليل، عندما أتى هو وجدته للسكن في نفس البناية التي أقطن بها. قدومهما كان طوق نجاة لي، مفاجأة سارَّة لم تكن في الحسبان، أخيرًا وجدَت زوجتي رفقاء في مدينة المتعجرفين.

أعدتُ ليلى إلى العاصمة بصعوبة، أنهت الامتحانات وأصرَّت على البقاء في البلدة بحجة رعاية أمها وأبي. عود القصب تتذاكى كي لا ترجع. استخدمتُ كل أسلحتي لأدفعها إلى العودة، أُذكِّرها بالأيام الخوالي، بالشغف والانبهار، أحكي لها عن وحدتي، أرسل فتنة لتخبرها بخطورة ترك رجل وحيد في العاصمة، تُحذِّرها أختي من

بنات العاصمة اللائي تخصصن في إغواء الرجال السذج من أمثالي. تقبل على مضض بالعودة، وتشترط أن أقدم طلبًا للوزارة للنقل لأي عمل حكومي بشبين الكوم، قالت: بالتأكيد الوزارة ليها فرع في شبين. كذبت ورددت بالإيجاب، قلت لها إن موضوع النقل من محافظة لأخرى يستغرق شهورًا طويلة حتى يتم.

عادت وفي نيتها أن تكون الزيارة الأخيرة للعاصمة، شهور ستمضي ويتم النقل، وبعدها نستقر في قريتنا إلى الأبد، لكن جارينا الجديدين غيَّرا من مخططاتها.

قالت لي إنهما من سوريا، جدة وحفيد، لم تستطع العائلة أن تُدبِّر مصاريف السفر للجميع، فأرسلوا أكبرهم وأصغرهم على أمل لقاء قريب.

عندما وقفت السيارة المحملة بالأثاث أمام المنزل، فهمت ليلى بأن ساكنًا جديدًا حضر. تجاربها السابقة مع الجيران جعلتها لا تهتم، من يحضر يحضر ومن يمشي يمشي، "أنا ما لي؟!"، هذا ما قالته لنفسها وهي تتابع الموقف من وراء شيش البلكونة. استوقفها العفش الهزيل حجمًا ونوعًا، استغربت من وضع السائق للأثاث أمام مدخل البناية ومغادرته، تاركًا المرأة والطفل وحدهما، أخذت تُحلل الموقف. بالتأكيد ليسا مصريين، لهجتهما مختلفة، الطفل ينادي العجوز "جدتي"، إذًا فأين أمه؟ ظلا جالسين في الشارع لساعة حتى

حضر رجلان لهما نفس لهجتهما، حملا الأثاث وصعدا به إلى الشقة.

محاولات زوجتي للبقاء في شقتنا فشلت، نكثَت العهد الذي قطعته على نفسها بعدم التعرف على أحد من سكان هذه المدينة، هبطت إلى الدور الثاني وطرقت بابهما للترحيب، عرضَت أن تساعدهما، وقبل أن يجيباها شمَّرت عن أكمامها وبدأت في العمل، الأدهى من ذلك أنها أصرَّت أن أصحبها لأُرحِّب أنا الآخر بهما، حمَّلتني صينية طعام وسحبتني خلفها، لاحظَت ترددي فقالت: عيب يا كمال! إنت ابن بلد وعارف يعني إيه غُربة، دول أغراب، مش معقول منزلهمش أكل في أول يوم ليهم معانا.

في آخر ذلك اليوم رأيت ليلى أخرى، عود القصب عادت لطبيعتها الأولى، رجعت الابتسامة والضحكة العذبة. نور وجِدَّته كان لهما مفعول السحر. داعبتُها وقلت لماذا نكثتِ بالعهد وحدَّثتِ الجيران، ردت: عندما رأياني وأنا في النافذة كانا مختلفين عن متعجرفي هذه المدينة، الجدة ابتسمت لي ونور لوَّح بيده ليُحيِّيني.

من تعوَّد الوحدة يخشى الاندماج، تلك كانت حالي في البداية، الزيارات الكثيرة المتبادلة أثارت توجسي، قلقت من أن يكون التعارف بداية لشيء ما، ربما طلب مساعدة أو خدمات قد تُثقِل كاهلي. قال البطل بعدما أخبرته عنهما: خلي بالك يا كمال،

الصحوية الزايدة بينهم وبين مراتك خطر، شوية وهيدعوا الفقر وهيطلبوا فلوس. لم أستطع أن أمنع ليلى عنهما، لمحت فقط، حدثتها عن الخصوصية واختلاف الطباع والعادات بين الشعوب. لم أقدر على التصريح، كلما هممت بالمحاولة، أرى وجهها الذي استعاد حيويته فأصمت. حمدت الله عندما أثبتت الأيام خطأ اعتقاد البطل.

الجدة والحفيد مثلنا، كل ما يحتاجانه هو بعض الونس. قالت ليلى ذات مرة مفسرة الاندماج السريع الذي حدث بينها وبين جدة نور: هما زينا بالظبط، أغراب وملهومش حد هنا. حديثها مقنع، فالأقليات تندمج، تضم على بعضها بعض، لتشعر بالطمأنينة في مواجهة الأكثرية، جميعنا يشعر هنا بالوحدة، الرهبة من المدينة والخوف من المجهول يقتلانا ببطء، فما المانع في بعض الونس ليهون علينا.

حضرت جدة نور إلى البناية، فرُفِعَت كتب ليلى الدراسية وعادت ثانيًا إلى الكراتين، طبقة التراب التي تكسو شاشة الكمبيوتر اختفت وحل محلها لمعة، عادت زوجتي من جديد إلى الجلوس والبحلقه وتدوين الملاحظات. بذلت الكثير من الجهد حتى جهَّزت مفاجأتها. لم أفهم ما قامت به، فأنا لست ضليعًا بأمور التكنولوجيا، أحضرَت نور وجدته وأجلستهما أمام شاشة الكمبيوتر، دقائق قليلة مرَّت وبعدها سمعتُ شهقة الجدة وتصفيق

الطفل، صورة والد نور تملأ الشاشة، يتكلم وعيناه تدمعان، الجدة تبكي هي الأخرى، أما نور فيتحدث مع والده بحماس والفرحة لا تسعه.

زوجتي حققت للجدة أغلى أمانيها، أرتها ابنها الوحيد ثانيًا، فالإنترنت يحقق المستحيل، العائلة التأم شملها أمام شاشة الكمبيوتر، أسبوعيًا يجري اللقاء، مرة يحضر الأب وحده، وأخرى يأتي ومعه أقارب آخرون، قد يستمر لقاؤهم لساعة، وأحيانًا ينقطع بعد دقائق قليلة، جودة الصوت والصورة ضعيفة للغاية، لكنها كافية لتجعل جارينا الجديدين ممتنين لليلى، التي قرَّبت البعيد.

مكالمات ليلى لصديقاتها قَلَّت، فهي مشغولة أغلب الوقت بعد أن أصبحت مرشدة جدة نور في المدينة، جولات شراء الخضراوات والفواكه، والوقوف في طابور العيش المدعَّم يقضيان على أغلب النهار، وبعدها تعودان إلى المنزل لتبدآن في إعداد الغداء، الجدة تُعلمها أصناف الأكل السوري، وليلى تعلمها أصول إعداد الأكل الفلاحي. لا تفترقان إلا قرب قدومي من المجمع. بعد غروب الشمس تتكرر الزيارات، إما أن يحضر نور وجدته لمنزلنا، وإما ننزل نحن إلى شقتهما، نشاهد التلفاز ونثرثر في شتى الموضوعات لساعات.

بالتأكيد سعادة ليلى من سعادتي، لكني لم أستسغ هذا الجو المأساوي، حكايات الحرب والخراب تضني القلوب، الحديث عن

الأقارب الذين قُصِفَت منازلهم بالصواريخ وتحولوا إلى أشلاء يقبض قلبي، عائلة نور نفسها وقصة تهريب الجدة والحفيد فقط إلى الخارج لعدم كفاية الأموال، تجعلني أوشك على البكاء، الولد الصغير الذي يعمل منذ طلوع الشمس حتى غروبها يزيد من بؤسي؛ من في سنه يقضي يومه في المدرسة ليتعلم ويلعب، يدلل، لا تُنهَك قواه في العمل الشاق. عندما أخبرت البطل عن غضبي وضيقي مما يعانيانه ضحك وقال لي: استرجل ياد واخشوشن، الدنيا مليانة مآسي، بس الواد نور ده راجل وعجبني.

أمي كانت فائقة الجمال في صباها، مثلما تقول أم ليلى دائمًا، ما تبقى في مخيلتي فقط ملامحها في أيامها الأخيرة. فترة مرضها هي كل ما أتذكره. للأسف لا أمتلك صورة تجمعني بها، كل ما لديَّ هو صورة بالأبيض والأسود، ترتدي فيها فستان العُرس وملامحها ليست واضحة. لعنة الله على الحظ الذي لم يسمح لي ولو بصورة تجمعني بأمي! صحيح لو علمنا الغيب لحلت جميع مشكلاتنا، كنا سنلتقط صورة عائلية تجمعنا وتُخلِّد ذكرى أمي.

– يا بختك!

قلتها لنور عندما أراني صورة لأمه، كانت تضحك وهي تحمله بين يديها. أمه ماتت منذ زمن، رحلت قبل أن تسمع صوته يردد اسمها، جدته هي من ربته، لكنه لم ينسَ ملامحها وضحكتها، فالصور الفوتوغرافية لها فعل السحر، الولد يتحدث أغلب الوقت

عنها، يقول لي: صوت ماما رائع وهي تغني. أتعجب وأقول له: كنت صغيرًا يا نور فكيف تتذكر؟! يفاجئني الولد كما يفاجئني الجميع: كنا بنتصور بكاميرا الفيديو يا عمو، بابا كان بيصوَّرنا وإحنا بنلعب وماما بتغنيلنا. تقول جدته: عندما حل الخراب، الكل كان يجري هلعًا إلا نحن، لم نغادر منزلنا، إلا بعد أن وجد نور صورة أمه وشريط الفيديو، رفض الولد أن يرحل قبل أن يجدهما، كدنا أن نموت بسبب إصراره. قبل أن نأتي إلى مصر تركنا شريط الفيديو مع أخي نور والصورة احتفظنا بها.

عرفت الآن معنى ما تقوم به عمتي، فللعيد طقوس عندها، أهمها الذهاب إلى استوديو التصوير، تأخذ ليلى معها ولا تعود إلا وفي يدها الصورة. عمتي لئيمة تخشى أن تُنسى بعد موتها، لذا تترك لنا عشرات الصور الفوتوغرافية، ليتذكرها الأحفاد وأحفاد الأحفاد.

أول ما تزوجت أخرجت ليلى ألبومًا للصور وقالت لي: سأفاجئك. عود القصب تمتلك صورة تجمعنا، أبي وعمي يرتديان الجلباب البلدي، وأنا أقف بجانبهما مرتديًا بدلة الضابط، وليلى ترتدي فستانًا أبيض وتقف على كرسي خشبي أمامنا، عندما رأت ليلى الفرحة البادية على وجهي قررت أن تبروز الصورة، وضعتها في واجهة غرفة الجلوس، وكلما نظرت إليها تقول لي بدلال: أبوك وأبويا كانوا متفقين من يومها إن ليلى لكمال. لا أعرف بماذا أرد، أحيانًا أقول لها "آه"، وعندما أستشعر بواخة ردي أقول لها

"أحبك". في مرة تخليت عن ردودي الساذجة واحتضنتها وأكثرت من قبلاتي، ضحكت وتملصت من بين ذراعي، ومن يومها توقفت عن ترديد جملتها ثانية.

عندما أطالت ليلى النظر إلى الصورة بعد انقطاع استعديت للهجوم، انتظرت أن تقول جملتها لأطوقها بذراعي، أنزلت الصورة من على الحائط ودققت النظر ثم قالت: نور شبهك قوي يا كمال. أتأمل الصورة فأرى الملامح مختلفة، نور كالخواجات وأنا ريفي أصيل تفضحني ملامحي مهما حاولت "التفرنج"، المشترك فيما بيننا هو نظرة العين وتعبيرات الوجه، أبي وعمي كانا عابثين، أظن أن ليلى كانت تبكي وهي تحاول التملص من يد عمي القابضة على خصرها، لمنعها من القفز من فوق الكرسي، أما أنا فكنت أحملق في شيء ما خارج الكادر، سارح ونظراتي توحي بأنني مُشوَّش، ملامح تظهر بأن صاحبها مذهول مما يراه، نظرات نور مثل نظراتي تمامًا في الصورة.

ليلى حاولت كثيرًا أن تساعد جدة نور، لكنها رفضت. نعلم أن دخلهما محدود، مِنَح تأتي كل فترة من منظمة الإغاثة، وراتب نور الضئيل هما كل ما يحتكمان عليه، نستبعد بأن تكون قد أحضرت معها أموالاً، فلو كانت تمتلك النقود لأدخلت نور المدرسة، بدلاً من العمل المرهق في المطعم. ما يميز زوجتي هو المثابرة، أصرت أن تساعدهما، وقد كان، بعد أن شرحت لي خطتها

قالت: مساعدة الغرباء فرض وما انتقص مال من صدقة. وافقتها بالطبع، فقامت بالحيلة، عندما ذهبا إلى السوق أصرت زوجتي على المحاسبة، تقول للجدة: هنتحاسب لما نروَّح، إنتي لو حاسبتي هيخموكي عشان مش مصرية. زوجتي لم تعد تحاول أن تساعدها جهرًا، فقط تدوِّن المشتروات في ورقة، وتضع أسعارًا غير حقيقية ثم تعطيها للجدة لتدفع نصيبها. انطلت حيلة تخفيض الأسعار إلى النصف على الجدة، ففرحت ليلى وتباهت أمامي بذكائها الفائق.

لا أعرف سر سعادتي أنا الآخر لحضورهما، في البداية أوهمت نفسي بأن سعادة ليلى بقدومهما وعدولها عن قرار الرحيل هو سبب فرحتي، بعد فترة صارحت نفسي بالحقيقة، أنا سعيد بالونس، باللمة، بالأساس نور هو السبب، جلوسي مع طفل بالساعات أمر غريب، بالتأكيد لو كنت أمتلك أصدقاء حقيقيين لما مكثت في المنزل، منتظرًا قدوم طفل دون العاشرة لأتسامر معه. في الحقيقة أنتظره على أحرِّ من الجمر، وإن تأخر أهبط إلى شقتهما لأطمئن عليه. ليلى فسَّرت ارتباطي بنور: عادي يا كمال الواد شبهك، عشان كده بتحبه. بعدما رأت علامات عدم الاقتناع التي رُسِمَت على وجهي، أحضرت البرواز ووضعته أمامي، بص على صورتك وإنت صغير هتلاقي فيكم شيء من بعض.

أحاديثنا تطول أنا ورفيقي الصغير، نبدأها بتقرير يلقيه عن أحداث يومه في المطعم، ينهيه ثم يبدأ في طرح الأسئلة عن أي

شيء يخطر بباله، وينتظر مني الإجابات. نور غرٌّ ساذج، يتعشم في أن يجيبه شخص ذاهل من كل شيء، في بعض الأحيان أجيبه، وكثيرًا ما أفشل في الإجابة، الجميل في نور أنه يستمتع بطرح الأسئلة ولا يهتم بالحصول على إجابات.

يتحوَّل الحوار تلقائيًا إلى الذكريات، يحدثني عن قريته وأهله، عن سوريا قبل حلول الدمار، نظل بالساعات نحكي بلا ملل، عن أمي وأمه، عن أبي وأبيه، ذكرياته القريبة تشبه ذكرياتي البعيدة، أشعر أن أمه صورة من أمي، مثلها في كل شيء، أو ربما صورة الأمهات في أعين أطفالهن واحدة.

الحنين إلى حضن أمي يقتلني، غربتي هي في البُعد عنها، أمي وطن وما عاداها غربة، حضنها كان الأمان، وبعد أن ماتت تهت بحثًا عن طمأنينة زائفة، طالت تغريبتي بلا جدوى ولم أصل، وجب أن أذهب إلى القرية، فربما أجد في رحاب قبر أمي ما يريح روحي المنهكة.

البطل لا ينسى ولا يقول كلمة في غير موضعها، أعرف ذلك، لكني لم أتصور أن يتصل خصوصًا للاستفسار عن أحوال نور. قال لي: العيد قرَّب والواد محتاج لبس جديد. رددت بأن الوقت ما زال مبكرًا على العيد، وأكَّدت له أنني لم أنسَ، وسأشتري لنور طاقمين من الملابس الجديدة. رد البطل ضاحكًا: خلاص طقم عليك وطقم عليَّ، وكمان هشتريهوله من أنضف محل لبس في

مصر. أخبرني بأن أذهب إلى توكيل الملابس المستوردة الموجود في مول المدينة.

– روح هناك لبلدياتك وهيظبط لنور أحلى هدوم.

محل الملابس الذي أخشى المرور أمامه سأدخله أنا ونور. قالت ليلى: خلاص لو صاحبك عايز يدفع كتير هو حر، إحنا مالنا؟ قررنا أن ننتقي لنور طاقمًا واحدًا من هناك، أما الآخر فستشتريه ليلى من شبين الكوم.

تأكدت أنني سأظل ساذجًا مهما حاولت التذاكي. بالطبع البطل لا يهوى تبديد الأموال، فطالما وجد بلدياتي في مكان، فبالتأكيد هناك ثغرة سيجدانها.

وصلنا إلى المول، وبدأ بلدياتي على الفور في عرض الملابس المناسبة لنور، كلما قرأنا الأسعار المدوَّنة على المعروضات بهتنا، ليلى تتذرع الحجج لنهرب بجلدنا، بالرغم من تطميناتي بأن البطل هو من سيدفع، بلدياتي يلاحظ ما نحن فيه من توتر، فيتولى هو اختيار الملابس الجديدة لنور. الولد سعيد، يلبس ويقيس ويخلع، ونحن ندعو الله في سرنا أن يمر الوقت بلا خسائر، بلدياتي يلاحظ اضطرابنا فيضحك ويعيد الملابس إلى أكياسها، يعرض الأكياس أمام نور ليؤكد اختياره ثم يرجعها إلى الأرفف مرة أخرى، يقول لنا: اتكلوا على الله، أنا هبقى أوصل اللبس للبطل. فنرحل حامدين الله على خروجنا سالمين.

قبل أن نصل إلى المنزل يأتي اتصال البطل، فبلدياتي حكى له كل شيء وكأنه كان معنا، قال لي: كنت هتشخ على نفسك يا فرفور. لم تزعجني سخريته اللاذعة، فأنا متعود عليها، ما أدهشني هو لعبته الجديدة التي نجحت كالعادة، قال لي: كل ما يلزم للفوز بالملابس المستوردة هو الصبر وبعض من اللعاب، الملابس تخرج من الأكياس وتُفَك منها الدبابيس، بدلاً من أن يمسك بلدياتي الدبابيس بيده يضعها بين شفتيه، بعض من اللعاب على الدبابيس ثم يعاد وضعها في الملابس، تُغلَق الأكياس وترفع إلى الأرفف مرة أخرى، بعد أيام تهبط الأكياس بحجة عرضها لزبون جديد، يفاجأ بلدياتي بالصدأ الظاهر بالملابس حول مواضع الدبابيس، يا سبحان الله! حتى الملابس المستوردة مليئة بعيوب الصناعة كالمحلية.
أسبوعان على الأكثر ويأتي التسعير الجديد للبضائع المعيبة، خصم يتراوح بين ستين إلى سبعين بالمائة.

وصلت الملابس الجديدة في موعدها، قبل العيد بأيام سلَّمها لي البطل، قال لي: ادِّي الهدوم لنور، وقوله دي هدية عمك ممدوح.
قلت له: ما دام السعر رخيصًا أريد أن أشتري طاقمًا آخر لنور ولليلى أيضًا، حدَّثني بلهجة التقيِّ الورِع: "ده حرام يا كمال!"، ثم أردف: "وبعدين لو زوِّدنا في الموضوع بلدياتك هيتكشف ويتقطع عيشه من المحل".

***

عجيب أمر هؤلاء السوريين، رغم المِحَن والدمار الذي أصاب بلادهم لا تفارق وجوههم الابتسامة، تفاؤلهم ويقينهم بالعودة إلى ديارهم يدهشني، ربما ذلك هو سبب عدم تقدمهم في العمر.

هذا ما قالته لي ليلى وهي تفسر سبب قلة التجاعيد في وجه الجدة، كنا نظن أنها في أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات من العمر على الأكثر، طبعًا ليلى لم تسألها عن عمرها. حديثهما تطرَّق إلى الأبناء والأحفاد، فأخبرَتها الجدة بأن ابنتها الكبرى تستقر في حلب منذ أن تزوجت، وأنها تمتلك من الأحفاد ثمانية، ليلى تعجبت وسألت الجدة كيف يكون لشابة أحفاد، بالتأكيد زوجتموها وهي طفلة! ضحكت الجدة وردت: كانت شابة يافعة حينها، وهي الآن عجوز جاوزت الخمسين. ثم أردفت: زوجوني وأنا في العشرين، وكذلك تزوجت ابنتي في نفس العمر.

قالت ليلى: تصدق يا كمال، حتى المرض لا يعجل بالهرم مثلما كنت أظن! فالجدة مصابة بأغلب أمراض الشيخوخة، ومع ذلك لا تظهر عليها آثار التقدم في العمر. لم تستطع كتمان تعجبها وانفلت لسانها سائلة الجدة عن سر الشباب الدائم، ردت الجدة في ثقة: الضحكة الصافية واليقين بأن الله فوق سبع سموات يرعانا هما السر. حدقت إليَّ ليلى بعد أن أنهت كلامها منتظرة ردي، فأومأت برأسي بالإيجاب، ما دام ذلك يرضيها فلمَ نتجادل بلا جدوى؟! طبعًا لم أقتنع بنصائح الجدة، فالضحكة في الهَم مُصطنعة كلية،

قشرة على السطح تخفي تحتها بركانًا من الأسى، قد يصدقها مَن حولك ويقتنعون بأنك سعيد وراضٍ، ستطمئنهم أنك بخير، ولكن من المستحيل أن تداوي بضحكة زائفة ذاتك. اليقين هو الآخر خرافة نوهم بها أنفسنا، لنستطيع الاستمرار في حياتنا البائسة. ضحكة الجدة قناع ويقينها زيف، تضحك فقط لتهوِّن على الحفيد.

يحكي لي نور عن وعود جدته التي لا تتحقق أبدًا، في بداية كل شهر تعده بانتهاء الحرب في سوريا، تقول له سنعود إلى الأهل قبل نهاية الشهر، الطفل ينتظر ويمنِّي نفسه بالعودة إلى الوطن، إلى دار تجمعه مع عائلته من جديد. كل يوم يسكب بقلمه نقطة جديدة من الحبر على ورقته البيضاء، وعندما يصل إلى ثلاثين نقطة يذهب بالورقة إلى الجدة ويقول: انتهى الشهر وما زلنا في مصر. مرت الشهور وكثرت الحجج وفي النهاية أخفت الجدة الورق والأقلام من المنزل. قال لي نور بعدما يئس: يا عمو جدتي تدعو الله كل يوم بأن تنتهي الحرب، ونعود مرة أخرى إلى بيتنا، تدعو على الظالم والقاتل والخائن، تردد نفس الكلمات كل يوم ولم يحدث شيء، الحرب ظلت قائمة يا عمو، وأبي أخبرني أن بيتنا هو الآخر تهدَّم بفعل قذائف الأشرار، لماذا لا يقتل الله الأشرار يا عمو؟ لماذا يترك من يدعونه يُقتَلون؟ خالتي قُصِف منزلها، ماتت وهي ساجدة تصلي، لماذا تركهم يقتلونها يا عمو ولم يمنعهم؟

الضحكة الزائفة والتظاهر بالتفاؤل قد يقنع البشر، لكن الأمراض الكامنة في الجسد تشتم رائحة اليأس مهما حاولت إخفاءها، الجدة تكذب على نور، تعرف بأن كل ما تقول له محض هراء، ملأها اليأس فبدأت في زيارة المستشفى. تقول لنا الجدة: أطباؤكم مكشرو الوجوه، ضيقو الصدور، يصرفون براشيم مثل الطباشير، لا فائدة منها سوى وجع المعدة. نعرض عليها أكثر من مرة أن نذهب بها إلى طبيب خاص، فلا توافق، امرأة أبيَّة ترفض أن تُثقِل كاهلنا، تتحجج بأن جسدها يحوي الأمراض منذ زمن، هي والمرض عِشرة قديمة كما تقول، تارة تهزمه وتارة ينتصر عليها، ربما أحس المرض أنها مكسورة الآن فهاجمها بضراوة، علَّة يحقق انتصارًا نهائيًا.

## (12)

ضريح أمير الجيوش هو ما يميز قريتنا، نتباهى بأن الأمير يرقد هنا، بالرغم من أنه بالقطع لم يختَر محطته الأخيرة، هزمه الموت فاستقر في قريتنا إلى الأبد. يقال بأن جميعنا أبناؤه، وُلِدنا من صلبه، لذا نُسمى بأبناء الأمير.

حكى لنا الأجداد أن الأمير كان يعشق زوجته، فبالرغم من عدم إتيانها له بالذرية لم يرضَ بأن يجرحها، الشرع حلل مثنى وثلاث ورباع لكنه رضي بواحدة واستكفى، العشق لا مخافة الظلم هو السبب.

زوجة الأمير حضرت معه كل غزواته، هو في الصفوف الأولى يُقاتِل بسيفه البتَّار، وهي في المؤخرة تداوي الجرحى، على مشارف قريتنا حلُّوا فبدأت المعركة، بعد أن انتصر الأمير نصَبَ خيمته، اكتمل القمر في السماء فأحست بالبشارة، قبل أن تشرق الشمس اغتالته الأيدي الخائنة، لكنه كان قد ترك في أحشائها شيئًا من صلبه. قالوا إنها لم ترحل، عندما أهال الجنود التراب على جثمانه أصرت على البقاء بجوار قبره، تركوها وحيدة وأكملوا المسير إلى العاصمة، ليحققوا لقائدهم أمنيته، أغوتهم العاصمة فنسوا زوجة القائد واستقروا.

عندما عطشت تفجَّر من تحتها ينبوع ماء عذب كالعسل، قرَصَها الجوع فأتت الطيور بطعام من خيرات الرحمن وألقته لها، فأكلت حتى شبعت. أدمت الشمس الحارقة جسدها فحضرت العصافير وألقت بالبذور، ودفعت الرياحُ السحبَ، فهطلت الأمطار في غير أوانها، فنبت الزرع ونمت الأشجار سريعًا –بإرادة الرحيم– لتُظللها، خرج الوليد من رحمها مُعافى بفضل الوهَّاب، فزقزقت عصافير السماء وكأنها تُزغرِّد، حضر الناس من كل حدبٍ وصوبٍ، فرأوا الصحراء وقد تحولت إلى روضة، آمنوا بكرامات أمير الجيوش واستقروا بجوار قبره واغترفوا من هباته.

كلما كان ممدوح البطل على وفاق مع الأخرق نعته بابن الأمير، وكلما تعاركا سماه ابن الزواني. في إحدى المرات سمع البطل بحكاية سيدي أمير الجيوش من أحد بلدياتي فضحك، قال: دي قصة هبلة، دول شوية غجر على حرامية لقوا مقام قاموا عاملين حواليه مولد عشان يسترزقوا، ولا فيه أمير ولا نيلة، ده كله أكل عيش. لم يُصرِّح البطل برأيه هذا مرة ثانية، صمت ثم اعتذر، بعدما لاحظ تقطيبة الوجه والشرر الذي يتطاير من أعين بلدياتي.

لا أدري لماذا يسبقون اسم أمير الجيوش بلقب الشهيد، ألأنه قُتِل غدرًا أم لاستقراره في قريتنا وفشله في الوصول إلى العاصمة! من يدخل العاصمة فاتحًا يُذكر اسمه بحروف من نور في كتب التاريخ، يتردد اسمه في الكتب المدرسية وفي الأغاني الوطنية، أما من

قُتِل قبل أن يصل فسيُنسَى، على أقصى تقدير سيقام له ضريح، ويأتي الريفيون لحضور مولده، نهايته ستكون الرقود إلى الأبد في قبر، تعتليه الغوازي والسحرة الفاشلون، وتُنصَب فوقه المراجيح.

أؤمن بأنها أساطير نسجها الأجداد للتباهي وإعلاء شأن قريتنا، لكني أحيانًا أشعر أن بعضًا مما يقال صحيح، عمي الذي رفض أن يتزوج بأخرى، وظل لسنوات منتظرًا أن تأتيه الهبة من الله وتنتفخ بطن زوجته بوليد، وفاء أم ليلى له رغم مرضه الطويل، ورفضها الرحيل إلى قريتها بعد وفاته لتظل بالقرب من قبره، الأخرق هو الآخر بجرأته وتمرُّده، يشعرني بأنه من نسل قائد مغوار. في أحيان أخرى أعتقد بصحة ما قاله ممدوح البطل، كلما تذكرت شلة الأخرق، وجرجس بائع البيرة، وفتاة التوكتوك، وممرض الوحدة الصحية، أوقن بأن كثيرًا من أبناء قريتنا من نسل زوانٍ بالفعل.

حامد زوج فتنة يُحيِّرني بطباعة، فهو يجمع بين سمات السماحة والوفاء والجدعنة، وطباع الغجر ولاعبي السيرك في الموالد. لأم ليلى كل الحق في أن تُلقِّبه بالأونطجي، فنسيبي جامع للنقائض، يصلي العشاء في مسجد سيدي أمير الجيوش، وبعدها يذهب إلى الغيط ليدخن الحشيش مع أصدقائه، يقول "أَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا"، ويبيع بضائعه بالتقسيط ويغالي في الفائدة، كلما استبعده الحزب من الترشح في انتخابات المحليات يقسم بأن السياسة نجاسة، وأن الحزب تفوح منه رائحة نتنة، لكن فور أن يستدعوه يلبي النداء

ويحشد الناس ويهتف بحياة الرئيس، طمعًا في منصب حزبي يتمناه منذ زمن. للأمانة حامد الأونطجي رجل طيب، لم يؤذِ أحدًا مطلقًا، مجامل على الدوام، لا يترك فرحًا أو معزى إلا ويحضره، أفعاله الحسنة مع عائلتنا جعلت أبي يعترف بخطأ رأيه السابق، فهو كان رافضًا لزواج حامد من فتنة، ولم يوافق إلا بعد أن أخبرته أم ليلى أن أختي لن ترضى بغيره، كلما كبرت تجارة الأونطجي زاد حبه لفتنة، فهي نائبه ومساعده ومستشاره.

انتهت الثورة وحُلَّ الحزب، فانتقل الأونطجي إلى حزب آخر، عيَّنوه أمينًا للحزب في القرية وعضوًا بأمانة المحافظة، فنسيبي عملة نادرة وخبراته في الحشد والهتاف لا تَخفَى على أحد، طبعًا بالإضافة إلى أمواله الكثيرة التي لم يبخل بها على الحزب الناشئ. يدور الحديث في قريتنا، بأن حامد تبرَّع للحزب بمائة ألف جنيه ليحصل على عضوية أمانة المحافظة. عندما سألتُ فتنة عن ذلك أكدت كذب تلك الادّعاءات، قالت إنهم يحقدون على زوجها، ويتمنون الانضمام إلى الحزب الناشئ، عرضوا دفع آلاف الجنيهات، لكن طلبهم قوبل بالرفض، لسوء سمعتهم.

– جوزي زى الجنيه الدهب يا كمال وأي حزب يتمناه.

قريتنا كما هي لم تتغير، فقط أُزِيحت صور الرئيس المخلوع من الشوارع، وحلَّ محلها صور للميدان المحتشد بأبناء العاصمة

المنتصرين. مقر الحزب أُحرَق، وأصبح الدور العلوي في عمارة حامد مقرًا للحزب الناشئ.

أمير الجيوش يأتيه الضيوف من كل مكان، أفرُع الإنارة تحيط بمسجده ودموع المريدين تروي مقامه، مولده أصبح مناسبة سياسية، بعد أن كان مقتصرًا في الماضي على حضور شيوخ الطرق الصوفية بأعلامهم الخضراء. الأحزاب الناشئة نصبت خيامًا حول المسجد، بداخلها تُوزَّع وجبات الفتَّة واللحمة، وخارجها تُعلَّق اللافتات التعريفية بها. عشرات الخيام تناثرت حول المقام وتنافست فيما بينها على إرضاء المريدين، وكلما كثُرَت اللحوم زادت الحشود.

في المولد عرفتُ الأحجام الحقيقية للأحزاب الجديدة، فالتليفزيون لا يُظهِر الحقيقة أبدًا، حجم الحزب وجماهيريته لا يقاس بزعيق وثرثرة قياداته في البرامج الحوارية، إنما بكمية العجول المنحورة. حزب حامد الأونطجي في الصدارة بلا منازع، فبالإضافة إلى الوجبات الدسمة، يوزع أيضًا كراتين الخير الممتلئة بالأرز والزيت والمكرونة والعدس والفول، كراتين مزينة بشعار الحزب، يقول الأونطجي إنها صدقة لوجه الله تعالى ومحبة في زوار سيدي الأمير. أعرف أنه كاذب وأن الأموال لا تُصرَف هباء، فبإطعام الفم تستحي العين، ورد الجميل سيكون في القريب العاجل، فأبناء قريتنا يعرفون الأصول، وبالتأكيد سينتخبون من نَحَر وتصدَّق.

فتنة بالرغم من انشغالها أتت للترحيب بنا، عمتي تقول إن أختي هي الأخرى أصبحت سياسية، أول ما دخلت إلى المنزل داعبتها أم ليلى قائلة: نورتي بيتك يا زعيمة. فتنة أصبحت عضوة في الحزب الناشئ، حامد أمين للحزب في القرية وهي أمينة للمرأة، تقضي أغلب يومها في الدعاية للحزب، لم تترك بيتًا في القرية إلا وطرقت بابه، تجتمع بالنساء وتشرح لهن أهداف الحزب وإستراتيجيته، عندما تستشعر مللهن تُنهِي الزيارة بعبارتين لم تخطئا قط في تحقيق مبتغاها: القرآن دستورنا، وإنتم فوق راسنا، نكسب الانتخابات وبعديها طلباتكم أوامر.

لم يتغير شيء في فتنة إلا خمارها الذي استطال قليلاً، شبر من القماش كان كافيًا، قالت أم ليلى مازحة: إيه الطرح الجديدة دي يا حاجة فتنة؟! فردت ضاحكة: الحشمة حلوة يا عمتي.

أبي حزين على خلع الرئيس، الصامت تكلم فأغضب فتنة، كلما تحدث عن استيائه من الإطاحة بالرجل الكبير وسجنه تغتاظ أختي وتثور، ترد بعنف "حسبنا الله ونعم الوكيل، راجل ظالم ومفتري، هو وابنه نهبوا خير البلد".

باستثناء غضب أبي من سجن رجل في أرذل العمر، فهو فرِح بنتائج الثورة، سعيد بتعييني في وظيفة حكومية، وأيضًا بزيادة راتبه بعد تطبيق الحد الأدنى للأجور، شاكر لله على قرار حل الوحدات المحلية، التي كان رجالها ينغِّصون حياته، يقول: كانوا كل شوية

يقرفوني ويقولوا البيت فيه بروز والبُنا مخالف، وميمشوش إلا بعد ما أطبق الميتين جنيه وأحطها في جيبهم، الحمد الله إنهم غاروا في داهية!

– أبوك شبه حسين فهمي.

تقولها ليلى فأضحك وأنا أتأمل أبي الذي لم أرِث وسامته، وجهه المشبع بالحمرة وشعره الرمادي اللامع، يمنحانه وسامة تخفي تقدمه في العمر، كثيرًا ما سألت نفسي لماذا لم يتزوج بعد وفاة أمي وظل عازبًا كل تلك السنين، تمازحني ليلى وتقول: هو أبوك مش هيتجوز أمي بقى؟ تكرر سؤالها فأشعر أن كلماتها ليست هزلاً وإنما أمنية، لا أعرف بماذا أرد، أقول لها أبي يرهب أمك ويخافها؟

"يا ليلى أبي كان مغرمًا بأمي ولن يتزوج بعدها بأي امرأة"، أقولها فتشيح بوجهها وترد باقتضاب: ما أنا عارفة.

هل كان أبي يعشق أمي؟ أظن أن حياتهما كانت رتيبة لكن بلا خلافات تُذكر، مشاحنة كل بضعة أيام بين أمي وأم ليلى هي كل ما أتذكره، أما بين أمي وأبي فلا أتذكر أي عراك جرى بينهما، لقاءاتهما لا تتجاوز الساعة يوميًا، تحضِّر له الإفطار قبل الذهاب إلى عمله وعندما يعود تُحضِّر له الغداء، بعدها يتركنا ويرحل إلى مسجد أمير الجيوش ليصلي العشاء، ثم تمتد سهرته في الغيط مع أصدقائه، يعود بعد أن نكون قد نمنا.

ربما كانا عاشقين وأنا لا أدري، فبكاؤه على فراقها كان صادمًا لي، لم أرَ دموعه تنهمر إلا في ذلك اليوم.

أجلس بجانب قبر أمي ودموعي تتساقط وكأن السنين لم تمر، أشعر بأنها ماتت بالأمس لا قبل سنوات، جئت لزيارتها طمعًا في الأمان، فعدت بقلبٍ واجل. المقابر بكآبتها ووحشتها تزيد الهم لا تُنقِصه. حكيت لأمي عن وحدتي، عن أناس المدينة المتعجرفين، أخبرتها بجدعنة أم ليلى وتربيتها الصارمة لنا، وصفت لها ملامح ليلى بعد أن كبرت. وأنا أودعها وأهم بالرحيل تذكرت ذلك اليوم المشؤوم، صريخي يوم ألقوها في الحفرة وأهالوا على جسدها التراب، أضحك بالرغم من دموعي التي لم تجف، وأنا أتذكر مقولتي الساذجة لأبي، قلت له يومها: لماذا نتركها وحدها؟ ما المانع أن نعيدها معنا إلى المنزل ونضعها في غرفتها لتكون وسطنا؟! أفكر لبعض الوقت فأنتهي بأن مقولة الطفل لم يجانبها الصواب، لماذا لم ندفنها في حجرتها لتكون وسطنا؟ لنزورها وقتما نشاء، لنؤنس وحدتها بدلاً من مكوثها وسط الأموات، كنا سننثر فوق قبرها البذور ونسقيها بانتظام، كنا سنجعل من قبرها روضة، ربما تحولت بعد سنين طوال إلى مقام، مثل ضريح سيدي أمير الجيوش.

## (13)

مربع أزرق ظهر فجأة وكأنه نبَتَ من عدم، احتلَّ مكانًا بارزًا على شاشات الكمبيوتر وأجهزة الهاتف المحمول، الجميع أدمن الولوج إليه، زملائي في المجمع يقضون أغلب نهارهم مُحدِّقين في شاشات الموبايل، أصابعهم طوال الوقت تتحرك، تضغط على الأيقونات المختلفة، ثم ينتظرون بشغف الإعجابات والتعليقات والمشاركات. لم أقع في غرام هذا الفيسبوك، فكرة الحصول على أصدقاء افتراضيين، والعيش في عالم خيالي لم تُغرِني. دخلت إلى ذلك العالم مُرغمًا، ليلى أصرت أن نتشارك لحظاتنا السعيدة عبر هذا الصندوق الأزرق، قالت: يا كمال إنت الوحيد في مصر اللي لسة معندوش فيسبوك. أنشأت حسابًا واشتركت لي في باقة إنترنت على جوالي.

أول ما أصل إلى المجمع أفتح التطبيق كما أوصتني ليلى، تبدأ الإشعارات بالظهور، ليلى تشاركك صورة، ليلى أرسلت لك رسالة نصية، ليلى أعجبت بكذا وكذا. اسم زوجتي يتردد في الفيسبوك وكأنه أنشئ خصوصًا من أجلها. بعد فترة أفهمتني عود القصب بأنها صديقتي الوحيدة في الموقع، قالت لي أضف أصدقاءك في العمل حتى لا تَمِل، بمجرد أن أخبرت بلدياتي بأنني أنشأت حسابًا انهالت عليَّ طلبات الصداقة.

الوحيد الذي لم يُعرِني اهتمامًا هو المخبر، قال لي: مليش في الصداع والدوشة بتوع الفيسبوك. صديقي يكذب فكثيرًا ما لمحته وهو ممسك بهاتفه، وأصابعه تتجول على الحروف لتكتب التعليقات، في إحدى المرات تسللت من خلفه لأضبطه مُتلبِّسًا، وضعت يدي على كتفه وقلت له "قفشتك"، تبدل لون وجهه ورد بغضب: اسكت وبطل هزار، ده شغل!

صديقي تغيَّرت طبيعة عمله، ترك كتابة التقارير وأصبح الآن يدوِّن التعليقات على الفيسبوك، مهمته الجديدة هي توجيه الرأي العام، هذا ما أخبرني به. كُلِّف بالدخول إلى صفحات بعض السياسيين ونشر التعليقات على منشوراتهم. تعليقات المخبر تتفاوت بين السلبي والإيجابي، أحيانًا تتضمن كلمات المديح، وفي أحيان أخرى تحتوي على أفظع الشتائم، المخبر يُنفِّذ التعليمات بحذافيرها، ينشر التعليقات المرسلة من الضابط المسؤول حتى دون أن يقرأها. أسبوعيًا يُنشئ عشرات الحسابات الوهمية على الفيسبوك، يرسل له الضابط صورًا لرجال وسيدات من مختلف الأعمار.

يقول صديقي: الظابط ده دماغ يا كمال، في الأول قلتله وإيه لازمة الصور، فرد وقالي الصور دي بتخلي الحساب حقيقي وفيه روح.

صدق الضابط، فقبل أن توضع الصور في الحسابات الوهمية كان التفاعل مع التعليقات ضعيفًا، مجرد رسالة يضعها المخبر ثم يخرج في صمت، أما الآن فالوضع تغير، بعد أن زُوِّدت الحسابات بالصور، أصبحت تعليقات المخبر تحصل على إعجابات أكثر من المنشور الأصلي، وكثُرَت رسائل الإعجاب والدعم.

المخبر يدوِّن اسم كل حساب وكلمة المرور في كشكول حتى لا ينسى، فالحسابات الوهمية بالمئات. داعبته قائلاً: لو الكراريس دي ضاعت هتتنفخ. رد في ثقة: كل شيء مدروس يا صديقي، فبمجرد أن ينشئ حسابًا جديدًا، يرسل بياناته على الفور في رسالة نصية إلى الضابط المسؤول.

من الواضح أن المخبر بات يحب عمله، في السابق كان يخجل من كتابة التقارير عن زملائه، فنظرات أعينهم طالما أشعرته بالخزي، أما الآن فلا أعين ترى ولا أذن تسمع، فالعمل الجديد لا يتطلب المواجهة كسابقه، مجرد عالم افتراضي وحسابات بأسماء وصور وهمية. حكى لي ضاحكًا، بأن امرأة فائقة الجمال ظلَّت تُلاحِقه بالإعجابات المؤيدة لتعليقاته، أتبعتها برسائل نصية تمتدح فيها وطنيته وفكره الواعي وموقفه السياسي السليم. دقَّ قلب صاحبنا وتحركت مشاعره، فبدأ هو الآخر في إرسال الرسائل النصية لها، في البدء أخبرها بإعجابه الشديد بمنشوراتها، ثم تطورت الرسائل بسرعة إلى أن صارحها الخائب بحبه، أجابته هي الأخرى بأنها واقعة في

غرامه حتى الثمالة، أحس يومها بالمشكلة العويصة التي وضع نفسه فيها، فصورة الشاب الوسيم المزيَّن بها الحساب الوهمي ليست صورته. قال في نفسه: بالتأكيد الصورة ليست هي السبب في إعجابها بي. فكَّر في أن يخبرها بالحقيقة، حدَّثه قلبه بأن حبها له لو كان حقيقيًا فستُسامحه، وتتغاضى عن موضوع الصورة المزيفة. قبل أن يصارحها ويرسل لها صورته الحقيقية أتت رسالة الضابط المسؤول، رسالة تحذيرية يخبره فيها بأن صاحب الحساب المزعوم رجل وليس امرأة، وهو عضو في تيار سياسي ويريد استقطابه للعمل في لجانهم الإلكترونية. بعد هذه الضربة الموجعة اقتنع صديقي بزيف هذا الصندوق الأزرق، وبات يكرهه.

عمل المخبر السري أتى سريعًا بثماره، توصيات مسؤولي الوزارة انهالت على مدراء المجمع بشأنه، بالطبع أنا لم أفشِ السر، فظن الجميع أن المخبر على صلة قرابة بمسؤول مهم بالدولة. انتشرت في المجمع إشاعات مفادها، أن المخبر ينتمي إلى الفرع الفقير من عائلة الوزير شخصيًا، من يومها وأي مكافأة تُصرَف لإدارة المجمع يُدرَج فيها اسم المخبر. مدير أمن المجمع أصبح يُدلِّله وأعفاه من القيام بأي أعمال، فتفرَّغ صديقي لعمله السري.

الأخرق ما زال يورِّطنا بمشكلاته، ممدوح البطل قال بأنه لم ولن يتدخل ثانية في حل أي مشكلة تخص ابن الزواني. والد الأخرق

اتصل بالكبراء ليساعدوه، ويؤدبوا ابنه الذي فشل في علاج اعوجاجه، أجابوه بأنهم حاولوا كثيرًا ويأسوا من إصلاحه.

الأخرق استقر نهائيًا في العاصمة، أجَّر شقة وقطن فيها بمفرده، اتصل بخطيبته في القرية وأخبرها أن الزواج قسمة ونصيب، تركها بلا سبب وقرر عدم العودة إلى قريتنا مرة أخرى. يخشى من ردة فعل والده، بعدما وضع العائلة كلها في موقف صعب أمام أهل عروسة. والده قال للكبراء عقَّلوه، فردوا: لقد انفلت عياره ولن يسمع لأحد منا.

كلَّفني البطل بأن أُحدِّثه وأحاول إقناعه بالعدول عن قراره الخائب، اتصلتُ به فأخبرني بعنوان سكنه الجديد بحي المطرية، تقابلنا على مقهى وظللنا لساعات نتحدث، لم يكن لمحاولاتي جدوى، فالأخرق على وشك الزواج من أخرى، يقول بأنه يعشقها، امرأة ناضجة طُلِّقَت حديثًا من زوجها، يقول بأن حبها له هو سبب انفصالها، رضيَت أن تترك زوجها وتتزوجه بالرغم من تعثُّر وضعه المادي.

– قالتلي هتجوزك ولو هتأكلني عيش حاف.

صديقي أحس بأنه دنجوان فغاب عقله، سيتزوج بمطلقة تكبره بخمس سنوات ولديها طفلان.

تركته وعدت أحكي للبطل، فضرب كفًا بكف. أخبر والد الأخرق بمحاولاتنا التي لم تنجح، لكنه لم يقترب من موضوع زواجه المزمع، يقول البطل: أنا لو قلت لأبوه ابنك ساب بنت خاله وهيتجوز واحدة مطلقة ومعاها عيال، هيموت فيها.

***

أصبحت ليلى تقضي أغلب نهارها مع الجدة في أروقة المستشفى الحكومي، تحاليل وأشعة كثيرة أجريت لها، وفي النهاية أخبرها الأطباء بأن قلبها عليل. الجدة تضحك وهي تحكي لي عما جرى في المستشفى: أسبوع كامل من البهدلة، وفي الأخير يقولون بأن عضلة قلبي متضخمة وشرايبني متصلبة! تسعل ثم تكمل حديثها: مرض مصابة به منذ زمن وأعيش على الأدوية، شرحت لهم أول ما وصلنا مرضي، فأرهقوني أسبوعًا ثم أعادوا عليَّ ما قلته لهم في البداية. قلت لها: معلش، التشخيص الصحيح مهم. ردت: أعطوني نفس الدواء ثم صرفوني.

الجدة مُتعَبَة والعلاج غير مجدٍ كالسابق، تداري يأسها بضحكة تقول بعدها: أظن أن نهايتي ستكون في بلادكم.

لا أعرف مبررًا لهلعي، ربما ذِكرها للموت هو السبب، أيكون خوفًا على نور من اليُتم؟ أخائف عليه من وحدة اختبرتها مرارًا؟ وِحدته ستكون أصعب، فهو في بلاد بعيدة عن وطنه. أعتقد أن انقباض قلبي كان خوفًا من فقدان الونس، العائلة الجديدة التي

صرت عضوًا فيها، البنيان الذي شُيِّد على أنقاض وحدتي، فجعل لحياتي معنى، الجدة والحفيد ليسا مجرد رفيقَي سكن وإنما عائلة. الجدة عمود خيمة هذا البناء، بفقدانِها قد ينهار كل شيء، ونعود أنا وليلى كما السابق، غرباء في مدينة المتعجرفين.

اتصلت بحامد الأونطجي أبتغي مساعدته، فحزبه صعد إلى سُدَّة الحكم بعدما اكتسح الانتخابات. نسيبي خدوم كما عهدته، عرض أن يحضر بنفسه ويأخذنا إلى أكبر أطباء العاصمة، رفضت بالطبع، فأرسل بتوصيته الممهورة بخاتم الحزب إلى المستشفى الكبير القريب من المدينة. الحزب له رجال في كل موقع بالعاصمة، أعضاؤه ومؤيدوه موجودون في كل المصالح والهيئات الحكومية، هذا ما عرفته بعد أن تجاوزنا الطوابير والإجراءات البيروقراطية، فُتِحَت لنا الأبواب الخلفية للدخول، سهَّل لنا رجالات الحزب كل شيء، تحاليل وأشعة بالمجان، فحوصات قام بها نخبة من أكفأ الأطباء على الجدة، مدير المستشفى بنفسه هو من أخبرنا بالنتيجة، حالة شرايين القلب سيئة للغاية، ولا نفع للعلاج الدوائي، انتهى الأطباء إلى وجوب إجراء جراحة عاجلة. الجدة رفضت بشدة، لا أعلم أبسبب الخوف أم للتكلفة الباهظة للعملية، الأطباء طمأنوها بأن عمليات القلب أصبحت سهلة وليست كالسابق. ليلى قالت: إن الطب تقدم بطريقة مذهلة، هو أسبوع واحد في المستشفى بعدها هتجري زي الحصان. حامد الأونطجي أوصى زملاءه في الحزب العاملين

بوزارة الصحة فقاموا بالواجب، صحبوني خلفهم وظللنا نمر على المكاتب ونوقع العشرات من الأوراق، وفي النهاية أعطوني خطاب الموافقة. العملية بجميع مشتملاتها بالمجان، ستُجرَى على نفقة الدولة. لا أعلم كيف فعلوا ذلك ولا أريد أن أفهم، ما يهمني فقط هو أن المشكلة حلت.

ظللنا نُلِحُّ على الجدة حتى وافقت في الأخير، أخرجناها من المستشفى وعدنا إلى المنزل، شهر ستقضيه وسطنا وبعدها ستعود لإجراء الجراحة، في الحقيقة أصدقاء حامد لم يُقصِّروا في شيء، أزالوا اسم الجدة من كشوف الانتظار الطويلة ووضعوه في مقدمة الكشف، هي من أصرت على التأجيل، قالت: شهر بس أشِّم نَفَسِي وبعديها نتوكل على الله. لم نمانع رغم علمنا بأنها حجة لا أكثر للمماطلة. قالت ليلى: لو عصلجت هقعد أنا ونور نعيطلها لحد أما توافق.

لا أعرف لماذا تُذكِّرني جدة نور بأمي، بالتحديد في أيامها الأخيرة، نفس نظرة الرضا، ذات الكلمات التي كانت تبتهل بها أمي إلى الله ليحفظ عائلتها تكررها الجدة، الملامح مختلفة والعمر أيضًا، لكن شحوب الوجه وصفرته ذاتهما، أصرت الجدة بأن لا تخبر العائلة في سوريا عن مرضها، قالت لليلى: إذا خرجت من غرفة العمليات سالمة، دعي نور يخبر والده بالأمر وإذا م... قاطعتها ليلى: هتقومي بالسلامة إن شاء الله.

"العاصمة مكان مقبض وأبناؤها سيئو الطباع، ردود فعلهم لا يمكن توقعها أبدًا"، هذا ما قُلته لنور مُفسِّرًا ما حدث.

أول ما حضر السوريون إلى المدينة، وبدؤوا في العمل بمتاجرها، أقسم الجميع بأمانتهم وإخلاصهم، مع مرور الأيام توسَّع نشاطهم، وتحولوا من مستخدمين إلى أصحاب أعمال، "سوق المدينة أصبح نسخة مُصغَّرة من سوق حلب" هذا ما قالته لي الجدة بفخر. السوريون افتتحوا الكثير من المِحال بعد نجاحاتهم المتوالية، "اجتهادهم وحلاوة لسانهم" كما تقول ليلى، جعلاهم يسيطرون على أغلب النشاطات التجارية بالمدينة. بدؤوا بمحال الحلوى وبعدها المشويات ثم البقالة والخضر والفاكهة، وأخيرًا محال الفول والفلافل، السوريون فازوا على أبناء العاصمة باكتساح، محالهم تعج بالزبائن وأبناء العاصمة متفرِّغون لتجرُّع كؤوس الهزيمة المرَّة.

مهما أطلت المكوث بالعاصمة تظل أفعال أبنائها عصيَّة الفهم، توقعت أن يعتبروا خسارتهم أمام السوريين مجرد جولة وانقضت ويبدؤون بعدها في الاستعداد لجولة أخرى، اعتقدت بأنهم سيدرسون أسباب نجاح الأغراب ويفعلون مثلهم. للأسف ما توقعته كان خاطئًا كالعادة، مزاجهم العكر قادهم إلى افتعال المشكلات مع السوريين.

البداية كانت مشكلة بسيطة تتعلق بوضع صاحب بيت المشويات السورية ثلاث ترايزات أمام محله، اعترض أصحاب المحال

المجاورة من أبناء العاصمة على ذلك بحجة إشغال الطريق، ظن السوري أن حلو الكلام سيجدي نفعًا، لكنه للأسف زاد من عصبية أبناء العاصمة. دقائق وتحول النقاش إلى معركة انتهت بتحطيم أغلب محال السوريين.

قال لي نور بعدما خسر عمله: لماذا يكرهوننا يا عمو؟! ماذا فعلنا ليضربونا؟! أنا لم أضايق أحدًا منهم، بالعكس، كلما أتى أحدهم إلى مطعمنا كنت أوصي البائع بأن يُعِد له أفضل السندوتشات، أقول له هذا جارنا في المحل المقابل، والنبي أوصانا على جيراننا. من ألقى بالحجر على واجهة المطعم أعرفه، أحفظ ملامحه، فطالما أوصلت له السندوتشات حتى باب متجره، كان يربت على كتفي ويقول لي شكرًا يا ابني، يعتبرني مثل ابنه ويتسبب في جرح معصمي! كيف يا عمو؟! البوليس لم يقبض على الأشرار، تركهم في سلام بعد أن قطعوا عيشي.

أضمد ذراع نور المصابة، لكني لا أستطيع أن أوقف دموعه التي تجري، أقول له: لا تقلق يا نور، المحل سيفتح من جديد وستعود لعملك.

يرد: سيكسروه على رؤوسنا في المرة القادمة، هم أشرار يا عمو يستغلون أننا أغراب.

لا أعرف بماذا أرد، فأنا غريب مثله، تحاول الجدة أن تُهدِّئ من روعه، تقول له: أبوك سيرسل لنا أموالاً تكفينا فلا تحزن، كلها

شهور وستنصلح الحال في سوريا، سنعود إلى وطننا في القريب يا نور. يصيح الولد: الأشرار يطاردوننا في كل مكان، هنا وفي سوريا، قلتِ لي كثيرًا سنعود ولم نعد.

ينظر إليَّ ويسألني: هل الأشرار أقوى من الله؟ أرد بتلقائية: بالطبع لا يا نور.

– فلماذا يدعهم يؤذوننا يا عمو؟ لماذا لا يُخلِّصنا منهم؟

## (14)

طوال عمري أهوى مشاهدة اللافتات وقراءة ما دوِّن عليها من كلمات، شغف بدأ منذ الصغر واستمر، أتذكر أيام كانت قريتنا تعج بلافتات المرشحين لانتخابات البرلمان، دائمًا ما كان عنقي يؤلمني من كثرة نظري إلى أعلى لأشاهدها، قماشها أبيض من البفتة كقماش الكفن، وكلماتها مكتوبة بحبر أحمر قانٍ كالدماء. تكثُر فتحجُب الضوء وتجعل صيفنا خريفًا، بعد أن تنتهي الانتخابات تختفي اللافتات، فتسطع الشمس من جديد وتنير قريتنا. يقال إن اللافتات يُعَاد تدويرها في مصنع صغير في البلدة المجاورة، يزيلو ن الحبر من عليها، ويصنعون بقماشها الرديء ملابس داخلية رخيصة السعر. عرفت ذلك أيام المدينة الجامعية. تعارَك زميلان، فقال أحدهما للآخر: يا فلاح يا معفن يا أبو لباس بفتة من بتوع اليفط.

تظهر اللافتات أيضًا في المناسبات الدينية والقومية. "فلان الفلاني يهنئ السيد المحافظ وأبناء المحافظة بعيد الفطر المبارك"، "نائب الشعب يهنئ الرئيس بذكرى انتصار أكتوبر المجيد".

أعلام شيوخ الطرق الصوفية مختلفة كلية عن لافتات السياسيين، قماشها مصبوغ باللون الأخضر الزاهي وكلماتها ناصعة البياض، تُصنَع من قماش سميك كأقمشة الخيام، دورها فقط

التعريف بهم، يضعونها على رأس خيمتهم لتُدِل المريدين على موقعهم.

بعدما كبرت تطورت صناعة اللافتات، استُبدِل قماش البفتة بالبلاستك المرن، بلاستيك الزجاجات الفارغة والشنط، يأتون به من صناديق القمامة ويعيدون تدويره لينتجوا البانرات الدعائية اللامعة. ميزة اللافتات الحديثة هي احتواؤها على الصور، للمرة الأولى أرى وجوه أعضاء البرلمان، لم أرهم عن قرب من قبل، فحضورهم شحيح، يأتون في موكب قبل الانتخابات، يتدافع عليهم أبناء قريتنا أملاً في تحقيق مصلحة أو رد مظلمة، فتختفي ملامحهم وسط الزحام.

بعد الثورة ظهرت لافتات تحوي صورًا للميادين المكتظَّة بالبشر رافعي الأعلام، وأخرى تتضمن صورًا للشهداء، سريعًا ما انطوت وحل محلها صور السياسيين مرة أخرى.

ما أستغربه الآن هو حروب اللافتات، فجأة تمتلئ الشوارع بصور للرئيس الملتحي، تظهر بلا سبب وتختفي أيضًا بلا سبب، لتحل محلها صور للجنرال ببذلته الكاكي ونظارته الشمسية السوداء، تُمزَّق هي الأخرى بعد فترة وتستمر المعركة. يقال إن فريقين في العاصمة يتصارعان.

الأخرق يجزم بأن الاضطرابات سوف تسود العاصمة عما قريب، يقول بأن الأكثرية من أبناء العاصمة يمقتون حزب

الأونطجي ولا يرضون باستمراره في الحكم. الحزب الذي اكتسح الانتخابات سيتلقَّى قريبًا ضربة قاسمة.

يُخبرني بأن ذلك هو السبب في تبكير ميعاد زواجه. صديقي الأخرق أصر أن نزوره أنا والمخبر في شقته ليرينا عش الزوجية بعد أن أسَّسَه. ظاهر الدعوة كان عزومة غداء وسهرة على المقهى نسترجع فيها الذكريات، أما باطنها فهو محاولة إقناعنا لنكون شهودًا على عقد القران، فالجميع تخلَّى عن الأخرق، أبوه وأمه قاطعاه، بعد أن أخبرهما فاعل خير بأن ولدهما سيتزوج بمطلقة لديها طفلان، جميع بلدياتي رفضوا أن يحضروا العرس، قالوا له يكفيك أبناء العاصمة، فهُم من أتوا لك بالعروس. الأخرق ألحَّ في طلبه فوافقنا، المخبر هو من أقنعني بالموافقة بعد أن قال ليس له الآن أحد غيرنا فوجب ألا نخذله.

صديقي متشوِّق للعُرس وللحبيبة وللاستقرار النهائي بالعاصمة. خفت أن أصدمه وأخبره أن حلم التأقلم صعب المنال، فأنا أكثر من حاول وفشل، قلت في نفسي من الممكن أن يكون وضع صديقي أفضل، فزوجته ابنة للعاصمة، عكس ليلى. بعدما وافقنا تنفَّس الأخرق الصعداء وتحوَّلت الجلسة إلى وصلة سُباب منه في الكبراء، وخصوصًا ممدوح البطل. مللت من كلامه المكرر وانتقاداته التي أحفظها عن ظهر قلب، فغيَّرتُ مجرى الحديث، سألت المخبر عن الاضطرابات التي يتوقَّع الأخرق حدوثها في العاصمة، فرد بأنها

ليست اضطرابات بل ثورة بشائرها بدأت في الظهور، قال إن الشعب يريد رئيسًا قويًا وليس أراجوزًا تُحرِّكه عصابة تدير البلاد لصالحها. أكد أن الثورة قادمة حتمًا لا محالة، وليست في القاهرة فقط، بل في جميع المحافظات، أضاف ضاحكًا: وقد أكون من قادتها.

المخبر من كثرة استخدامه للفيسبوك احترف السياسة، بعد أن تركنا الأخرق أخبرني بالحكاية، في البداية كان لا يفقه شيئًا، فقط يضع التعليق المرسل من الضابط المسؤول ويغادر بعدها في صمت، بعد فترة بدأ يقرأ المقالات والتعليقات، أستأذن الضابط في أن يرد على التعليقات التي تهاجم تعليقه، وافق الضابط، لكن حذره بأن ما سيكتبه لو خرج عن الإطار العام المرسوم، فالعواقب ستكون وخيمة. جميع المساجلات التي تمت بين المخبر ومعارضيه انتهت بفوزه الكاسح. انتظر تهنئة الضابط، لكنها لم تأتِ، فالضابط أحيل إلى المعاش، ربما خرج عن الإطار العام المرسوم فنال عقابه. انتهت مهمة المخبر رسميًا، لكن العمل تحوَّل إلى شغف، تحرر المخبر من القواعد وأنشأ صفحة على الفيسبوك، تتضمن صورته واسمه الحقيقي، وأخذ في كتابة المنشورات، يقول لي بفخر عدد متابعي صفحتي أصبح بالآلاف.

أبناء العاصمة يقولون بأن الكثرة تغلب الشجاعة، أما بلدياتي فيقسمون بأن الخِسَّة والوضاعة لن تنتصر أبدًا، أول ما وصلت إلى

المجمع أخبروني بما حدث، الضخم نُقِل إلى المستشفى بعد أن تكسرت ضلوعه، أبناء القاهرة أبرحوه ضربًا، الجبناء لم يقتربوا منه وهو وسط بلدياته، اصطادوه قبل أن يسافر إلى قريته، انتظروه في موقف الميكروباص، وعندما أتى أحاطوه من كل جانب، أقاموا دائرة من حوله وأوسعوه ضربًا بأحزمة بناطيلهم. انتهوا من فعلتهم الغادرة وجروا كما الجبناء، تركوه وحيدًا ينزف الدماء. بعدما أفاق اتصل ببلدياتي لنجدته، أوصلوه إلى المستشفى ليُعَالَج لكنهم فشلوا في إثبات التهمة على الجناة.

"محضر فشنك ولا له لازمة"، هكذا قال البطل تعليقًا على إمكانية القبض على أبناء العاصمة الأنذال، ما دام ليس هناك شهود والجناة هربوا من موقع الحادثة فلا عقاب، قلت في سري مثلما يقول نور دائمًا: لماذا لا تُخلِّصنا من الأشرار يا الله؟

البداية كانت مشاجرة عادية بين الضخم وأحد زملائنا القاهريين بالمجمع، بسبب حساب مشترواته من كانتين اليتامى. حدث عادي تكرر عشرات المرات مع أغلب بلدياتي في بداية عملهم بالمجمع، زعيق وتلاسن، يعقبهما لكمة من الضخم، وبعدها يحل الكبراء الموضوع. للأسف أبناء العاصمة ليسوا مثلنا، لا ينسون أبدًا، يخططون في السر للرد، وفي النهاية يُنفِّذون فعلتهم بخِسَّة، ردوا على لكمة الضخم بعشرات الضربات الموجعة. مَن

ضَرَبَه ليس فردًا وإنما مجموعة تتجاوز العشرة، لذا كان من الصعب الرد، لو بادلنا عنفهم بعنف سيتحول المجمع إلى ساحة حرب.

انتظر الجميع أن يخرج علينا الكبراء بحل يريح قلوبنا الوجلة. كثرت اجتماعاتهم لكن بلا طائل، المخبر كُلِّف من الإدارة بكتابة تقرير عن الحادثة بعدما تواترت الأنباء بأن هناك مشكلة في المجمع. ذهب إلى اجتماع الكبراء، وأخبرهم بأنه لم يكتب تقريرًا بما حدث، كل ما سيدوِّنه أن الضخم وهو في طريق عودته للقرية تعرَّض للسرقة، وعندما قاوم اللصوص تعدُّوا عليه. المخبر قال بأنه لولا صيانته للعيش والملح لكان آذى الجميع بتقريره، لو ذكر الحقيقة وعرف المديرون بالوزارة موضوع كانتين اليتامى الموجود بالمجمع، لرُفِد الضخم.

– يا جماعة إحنا كلنا لسة بعقود مؤقتة ومتثبِّتناش في الحكومة، فممكن أي حد يتفصل بسهولة.

النتيجة النهائية للاجتماعات كانت مُخزية، أُغلِق كانتين اليتامى إلى الأبد، واعتذر القاهريون اعتذارًا صوريًا لنا. قال أبناء العاصمة، إن العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم، وبعدها انصرفوا، ليتركونا نحترق بحسرتنا. الكبراء في وضع سيئ، انكسرت شوكتهم كما قال الأخرق، ظهر ضعفهم في العلن للمرة الأولى، بان ذلك في رؤوسهم المنكَّسة واحتداد بلدياتي عليهم للمرة الأولى.

أشفقتُ على الكبراء، أنا الذي كَرِه تسلطهم وديكتاتوريتهم تعاطفت، طوال إقامتي في المجمع لم أرَ منهم إلا الخير، أعترض وأحيانًا أنقم عليهم، لكن في الأخير أكره أن يكسرهم القاهريون بهذه الصورة، فالمعركة كانت غير شريفة بالمرة. أظن أن الأخرق سعد بما حدث للكبراء، ظهر ذلك جليًا عندما حدَّثهم المخبر، كان يقف خلفه ويُصدِّق على كل كلمة تُقال، وكأنه يريد ألا تُحَل الأزمة، يكره أن ينتصر الكبراء، الغبي يعتقد أن الهزيمة ستكون للكبراء، لكنها لنا جميعًا. اشتياقه إلى رؤية نظرة الانكسار في أعينهم أعماه، كوطني أصبح خائنًا فقط ليهزم غريمه السياسي، الخسارة للجميع لا محالة وأنا واحد منهم.

## (15)

"الغريب أعمى ولو كان بصيرًا"، مثل سمعته مرارًا ولم أدرك معناه إلا في ذلك اليوم.

صوت جرس الباب طغى على صوت المؤذن لصلاة الفجر، فأيقظنا. للمرة الأولى يطرق أحد بابنا في تلك الساعة المتأخرة؛ نهضنا مفزوعين، لم توافق ليلى أن أفتح الباب، إلا بعد النظر في العين السحرية أولاً، تأكدت بأن الطارق هو ساكن الدور الأول، ففتحت الباب متوجسًا. جاري شاحب الوجه تخرج الكلمات من فمه بصعوبة، لم أفهم أغلب ما نطق به لسانه بسبب تلعثمه، من الواضح أن هناك مصيبة بالأسفل، ويريدني أن أهبط معه لأراها. لم يُعطِني فرصة لأُفكِّر، قبض على يدي وأصر أن أصحبه، أخبرت ليلى بأن تغلق بابنا بالمفتاح تحسُّبًا لأي طارئ، ثم هبطتُ معه.

تجاوزنا شقته بالدور الأول واستمرين في النزول حتى وصلنا قرب مدخل العمارة، فوجئت برؤية جدة نور، جالسة على درجة السلم الأخيرة وساندة بظهرها على الحائط، هامدة بلا حراك، الصفرة تركت وجهها إلى الأبد وحل محلها زرقة، عيناها مفتوحتان عن آخرهما ورأسها مُنكَّس ولعابها يبلل عباءتها. قال جاري ربما كانت تحاول أن تستغيث بأحد من الجيران لينجدها، لسانها لم يطاوعها، فقضاء الله نافذ لا يمكن تأخيره.

خرجت الروح وصعدت إلى بارئها وقت صلاة الفجر. ماتت الجدة وحيدة في مدخل العمارة. ربما لو كان أحد السكان موجودًا وقتها، لأوصلها إلى المستشفى وأنقذها. أخبرني نور أنها ارتدت عباءتها الجديدة على غير العادة، جهَّزت له الإفطار وقبَّلته قبل أن يغادر إلى عمله بالمطعم. كانت تنتوي أن تُصلِّي الفجر في المسجد، لكن الأمر الإلهي أتى قبل أن تخرج من باب العمارة، فغادرت الروح جسدها.

حملناها أنا وجاري وصعدنا، باب شقتها مغلق، نور في عمله ولا أحد منا يمتلك الجرأة ليُدخِل يده في جيب عباءتها ويُخرِج المفتاح، ليلى تنادي فنصعد إلى أعلى، تشير إلينا بأن نُدخِل جثمان الجدة إلى الشقة، فنفعل، تنتهي الرحلة وتستقر جدة نور على سريري، الجار يتلعثم مرة أخرى، يعلل ويفسر، وفي الأخير يرحل بحجة ضرورة الذهاب إلى عمله، يتركنا وحيدين مع جدة نور، يصاحبنا الجزع والدموع وقلة الحيلة.

لم أعرف ماذا أفعل حينها، أنا الغريب من المفترض أن أتصرف؟!

ليلى بادرت بالاتصال بأمها لتسألها عن كيفية التصرف، أنهت المكالمة ثم قالت: غمِّض عينيها يا كمال. أنظر إلى زوجتي فتشير بيدها إلى عينَي الجدة، يدي المرتعشة لا تقوى على الفعل، كلما

حاولتُ خذلتني، قدماي هي الأخرى ترتعش ولا تقوى على حمل ثِقَل جسدي. ظلَّت ليلى تكرر طلبها حتى قمت بالمهمة.

نفَّذت ليلى تعليمات أمها، فرَدَتْ يدَي الجدة عن آخرهما وكذلك قدميها، ضممت القدمين وربطتهما بقطعة قماش، ناولتني حزام روبها الذي ترتديه وقالت "اربط"، أنظر إلى زوجتي التي تقبض على رأس الجدة وأشفق عليها، تعيد على مسامعي كلماتها "اربط يا كمال"، إحدى يديها أسفل ذقن الجدة والأخرى تعتلي قمة رأسها. "لازم نربطه يا كمال عشان لسانها ميطلعش لبرة"، قلبي ينبض بعنف ودموعي تنسال بغزارة، أضع الحزام أسفل ذقن الجدة وأسحبه إلى أعلى لأطوِّق به رأسها، "اربط جامد يا كمال"، أنهي مهمتي وأنهار، أرتمي بجسدي على الكرسي ويستمر بكائي. تُغطِّي ليلى جثمان الجدة ثم تُحدِّثني بصيغة الأمر: "روح الجامع وهما هيتصرفوا، أمي قالت كده".

"لو اللي مات راجل الموضوع كان هيبقى أسهل"، قالها إمام المسجد فلم أفهم، أعطاني كفنًا وورقة مدونًا عليها بضعة أرقام هواتف ومضى، أخبرني بأن حظي جيد، فلو تأخرت دقيقة لكان قد رحل، المسجد يجب أن يُغلَق بعد صلاة الفجر مباشرة، فتعليمات الوزارة صارمة في هذا الشأن.

عدت إلى ليلى، فرأيت دموعها وقد سالت من جديد، مددت يدي لأجففها فرَدَّتها بعنف.

– مفيش حاجة يا كمال، أنا كويسة، المهم اتصرفت؟

أعطيتها الكفن والورقة وغادرت. لا أعرف لماذا تركت زوجتي وحدها وذهبت لأُحضِر نور من عمله؟ لماذا أحضرته؟ ما جدوى أن يرى طفل صغير هذا المشهد المخيف؟

عندما وصلنا أنا ونور إلى المنزل، كانت ليلى قد اتصلت بأصحاب أرقام التليفونات المسجَّلة على الورقة، فحضروا، أتت السيدتان أولاً، وبعدها بساعة جاءت العربة. الغرفة مغلقة، زوجتي والسيدتان بالداخل مع الجدة، يقمن بما لا بد من فعله. نور يبكي ويُصر أن يدخل إلى الغرفة ليرى جدته وأنا أمنعه، كلما فتح الباب وخرجت ليلى لإحضار الماء الساخن من المطبخ يصرخ، يحاول أن يتملَّص من ذراعي القابضة على خصره، أحتضنه لأواسيه، فأزيد من عصبيته.

لا أعرف أهو الذي تملَّص من بين يدي، أم أنا الذي تهاونت لأدعه يلقي النظرة الأخيرة على جدته. انطلق إلى الغرفة وحاول بإصرار أن يوقظها، يصرخ فيها "اصحي يا جدتي"، يبكي بحرقة لعدم استجابتها لكلماته، يستلقي بجانبها، يحتضنها بقوة ويأبى أن يفارقها، تزيحه ليلى فيعاود ثانية، تعنفه وتسحبه بالقوة إلى خارج الغرفة، يترك المنزل فلا أمنعه، يعود بعد دقائق ومعه ثلاثة من أبناء وطنه.

أخبرني سائق العربة بضرورة الحصول على تصريح للدفن، قال بأنه لا يمكنه التحرك بالجثمان إلا وفي يده التصريح. أخذت معي السوريين الثلاثة إلى مكتب الصحة. الموظف المسؤول عن استخراج التصاريح أثنى على موقفي وقال: بالفعل معدن الإنسان المصري من ذهب. بعدها أخبرني بالإجراءات الواجب اتباعها قبل إصدار التصريح: "لازم جواز سفر المرحومة، وكمان لازم اللي يبلغ عن الوفاة يكون من عيلتها، لازم الدكتور يكشف عليها، ويتأكد أن الوفاة طبيعية، وللأسف الدكتور مش جاي دلوقتي". دموعي لم تحل المشكلة، فتقمصت شخصية ممدوح البطل، أخرجت من جيبي ورقة مالية من فئة مائة جنيه، ووضعتها في درج الموظف، بعد دقائق غادرنا مكتب الصحة وفي يدي التصريح.

عندما حملت السيدتان الجثمان، وخرجتا به من غرفتنا انهارت ليلى، أنهت مهمتها ثم أطلقت لمشاعرها العنان، نهنهة فبكاء ثم عويل وصراخ ولطم على الخدود، احتضنها نور ليواسيها، فزاد من لوعتها. صممت ليلى أن تأتي معنا إلى المقابر، شاركت السيدتان في حمل جثمان الجدة ووضعنه في النعش، ثم انطلقنا إلى مقابر الصدقة.

سور عالٍ يحيطها من كل اتجاه ليفصلها عن العمران، جدار عازل أنشئ ليفصل بين الأحياء والأموات، بوابة حديدية صدئة عبرنا منها إلى الداخل، لنُفاجأ بمتاهة. آلاف اللحود ومئات

التقاطعات الطولية والعرضية، فوق كل لحد لوحة رخامية صغيرة مدون عليها بخط دقيق رقمه، بعد أن دسست ورقة مالية في جيب حارس المقبرة طمأنني بأنه لا داعي للقلق، هناك سِجل للمقبرة يدوَّن به كل شيء، رقم اللحد واسم الُمتوفَّ وتاريخ الوفاة. ليس بالضرورة أن تحفظ رقم اللحد، فكل شيء موجود في السجلات. أول شيء خطر في بالي ساعتها، أننا بمجرد أن نغادر المقبرة سيأتي طلبة كلية الطب ويستلموا الجثة، أتخيل فصالهم مع حارس المقبرة المغالي في سعر الجثمان، أتخيله يقول لهم وهو ينبش القبر، جثة طازة عاينوا البضاعة واحكموا أنتم.

كثيرًا ما سمعت عن السمعة السيئة لمقابر الصدقة، فهي مُخصصة للموتى مقطوعي الشجرة، ناس بلا أهل تُباع جثثهم بأريحية، فلن يسأل عنهم أحد. قلت لأُهدِّئ من روعي: ما حدث قد حدث، وما باليد حيلة.

الحارس ساعد ليلى والسيدتين في وضع الجثمان في اللحد. نور يصرخ بأعلى صوته كلما أهال التُّرَبي الرِّمال فوق الجثمان، يحاول أن يمنعهم فنمسك به، أقول له: لا تحزن يا نور؛ جدتك الآن في مكان أفضل. يرد: لا تكذب يا عمو، جدتي تحت التراب في مكان موحش.

– جدتك عند الله يا نور.

– جدتي تحت التراب مع الأموات.

أقول له كي أُهدِّئ من روعه: الجدة ارتاحت من آلام المرض.

فيرد: كانت ستُجرِي الجراحة وتُشفَى. لماذا ماتت قبل أن تجريها؟

– إرادة الله يا نور.

– لماذا أماتها يا عمو وجعلني وحيدًا؟

تمسك ليلى بيده وتجذبها لنرحل، فيثبت قدميه في الرمال، يقول: لن أرحل وأتركها وحدها.

تُحدِّثه ليلى بعصبية وهي تبكي: جدتك ماتت يا نور، والأموات يسكنون القبور.

يرد بصوت متهدج: لماذا نتركها هنا؟ أريد أن أعيدها إلى منزلنا، جدتي طيبة، حرام أن نتركها وحدها، نعيدها إلى غرفتها يا عمو، لتكون بجانبنا دائمًا.

أبكي وأحتضنه فتدفعنا ليلى دفعًا إلى الخارج. أجلس بجانب نور النائم بعد أن أنهَكَه البكاء، أقول في نفسي: لماذا تركناها وحدها؟!

لماذا لم نُعِدها إلى المنزل لتكون وسطنا؟

لماذا يا أبي؟!

## (16)

مكالمات ما قبل شروق الشمس تقبض قلبي، أكرهها، فهي دائمًا ما ترتبط بفقدان عزيز. رن الهاتف فنهضنا مفزوعين، ليلى هي من أخذت بزمام المبادرة وأمسكت بهذا الملعون الذي يصرخ، نظرت إلى شاشته فزال قلقها، رمته لي وارتمت على السرير ثانية: زميلك في الشغل. رديت على بلدياتي فرجاني أن أحضر في الحال، فالمشكلة عويصة وأنا من في يدي حلها.

ابن ممدوح البطل حضر إلى العاصمة، يقيم مع أبيه في شقة المنايفة منذ أسبوع أو أكثر قليلاً، الأخرق هو من أخبرني بمجيئه، قال لي ساعتها وهو غاضب: صاحبك حاسبها لوكاندة أمه، جايب ابنه يقعد معاه في السكن، ما هي ميغة!

أعرف أن الأخرق لم ينسَ إهانات البطل المتكررة له، متأكد من أنه يكرهه ويتمنَّى إيذاءه، لكن الاعتراض لمجرد الاعتراض أمر لا أستسيغه، لذا رديت على الأخرق بحِدَّة، قلت له إن الأمر عادي وتكرر كثيرًا، أغلب بلدياتنا استضافوا أقاربهم، أخبرته أنها أعراف نلتزم بها جميعًا، عندما يأتي أحد أقاربنا إلى العاصمة لقضاء مصلحة يجب أن نفتح له بابنا، يأتي ويأكل وينام ولا نسأله أبدًا متى يغادر.

– يا حمار! أكيد الواد عنده مصلحة في مصر وجاي يقضيها، هينام في الشارع يعني؟! إيه المشكلة لما يقعد مع أبوه يومين في السكن؟!

اتضح لي أن أعراف الريفيين لا تتفق مع لوائح العمل الحكومي مطلقًا، أول ما وصلت قال لي المخبر: يا كمال دي مش لوكاندة، دي استراحة مخصصة للموظفين وبس. رده الصارم المقتضب أفحمني، فزملائي قد أتوا بي لأحل الموضوع، قالوا: هذا صديقك فتصرف معه.

الحكاية باختصار أن ابن ممدوح البطل هبط من السكن وتوجَّه إلى مسجد المجمع لأداء فرض الله، قابله مجموعة من رجال أمن المجمع، فألقى عليهم السلام كعادته، فجميعهم يعرفوه، منذ أن أتى يقابلهم يوميًا في نفس التوقيت، يلقي عليهم السلام، وبعدها يتحركون جميعًا إلى المسجد لصلاة الفجر، لم يردوا السلام هذه المرة وإنما استوقفوه، سألوه عن اسمه فاستغرب، سألوه عن ما إذا كان يعمل بالمجمع أم لا فضحك، قال لهم: إيه يا رجالة! أنا ابن عم ممدوح البطل، لحقتوا تنسوني؟ ! بعدها اصطحب رجال الأمن الشاب الذاهل إلى أسفل عمارة المنايفة، أوقفوه في الفناء وحاصروه في دائرة لمنعه من الهروب، صعد أحدهم إلى عمارة المنايفة وطرق أبواب أغلب الشقق، بحجة السؤال عن ممدوح البطل. بالتأكيد هو يعرف أن البطل يقطن في الطابق الأخير، لكنه أراد إيقاظ جميع

سكان العمارة كما المخطط. البطل هبط درجات السلم ركضًا، وهو يتوعَّد ولاد الكلب خائني العيش والملح، يوزع سبابه ولعناته على جميع أفراد الأمن اسمًا اسمًا، أول ما وصل إلى الفناء ورأى الدائرة المنصوبة حول ابنه اهتاج، ظل يردد الشتائم وهو يحاول أن يُخلِّصه منهم. بدلاً من أن يفك صراحه، وقع هو الآخر في المصيدة، رجال الأمن الكُثر أمسكوا به، أخذ في تسديد اللكمات إلى وجوههم أملاً في التملُّص، لكن الكثرة غلبت الشجاعة، بعد أن سيطر رجال الأمن على الموقف حضر المخبر، مساعد مدير أمن المجمع جاء شخصيًا ليُحقِّق في الواقعة.

أول مهمة يتولاها المخبر، بعد ترقيته التي حصل عليها منذ أيام قليلة. أول ما وصل نادَى عليه البطل لينجده، فتعنُّت رجال الأمن غير مفهوم. المخبر لم يأمر بفك الدائرة من حول البطل وابنه كالمتوقع، بل نادى على الكبراء، هرولوا نحوه وأحاطوه في دائرة وبدؤوا في نقاشهم الطويل.

جميع سكان العمارتين متجمعين في الأسفل، ثلاث دوائر منصوبة، يحيطها مربع صنعه بلدياتي بأجسادهم، الكل يشاهد ويتحدث ويقترح ويشجب ويندد ويدين. ممدوح البطل متماسك بعكس ابنه الذي انطلق في البكاء.

أحضرني بلدياتي لحل المشكلة، فأنا صديق للمخبر، لكنه للأسف خذلني، ردوده مقتضبة وباردة، كأنه يراني للمرة الأولى،

كلما حدَّثته يرد بصرامة بأن المجمع منشأة إستراتيجية، وأن الحفاظ على أمنها وسلامتها مسألة أمن قومي. نويت أن أقاطعه إلى الأبد بعد ما فعله، فكرت في أن أتصل بالأخرق لأحكي له عما حدث، وأُخبره بنذالة وخِسَّة صديقنا المخبر، تراجعتُ تجنُّبًا لسماع كلمات الشماتة، فالظرف لا يحتمل.

المخبر أصر بأن يأخذ القانون مجراه، يقول بأن المخالفة واضحة ولا يمكن تجاهلها، استغلال استراحة العاملين في غير غرضها والإخلال بالنظام العام بالمجمع، الذي لا يسمح بوجود غرباء داخل المنشأة بعد مواعيد العمل الرسمية، أكد للكبراء أنه لا يستطيع التغاضي عما حدث. أولاً يجب تسليم ابن ممدوح البطل لقسم الشرطة، ثانيًا سيتم رفع مذكرة للوزارة تتضمن الواقعة بالكامل، وذلك لإبراء ذمته من أي شُبهة تقصير أو محاباة. يوجِّه حديثه لبلدياتي ويقول لهم بلؤم: الموضوع كبير قوي يا جدعان وممكن يوصل للرفد؛ دي منشأة إستراتيجية، إننا نلاقي حد غريب فيها قبل الفجر دي مصيبة، يقولوا عننا إيه؟! نايمين على ودانا! يعني لو حد دخل المجمع بالليل وزرع قنبلة هقول للوزارة إيه؟ أقولهم معلش يا سيادنا، أصلنا كنا حاسبينه بلديات الرجالة اللي في السكن؟!

كلما يحتَدّ الكبراء على المخبر يُلوِّح لهم بورقة الأمن القومي فيصمتوا. للأسف لم أستطع مساعدتهم كما تصوَّرت، فأنا مثلهم تمامًا، متوتر ومغتاظ والشعور بالإهانة يملؤني، لكن ما باليد حيلة.

حضر الأخرق مبكرًا على غير عادته، لم يتوجَّه إلى عمله بالمجمع، وإنما دخل من بوابة السكن، دلف وسط الجموع وتخطاها ببطء، وكأنه أراد أن يراه الجميع، انضم إلى دائرة الكبراء ووقف، لم يسأل أحدًا منهم عما جرى، وإنما تحدث على الفور، وكأنه يعلم كل شيء. وجَّه كلامه إلى المخبر مباشرة، فهو من في يده الحل.

– أنا عارف إن الغلط راكبهم من ساسهم لراسهم، قولنا ميت مرة دي مش لوكاندة ومحدش سمع الكلام، بس أعمل إيه؟ دول بلدياتي، وحتى لو غلطانين لازم أقف جنبهم. عدِّيها المرة دي عشان خاطري، ولو حد فيهم غلط تاني قولي، وأنا أديله بالجزمة على دماغه.

انتهى الأخرق من حديثه فانفك الحصار عن البطل وابنه. "عشان خاطرك إنت بس هعديها"، قالها المخبر، وأخذ رجاله وانسحبوا إلى خارج فناء السكن.

بالطبع لم يقتنع أحد بالتمثيلية، فإخراجها كان رديئًا للغاية. ذهب كل منا إلى عمله وهو موقن بأن المعادلة قد تغيرت، وأن موازين القوى في المجمع قد اختلفت. هذا ما أراده الأخرق وحققه، حتى لم يهتم بأن يتقن الحبكة، فقط أراد أن يوصل رسالته للجميع. وأوصلها بنجاح.

قال عم بيشوي: الواد ده ابن كلب وسخ، صدق اللي قال عليه ابن زواني.

وهمس الشيخ أحمد في أذني: إن العين بالعين، والسن بالسن، وعلى الباغي تدور الدوائر.

الأخرق رد الصاع صاعين، فعلها معه ممدوح البطل منذ زمن فلم ينسَ، وعندما جاءته الفرصة أذلَّه هو وابنه شر ذلة.

## (17)

اسمه حمادة، في أوائل العشرينيات من العمر، طويل وضخم مثل أبيه، ورث من ممدوح البطل أغلب صفاته الجسدية، أما العقل فشتان بينهما، استقبلني مُرحِّبًا عندما زرتهما في سكنهما الجديد. الشاب ملامح وجهه مريحة، والابتسامة لا تفارق شفتيه. كلما حدثني يسبق اسمي بلقب "عم" فأضحك، فالشاب لا يصغرني بكثير، عضلاته المفتولة وشاربه الكث يجعلانه يبدو أكبر مني في العمر. قلت له: اسمي كمال فقط بدون عم. رد الفتى الطيب بتأدُّب: أبي أخبرني بأن جميع بلدياتنا في المجمع بمثابة أعمام لي.

ممدوح البطل يسميه "الأستاذ مبيعرفش"، يقولها بتهكم كلما نادى على ابنه فأضحك. البطل ترك شقة المنايفة. بعد أن انتهت المشكلة جمع أغراضه ورحل. محاولات بلدياتي بإقناعه بالبقاء قوبلت برفضه القاطع. أجَّر غرفة بشقة عُزَّاب قريبة من المجمع، وأقام فيها مع ابنه، سكانها من نفس محافظتنا، وكأننا لا يمكننا التأقلم مع أحد سوى بلدياتنا.

بعد أيام من الحادثة قررت أن أزوره، لأواسيه وأشد من أزره، فالإهانة شديدة والفعلة خسيسة، توقعت أن أجده منكسرًا، لكني فوجئت بصلابته، يضحك ويبادلني النكات، وكأن شيئًا لم يحدث. حاولت أن أفتح الموضوع، أشجب وأدين وأندد، لكن أول ما

بدأت قاطَعَ حديثي، قال لي: اسكت ومتحكيش في المحكي، موضوع وخلص، نفتحه ليه ونقلِّب المواجع؟!

صديقي قرر أن ينسى الأمر برُمَّته، أخبرني بأن الموازين تغيَّرت والأوضاع تبدَّلت، تحدَّث بحسرة وقال: كان لا بد من صدمة لنستفيق ونعرف أن العمل الحكومي له قواعده، قواعد تتمحور أغلبها حول الخِسَّة والنذالة والمحسوبية، إما أن نرفضها ونرحل، وإما أن نتأقلم معها ونبقى. ممدوح البطل قرر أن يبقى، فبلع الإهانة وتأقلم مع الوضع الجديد، قال بأن ما تبقى أقل بكثير مما مضى.

– أيام وهنقضيها يا عم كمال، هنقعد على أي وضع لحد ما نطلع معاش، وخلي بالك الدنيا دوَّارة، يوم ليك ويوم عليك، وأنا اليوم اللي عليَّ عدى، ومستني اليوم اللي ليَّ.

حمادة هو محور أحاديث البطل، فصديقي الآن يُسخِّر كل قدراته لتحقيق حلم ابنه، بلدياتي حكوا لي بأن البطل رفض وساطة المهندس نبيل لتعيين ابنه في الحكومة، قال ساعتها: الحكومة مبتأكلش عيش، والواد لسة عود أخضر وميستحملش وساختها، وبعدين ده معهوش شهادة وآخره يشتغل عامل.

حمادة أتى إلى العاصمة لاحتراف كرة القدم. البطل يريد أن يُلحِق ابنه بنادٍ قاهري كبير، يتمنى أن يقضي ابنه سنوات في لعب كرة القدم في أندية العاصمة، ليؤمِّن مستقبله المادي. أخبرني أنه أحس بالتقصير تجاه حمادة، ظَلَمه عندما سافر لسنوات طويلة في

الخليج، وتركه بلا رقيب، عندما عاد ووجده بليدًا راسبًا في دراسته، ظلمه مرة أخرى بإخراجه من المدرسة، ألقى بالولد الصغير ليعمل في محل النجارة خاصته، للأسف لم يحصل حمادة على أي شهادة تعليمية، وأيضًا لم ينجح في تعلُّم صنعة أبيه. مهنة تلو أخرى يلتحق بها، لكنه لم يبرع في أي منها، يتركها كما بدأها دون الحصول على أي خبرة. يقول البطل: عُمر الواد جري وأنا مش حاسس، دخل الجيش وضاع من عمره تلات سنين، خرج منه فحل يسد الباب، ودماغه ممسوحة زي بلاطة السيراميك، بقى عنده واحد وعشرين سنة ومش نافع في حاجة، الأستاذ مبيعرفش مبيفهمش غير في الكورة.

حمادة موهوب بالفطرة مثلما قال مدرب مركز الشباب بقريتهم، طويل وسريع في الركض وقوي في الالتحام، ورأسه وقدماه تعرف طريق المرمى، البطل أدرك موهبة ابنه متأخرًا، سنوات كثيرة وهو يُعنِّفه ويضربه، لترك كرة القدم والاهتمام بتعلم صنعة أبيه وأجداده، الأستاذ مبيعرفش لم يتعلم شيئًا ولم يُجِد أي مهنة، وللأسف الكرة هي الأخرى أعطته ظهرها، تجاوز واحد وعشرين عامًا فانعدمت فرصته في احترافها. المدرب أخبر ممدوح البطل بأن الأندية تقبل بانضمام الناشئين فقط بفرقهم، أما من في عمر حمادة فمن المستحيل أن يقبلوه.

البطل قرر أن يحل المشكلة بطريقته، سأل وتحرَّى وخطَّط ونفَّذ ونجح كعادته، قال لي: ولاد الحلال مفيش أكتر منهم، حكيت ليهم موضوع الواد حمادة، فدلوني أعمل إيه.

كان الحل هو استخراج شهادة ميلاد جديدة باسم "حمادة ممدوح البطل". اسم الأب واسم الأم لم يتغيرا وكذلك محل الميلاد، ما تغير فقط هو اسم المولود وتاريخ الميلاد. رحَّل تاريخ الميلاد للأمام قليلاً، ثلاث سنوات كانت كافية ليصبح عمر حمادة ثمانية عشر عامًا، وتزيد فرصته في احتراف كرة القدم. قلت للبطل: "ده تسنين؟"، فرد ضاحكًا: "هو بنت وهنجوزها يا كمال؟!" التسنين بات موضة قديمة ويسهل اكتشافها، حمادة اسمه الحقيقي محمد، مُسجل حتى الآن في سجلات الدولة، بغير تزوير أو تعديل أو تلاعب. حمادة فرد جديد انضم إلى أسرة ممدوح البطل، حرفيًا خُلِق من عدم. فُتِحَت غرفة الأرشيف بالسجل المدني، وأُنزِلَت سجلات المواليد المهترئة بفعل الزمن من الأرفف المترَّبة، وبنفحة كريمة من البطل قام الموظف بالمطلوب، أزاح الغبار عن السجل، ودوَّن في سطر فارغ اسم المولود الجديد حمادة ممدوح البطل، بعدها تمت جميع الإجراءا ت القانونية بسلاسة، استخرج البطل شهادة ميلاد كمبيوتر، وكذلك بطاقة رقم قومي لابنه، انضم حمادة رسميًا إلى عالم الأحياء، وأصبح فردًا في أسرة ممدوح البطل.

تعجَّبت مما حكاه لي البطل وحذَّرته من مغبَّة فعلته، شرحت له دواعي قلقي وهواجسي، فالأمر شديد الخطورة. طمأنني وقال بأنها مجرد فترة انتقالية مؤقتة وبعدها يرجع كل شيء كما كان. لو انضم الشاب إلى نادٍ كبير واحترف كرة القدم، فسينتهي محمد إلى الأبد، ستصدُر شهادة الوفاة، سيُدفَن محمد ويبقى حمادة، أما لو فشل الأستاذ مبيعرفش، فسيرحل حمادة إلى الأبد، ويبقى في السجلات محمد ممدوح البطل فقط. الموضوع تكلفته ثمانية آلاف جنيه يا كمال، أربعة لشهادة ميلاد ومثلها لشهادة الوفاة وتصريح الدفن. سألت البطل بخوف حقيقي: طب لو مات موظف الصحة؟ هتعمل إيه من غير شهادة وفاة لواحد منهم؟ رد ضاحكًا: إنت عبيط يا كمال؟! لو الراجل الطيب ده مات، أكيد هيظهر واحد ابن حلال يحل محله.

ممدوح البطل لم ييأس رغم الصعوبات. حمادة أجرى الاختبارات في أكثر من نادٍ ولم يحالفه التوفيق.

– ولاد الكلب لما بيلاقوه مش متأيد في نادي بيشكوا، ويحسوا إن الموضوع فيه إنَّ، فبيرفضوه.

أولاد الحلال في قرية البطل قدموا له المساعدة، حضر أحدهم إلى القاهرة خصوصًا وحل المشكلة. أخذ البطل وابنه إلى أحد أندية الدرجة الثالثة، نادٍ في ضواحي العاصمة دائمًا ما يتذيَّل جدول الدوري، الأمر استلزم مقابلة مع إداري الفريق، وبضع مئات

من الجنيهات دفعها له البطل. بعدها بأيام استلم ممدوح البطل ورقتين، الأولى تفيد بأن اللاعب حمادة ممدوح البطل مُقيَّد بسجلات الاتحاد المصري لكرة القدم، ويمارس اللعبة ضمن فريق الناشئين بنادي الضواحي، أما الثانية فتُفيد بأن اللاعب حمادة ممدوح البطل، قد حصل على الاستغناء الخاص به من ناديه، ويحق له الانتقال إلى أي نادٍ في صفقة انتقال حر.

البطل يقول بأن الأوراق المذيَّلة بخاتم اتحاد الكرة، ستجعل الأمر مختلفًا عن السابق. يضحك ويكمل حديثه: الأوراق في بلدنا أهم من المهارات، يخبرني بأنه لا يحلم بأن يلعب حمادة بنادٍ من أندية القمة، يريده فقط أن يحترف في أي نادٍ صغير من أندية الدوري الممتاز، أو حتى أندية مسابقة الدرجة الأولى. بضع سنوات يقضيها الشاب في ركل الكرة هو كل ما يتمناه البطل، بعدها يعود إلى قريته لينشئ مشروعه الخاص. يقول البطل: فلوس الكورة حلوة، هما كام سنة يلعبهم الواد، وهيحوش فلوس الأرض والبيت والعربية، وكمان كام ألف جنيه في البنك يقضوه طول العمر.

ودَّعت البطل وابنه الطيب، وتمنيت لهما التوفيق والنجاح، بالرغم من عدم اقتناعي بالكثير مما سمعته. قبل أن أغادر أوصيت حمادة بإزالة شاربه الكث وذقنه النابتة، فهما لا يليقان إطلاقًا بناشئ لم يتجاوز الثماني عشرة عامًا.

## (18)

أمير الجيوش هو الفارس المغوار الذي هزم الروم وفتح البلاد، هو القائد الحقيقي الذي تناساه الجميع، وأحلوا محله الجبناء، طمسوا تاريخه واستبدلوه بمن أغدق عليهم العطايا، مقولة تكررت كثيرًا على مسامعي، أطلقها الجدود، ولا أعلم أصدقها أم أقتنع بما درسته في الكتب المدرسية، كثيرًا ما حكوا لنا في طفولتنا عن قوة الأمير وحكمته، عن عدله وعبقريته الحربية التي لا تُضاهَى، رووا بأنه لم يحارب أعزل أو شيخًا أو صبيًا أو امرأة، أخبرونا بأنه فاز بكل المعارك الذي خاضها، فتح القرى والكفور والنجوع، وأخضع المدن الكبرى لإمرته، ما كان يفصله عن العاصمة هو بضعة كيلومترات سيركضها جواده، ومعركة سيحسمها سيفه البتَّار، لولا الأيدي الغادرة التي طعنته في ظهره لكان قد جلس على العرش.

يؤكد شيوخ قريتنا بأن إرادة الله أبت أن يحل الرخاء بالبلاد، فأفعال أهلها نجسة. يقسمون بأنه لو عاش الأمير وتولَّى الحكم، لجعل من بلادنا جنة. في مرة جادلتهم وقلت: لماذا أنتم متأكدون؟ ردوا في ثقة: وهو تحت الأرض يغدق علينا الخيرات، يشفي المريض بإذن الله، ويقضي حاجة المحتاج، ينصر المظلوم ويبطش بالظالم، يجفف دموع الثكلى والمكلوم والعاقر، فما بالك لو عاش ووصل إلى العاصمة!

قُواد الجيش نسوا أميرهم المقتول، أو بالأحرى تناسوه، لم يطمئنوا يومًا على زوجته، ولا على طفله الوليد، ذهبوا ليحققوا حلمه فأغوتهم العاصمة، استقروا فيها وأقاموا مُلكهم العضوض، أكثروا العطايا لأهل العلم والدين، فكُتِبَت في حُسن خِصالهم الأشعار ودُعِيَ لهم على المنابر. يقال بأن زوجة الأمير اصطحبت ابنها بعد أن اشتد عوده وقصدا العاصمة، نوت أن تسترد له ما كان لأبيه، هجرا قريتنا وتركا المريدين والمحبين يذرفون الدمع لفراقهما. عند باب القلعة حاصرهما العسكر، نسيها الجند فبكت، حضر رئيس الحراس فعرفها، عرضها على الملك، وقبل أن تطالِب بالملك لابنها أمر بقطع رأسه؛ استغاثت برفقاء زوجها فأنكروها، قصدت رجال العلم والدين، ليفتوا بحرمانية إسالة دم ابن الأمير البريء، فخذلوها. في حضرة الملك اجتمع العلماء وأفتوا بجواز إعدامه لدرء الفتنة في البلاد، لم يرضوا حتى بأن يُدفَن بجوار أبيه، أمروا بإلقاء جثته للجوارح فنُهِشَت، عادت المرأة المكلومة وفي يدها خُصلة من شعره، ظلت قابضة عليها حتى فارقت الحياة، فوضعها المريدون هي وخصلة شعر ابنها بجوار الأمير. أوصت بأن تُدفَن بجوار أميرها فحققوا أمنيتها.

يروون بأن قائد الجيش قد حضر على رأس سارية إلى قريتنا، ليهدم الضريح وينبش القبر، حاول الأجداد أن يقنعوه بأن للموت حُرمة فهدد بقتلهم. تراجعوا إلى بيوتهم، وقالوا بأن إرادة الله نافذة،

فأتت الريح. قبل أن تهبط اليد القابضة على المعول لتُهشِّم القبر قامت العاصفة، انطلقت الرمال المباركة لتُدافع عن الأمير وعائلته، فألهبت الأعين ووخزت الأبدان. يقولون بأن الله قد أمر الخيل بعصيان أوامر الجنود فنفَّذت، كل ما سمعه أهالي قريتنا وسط الغبار الكثيف هو قرقعات وصهيل خيول، بعدها أشرقت الشمس وانقشع الغبار بأمر من القهار، فرأ ى الجميع المعجزة، الجند المضرجون بالدماء يحيطون بقائدهم المقتول. غادروا قريتنا مشيًا على الأقدام بعد أن عصتهم خيولهم وهربت. يقال بأن جثمان قائدهم تحوَّل إلى جيفة في لمح البصر، فلم يتحمَّلوا رائحتها؛ ألقوا بها قبل أن يصلوا إلى مشارف العاصمة، فالتهمتها الغربان. رحل الجند عن قريتنا ولم يعودوا ثانية، تركوا أمير الجيوش وعائلته في سلام.

لم يُنقَش اسم الأمير على قبة أو يدوَّن في كتاب، طمس قواده تاريخه ونسبوا بطولاته لأنفسهم، لكنه بقي حيًّا في قلوب مريديه، لم يدخل العاصمة فاتحًا فمُحِي تاريخه ونُسِي إلى الأبد. كلما سألتهم لماذا لا يوجد أثر لأمير الجيوش بكتب التاريخ، يقولون بأن التاريخ يكتبه المنتصرون، والأمير اغتيل قبل أن يحقق نصره الأخير.

ضحكتُ في سري عندما قال محمود زوج أختي منى جملته. قالها بحِدة لحامد الأونطجي بعد أن أكد بأن حزبه إلى زوال لا محالة، أخبره بأن كتب التاريخ ستظل تلعنهم إلى أبد الأبدين، فالتاريخ يكتبه المنتصرون، وحزب حامد سيُهزَم شر هزيمة، فالجميع

يعاديه. ردت فتنة بثقة، قالت بأن الحزب يسيطر برجاله على جميع مفاصل البلاد، وما يحدث هو مجرد زوبعة في فنجان، لكن إعلام الفلول يُضخِّمها طمعًا في تحقيق مصالح شخصية.

عودة منى وزوجها محمود من سفرهما الطويل فاجأتني، فمنذ أن سافرا وأقدامهما لم تتخطَّ حدود الإمارة الخليجية التي يعملان بها، لم يحضرا عُرسي ولا عُرس أخت محمود، ما يربطهما بالقرية هو الاتصالات التليفونية بأبي وبأم ليلى، والحوالات البنكية التي يرسلانها لأختي فتنة لشراء الأراضي. ليلى أخبرتني بأنهما امتلكا حتى الآن ثلاثة فدادين وبيت بأربعة أدوار.

لم أكن أعلم أن أم ليلى غالية على الجميع بهذه الصورة، إلا بعد أن مرضت.

اتصلَت بي فتنة وأخبرتني بضرورة المجيء، قالت بأن عمتي مريضة، سألتها عن ما حدث، فاختنق صوتها ولم تستطع الرد، سمعتُ صوت بكائها وحامد يُحدِّثني، قال بصوت هامس: احضر بسرعة؛ أم ليلى في النزع الأخير.

مرضت من لم أتوقع بأنها تمرض مثل بقية البشر، المرأة القوية مثلنا تمامًا، من الممكن أن تموت، أصرت ليلى أن نصطحب نور معنا، قالت لا ينبغي أن نترك الولد وحده في المنزل، والله أعلم كم سيطول غيابنا. وصلنا القرية قرب الظهيرة، ركضت ليلى ونحن نلاحقها، إلى أن ظهر البيت. شقة أبي بابها مغلق، والأصوات

الكثيرة الآتية من أعلى توحي بأن الجميع بشقة أم ليلى. صعدتُ فرأيت الباب مفتوحًا وأبي جالس في ركن الصالة. أعتقد أنها المرة الأولى التي يصعد فيها إلى شقة عمتي. ليلى توجهت مباشرة إلى غرفة أمها، وأنا ونور جلسنا قرب أبي. أول ما دخلنا لم ينتبه لقدومنا، ألقيت السلام، فرفع رأسه وتمتم ثم نكَّسه ثانية. عيناه محمرتان ويده لم تنجح في تجفيف دمعته المنفلتة. كررت إلقاء السلام فرد باقتضاب، أعتقد بأنه لم يلاحظ حتى وجود نور معي. عين أبي الدامعة ورأسه المنكَّس تذكرني بيوم وفاة أمي، نفس الجلسة والدمعة المنفلتة والنظرة الزائغة. ظللنا صامتين حتى حضر حامد الأونطجي، رحَّب بي كعادته، وسأل نور عن أحواله، سألته عما جري لعمتي فأخبرني أن ما حدث لم يكن متوقعًا:

ذهبت أم ليلى كعادتها إلى السوق، تمشت لساعتين وهي في كامل عافيتها، اختارت وفاصلت، ثم اشترت ما يروقها من خُضر وفاكهة، وبعدها عادت إلى البيت، أول ما دخلت الحوش سقطت فجأة ولم تقوَ على النهوض، نادت على أبيك لينجدها، فأحضر سيارة الإسعاف ونقلها إلى المستشفى. أصرَّت عمتك بأن لا نخبركما بالموضوع، قالت إن ليلى لن تحتمل الخبر، بعد يومين قضتهما في المستشفى أخبرنا الأطباء بأنها مصابة بالمرض الخبيث. ظلت تسألنا عن حقيقة مرضها ونحن عاجزون عن الرد، في النهاية أخبَرَتها فتنة بجزء من الحقيقة، قالت لها بأن الله قدَّر ولطف،

فالمرض الخبيث في مراحله الأولى ومن السهل علاجه. كذبت عليها، فالأطباء أخبرونا بأن المرض انتشر ومن الصعب إيقافه. عمتك قوية يا كمال، تحملت جرعة العلاج الكيماوي بشجاعة، وأصرت بعدها أن تعود إلى البيت، امرأة عنيدة. عندما أحضرنا كرسيًا لنحملها، رفضت وأصرت أن تصعد السلالم على قدميها، سندت بيدها على الدرابزين، ولم ترضَ حتى أن تتعكز على فتنة.

نحن آخر من علم بمرض أم ليلى، حتى أختي منى حضرت قبلنا، هاتفَتها فتنة، فتركت هي وزوجها عملهما في بلاد النفط وعادا على الفور. حامد الأونطجي أخبرني أن منى أول ما عرفت بمرض العمة أجهشت بالبكاء، وقالت لزوجها: لازم أشوف أم ليلى قبل أما تموت، لو ماتت وأنا في الغربة مش هسامح نفسي أبدًا.

أختاي تحبان أم ليلى، رغم شدتها وتربيتها الصارمة لهما، ربَّت وعلَّمت وزوَّجت، فلم تنسيا أفضالها، وعندما حان موعد رد الجميل لبَّتا نداء الواجب. فتنة تخلت عن كل أعمالها، تركت الحزب والمعرض وجلست تحت قدمي أم ليلى، منى أكدت لمحمود أنها لن ترحل قبل أن تسترد أم ليلى عافيتها. أعتقد أنهما لن تتركا منزل عمتي، ستظلان بجانبها إلى أن تُشفى أو تموت.

أبي جالس في الصالة طيلة اليوم، كلما حاولت أختاي إثنائه عن ذلك وإقناعه بالنزول إلى شقته ليستريح يرفض، أعتقد بأنه قد

حصل على إجازة من عمله، وتخلَّى أيضًا عن عادته في الصلاة بمسجد أمير الجيوش. بالتأكيد انقطع عن الذهاب إلى سهرات الغيط، ففتنة تقول إنه لا يغادر مجلسه إطلاقًا، أبي جالس في الصالة يوجِّه بصره بين الحين والآخر إلى غرفة أم ليلى. أنا متأكد بأنه يريد أن يراها ويطمئن، للأسف لا يمتلك الجرأة ليدخل إلى غرفتها، فيلاحق أختَي بالأسئلة، طوال النهار والليل يعرض خدماته، يسألهما إن كانتا تريدان علاجًا للعمة، أو فاكهة تحبها، أو نوعًا من الخضر يفتح شهيتها. يوميًا يتغيَّب لدقائق بعد صلاة العشاء، ويعود ويده دكتور الوحدة الصحية الشاب. الطبيب ابن صديقه فلا يمانع ولا يتبرَّم، يخبرنا همسًا بأن حضوره للكشف اليومي على أم ليلى لا معنى له، يقول بأن المرض قد تم تشخيصه من قِبَل أطباء متخصصين، حددوا العِلَّة وصرفوا الأدوية الموصَى بها. يقول لي وأنا أوصله: حضوري لا فائدة منه، آتي فقط لأُطمئن الحاج محفوظ؛ أبي قال نفذ كل طلبات الحاج محفوظ ولا ترفض، فالمريضة غالية عليه.

أنا الآخر مثل أبي، لا أمتلك الجرأة لأدخل إلى غرفة أم ليلى، لا أتحمَّل أن أراها منكسرة، بالأساس لم أتوقع أن يصيبها المرض يومًا، وكأنها من طينة مختلفة عن باقي البشر. كلما أستجمع شجاعتي وأهم بأن أدخل إلى غرفتها أفشل، أشتم رائحة الموت فأتراجع، تبزُغ فجأة أمامي صورتا أمي وجدة نور، أرى المقابر

وحفَّاريها، تزكم أنفي رائحة التراب وهو يواري جثامين الأحبة، فأفزع.

ليلى بقيت بجوار أمها، وأنا عدت إلى العاصمة، تركتها هي ونور في القرية على أن أرجع في الإجازة الأسبوعية. أصبح وضعي مثل جميع بلدياتي بالمجمع، أقضي أغلب الأسبوع وحدي بالعاصمة، وأعود إلى أسرتي في القرية أيام الإجازات؛ فكرت في أن أسكن مع بلدياتي مرة أخرى، بدلاً من المكوث وحدي في منزل فارغ، تذكرت ما حدث للبطل فتراجعت. بقيت في شقتي حيث الوحدة والملل والوقت الذي لا يمر، أقضي أغلب يومي في متابعة الصندوق الأزرق اللعين، أُضيِّع بيه الوقت حتى يحين موعد عودتي إلى القرية، بين الحين والآخر أطمئن على ممدوح البطل وابنه حمادة، أفرح لضحكة الشاب الرنانة وهو يهاتفني ليُبشِّرني بانضمامه لأحد الأندية، يقول لي: يا عم كمال أنا بقيت لعيب كورة رسمي. أزورهما فأرى الابتسامة تغمر قسمات وجه البطل، يخبرني بفخر بأن حمادة انضم إلى أحد أندية دوري الدرجة الأولى، وسيلعب في فريق الناشئين حتى يثبت جدارته، يقول بزهو: هما شهرين بالكثير، والواد حمادة يكسَّر الدنيا ويصعدوه للفريق الأول للنادي.

يتصل بي المخبر أكثر من مرة ولا أرد، الأخرق هو الآخر يحاول محادثتي لكني أتجاهله، عندما وجدا أن محاولاتهما لم تنجح حضرا للقائي؛ بلدياتي أخبروهما بأنني أقيم بمفردي، بعد أن سافرت زوجتي

إلى القرية، فأتيا بحجة تسليتي. للمرة المائة أحنث بقسمي وتخذلني ضحكتي، حلفت أن أقاطعهما إلى الأبد، وبمجرد أن طرقا بابي رحَّبت بهما، في البداية رسمتُ التكشيرة على وجهي وصمت، لكن مع أول نكتة أطلقها المخبر انفلتت ضحكتي. ظل صديقاي يبررا ما فعلاه، عدَّد الأخرق مساوئ ممدوح البطل، قال بأن ما عاناه لا يتحمله بشر، وأن تعمُّد البطل إذلاله وإهانته أمام الجميع كان مُريعًا، أخبرني بأنه كثيرًا ما أغلق على نفسه باب الحمام وبكى بحُرقة، أكد أنه لم يكن أمامه حل آخر، وجب أن يرد للبطل إهانته ليشفي غليله. لم أقتنع بحديث الأخرق، وهو أيضًا لم يهتم بإقناعي بصواب ما فعل، كل ما أراده هو إيضا ح موقفه وتذكيري بضرورة حضور عُرسه، فأنا سأكون شاهدًا على عقد القران.

## (19)

كنت أحسب أن بسقوط عمود الخيمة سينهار البنيان، لكن حمدًا لله فقد خاب ظني. فاجعة موت الجدة مرت بسلام، وبقي البنيان صامدًا، رغم ما أصابه من تصدُّع وشقوق. عائلتنا بخير، أنا وليلى ونور تجاوزنا مرحلة الذهول، ونكاد نودع الحزن، الحياة ماضية لا تتوقف، والنسيان آتٍ لا مفر، هذا ما عرفته واختبرته، فاطمأن قلبي.

ليلى هي من حدَّثت والد نور. صمدت ولم تبكِ وهي تُخبره بموت الجدة. طمأنته على نور، قالت له: الولد وسط أسرته فلا تخف. الأب لم يعرف بماذا يرد، فشكرها وأغلق الخط، بعد أن تمالك نفسه حدَّثنا ثانيًا، قال بأنه سيرسل لنا تكاليف إعادة نور إلى وطنه، أنا من ردَّيت هذه المرة، قلت له منفعلاً: ما فائدة عودة طفل إلى بلد أكلها الدمار؟! نور ابننا ولن نتخلى عنه. أوضحت له ليلى بأن وضع نور سيتغير إلى الأفضل، حكت له عن خططها لمستقبل الولد، لا عمل في المطعم بعد اليوم، سنُلحِقه بالمدرسة، سيعيش وسطنا كابن وليس ضيفًا، الاتصالات لن تنقطع، وعندما يعود الأمان إلى بلادكم سيعود نور. وافق الأب على مضض باستمرار نور بالعيش معنا. شكَرَنَا على ما فعلناه مع الجدة، قال

لنور: لا تخف يا حبيبي، هذا وضع مؤقت، وبعدها سترجع إلى الوطن. انفلتت الدموع من أعين الجميع فأنهينا الاتصال.

كنا على وشك التعافي وتجاوز الأحزان، فجاء خبر مرض أم ليلى ليعيدنا إلى ما كنا فيه. سافر ثلاثتنا إلى القرية وعدت وحدي، كلما اقتربَت الطمأنينة من قلبي نزعت عن عمد. الوحدة تحاصرني من كل جانب ولا أعرف كيف أهرب منها. غياب ليلى ونور جعل منزلنا بلا طعم، تركاه فغادرتْه الحياة، المجمع أصبح مكانًا مقبضًا، الخِسَّة التي رأيتها فيه جعلتني أكرهه، نظرات زملائنا أبناء العاصمة الشامتة جعلتني أمقتهم، أحايل الوقت ليمر، أقضي أغلب نهاري في محادثة ليلى ونور تليفونيًا، أحدثهما طمعًا في ونس أفتقده، أعود إلى المنزل فلا أجد إلا الصندوق الأزرق لأضيع فيه ساعات الليل الطويلة.

فكرت في أن أقلد المخبر وأخترع شخصيات وهمية أجري بها المحادثات، أضع صورة شاب وسيم، فتنها ل عليَّ طلبات الصداقة من الجميلات، أو أضع صورة شيخ بذقن طويلة، فتطاردني إعجابات وتعليقات الأخوة الملتزمين، تراجعت عن ذلك بعدما تذكرت ما حدث للمخبر.

نفذَت باقة الجوال فاضطررت أن أفتح كمبيوتر ليلى، الذي اعتلاه الغبار من طول غياب صاحبته، للمرة الأولى أستخدمه، فمنذ أن تزوجنا وليلى هي القائدة، هي من تتنقل بين الصفحات

لتُرِيني عجب العُجاب. في مرة أخذت في الضغط على الأزرار فظهرت قريتنا على الشاشة، قربت الصورة فرأيت بيتنا هناك، انبهرتُ كالعادة فقالت بسرور: الأمر بسيط يا كمال، مجرد برنامج متصل بالقمر الصناعي، فقط تُحدد الموقع الذي تريده، فينقل البرنامج صورة حية للمكان.

ولجتُ إلى الصندوق الأزرق، فوجدته مختلفًا عن ما أراه في جوَّالي، بعد دقائق فهمت أن ما أمامي هو حساب زوجتي على التطبيق، حاولت أن أمر إلى حسابي ففشلت؛ اتصلت بليلى لتخبرني ما أفعله فلم ترد، الملل لا التلصص هو ما دفعني للاستمرار، تجولت بلا هدف في حسابها، رأيت منشوراتها الكثيرة التي طالما اضطررت إلى الإعجاب بها حتى لا تغضب، شاهدتُ تعليقاتي الخائبة لديها، ففكرت في أن أغلق جهاز الكمبيوتر وأنام، أول ما هبطت إلى أسفل الصفحة ورأيت تلك الرسائل تسمَّرتُ أمام الشاشة، ولم أفارقها إلا صبيحة اليوم التالي.

في مرة سألتُ ليلى عن الاختيارات الموجودة بجانب زر النشر في التطبيق، أخبرتني بأن مؤسس الفيسبوك أراد للجميع حرية الاختيار، من الممكن أن يرى الجميع منشورك، أو أن ترسله إلى أصدقائك فقط، أو حتى تحتفظ به لنفسك، ساعتها ضحكت، وسألتها عن مغزى أن يوجِّه أحد المنشور إلى نفسه، فردت: مجرد تنفيس للصدور يا كمال.

وسط منشورات زوجتي الكثيرة هناك خمس رسائل لم أرَها من قبل، وجهتها ليلى إلى نفسها فقط.

## الرسالة الأولى

لا أدري كيف تحملت أمي كل تلك الهموم، لا أفهم كيف أصبحت بهذه الصلابة، من يراها يظن أنها وحش كاسر، أمي تخفي ضعفها وقلة حيلتها بالشدة والصوت العالي. فتنة ومنى وكمال يخافونها، احترامهم الزائد لها ليس بدافع الحب، بل الرهبة، يرتعبون من لسانها الطويل، أما أنا فلا أخافها مطلقًا، فأنا أعرف حقيقتها، تخفي طيبتها خوفًا من أن يلاحظ أحد ضعفها، فيتجرأ عليها، أتمنى أن يحبها الجميع مثلي لا أن يرهبونها.

أتت أمي إلى قريتنا وهي في مثل عمري، حكت لي أنها ملأت حقيبتها بالجرائد لتجعلها منتفخة، خجلت من أن تدخل قريتنا بلا متاع، كل ما كانت تملكه، هو جلباب أسود وشبشب بنعل مثقوب وغيار داخلي خلاف ما ترتدي. كلما رفضتُ الزواج وتحججت بصغر سني، قالت أمي: تزوجت وأنا في مثل عمرك، سني كانت عشرين سنة، والناس يقولوا عليّ عانس. هربَت من الوحدة والفقر وكلام الناس وتزوجت أبي، لم يتقدم لخطبتها أحد قبله، ولم تتوقع أن يأتي أحد بعده، فوافقت مضطرة.

لم ترَ أباها ولم تشبع من حضن أمها، ماتا وتركا وراءهما أربعة أولاد وبنتين، وُزِّعوا على الأخوال والأعمام. كثيرًا ما حكت لي عن أيام اليُتم، دائمًا ما تضحك، لتداري الدمعة التي توشك أن تظهر، تقول: لما كان الأب والأم على وش الدنيا كنا فقرا قوي، فتخيلي بقى حالنا بعد أما ماتوا. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها بالرغم من جمالها، تقول لي: مين الحمار اللي هيتجوز واحدة تزيده فقر؟! وحتى لو كان حد اتقدملي مين اللي كان هيجهزني؟!

عندما جاءت البُشرى بقدوم العريس لم تسع الأرض سعادتها، ظلت ترقص بلا توقف من العشاء إلى الفجر، "الفرحة ساعتها مساعتنيش، قفلت باب أوضة الخبيز عليَّ وهاتك يا رقص للصبح"، ثلاثة رجال حضروا إلى بيت خالها، عجوز وكهل وشاب، أدخلوها لتقديم الشاي للزوار، فتأكدت أن الدنيا ابتسمت لها، سألوها عن رأيها، فردت: أقول إيه وأعيد إيه، ده الخالق الناطق حسين فهمي! أخبرها خالها بأن الكهل هو من تقدم لخطبتها، وليس الشاب، فوجمت. فكَّرت لدقائق، ثم أخبرتهم بموافقتها. بعد أسبوع حضر الثلاثة مرة أخرى، ومعهم مأذون قريتهم، عقدوا القران وأخذوا أمي معهم وغادروا في صمت.

# الرسالة الثانية

العجوز هو جدي، والشاب هو عمي محفوظ، أما الكهل فأبي، كان جدي هو صاحب قرار الزواج. تعتقد أمي بأن أبي لم يفكر إطلاقًا بالأمر، جدي قال الأخ الكبير يجب أن يتزوج أولاً، فامتثل أبي، لم يكن كهلاً مثلما اعتقدت أمي، فهو يكبر عمي محفوظ بثلاث سنوات فقط، المرض هو ما سرق شبابه وأحنى ظهره مبكرًا، ذبل قبل الأوان فكافأه جدي بعروس، علَّها تعيد شبابه الضائع، لم يجدوا في قريتنا عروسًا تقبل بحاله، فبحثوا في القرى المجاورة حتى وجدوا من تقبل، قبل أن يأتوا إلى بيتها، كانوا واثقين بأنها ستوافق لا محالة، ففتاة في مثل ظروفها لن ترفض عريسًا مهما كان وضعه. تقول أمي: حتى لو كان عضم في قفة كنت هوافق.

أصر جدي بأن يتزوج أبي وعمي في نفس الليلة، لتكون الفرحة فرحتين، في غرفتين متجاورتين أقام الأخوان، تسمي أمي شهر عسلها بشهر الأنين، تقول ضاحكة: كان من العيب أن تغادر العروس غرفتها، فأيام العسل لا تعوَّض، الأنين لا يتوقف من غرفتي العروسين، أبي يئن من الألم، وزوجة عمي محفوظ تئن هي الأخرى. تقول أمي: أم كمال كانت تتعمد إغاظتي، فتتمادى في إطلاق الآهات والأنات، كلما قابلتها تقول: أعمل إيه في الراجل ده، مش راضي يسيبني في حالي، طول الليل والنهار مش بيرحم، حتى

الصلاة مش عارفة أصليها، كل ما أستحمى وأفرش السجادة يشدني تاني على السرير.

أمي لم تغضب منها، فهي تعلم أنها امرأة غيَّارة، تعرف أن أمي أجمل منها فتريد إهانتها، تمنَّت أن تكسرها، لكن أفعالها جعلت من أمي أكثر صلابة؛ ودَّعت خجلها وضعفها، وتحولت إلى أم ليلى القوية التي يهابها الجميع.

أبي رجل طيب.. هكذا تقول أمي دائمًا، عُنفه اللفظي وسلاطة لسانه كانا مُفتعلَين، تصوَّر أن خشونة الطباع قد تداري عجزه الجسدي، أحَب أمي ولم يُهِنها في يوم، وهي الأخرى تحمَّلت الكثير بسببه، نعتوها بالعاقر فلم ترد، قالوا بأن أرضها بور فصمتت وصبرت، ودعت الله حتى كافأها بالذرية، تقول أمي: ثماني سنوات أدعو الله حتى أتيتِ وأنرتِ دنيتي، أبوكِ هو الآخر كان يتمنَّى الوليد، مرت السنوات فبدأ الرجال في نصحه بالزواج من أخرى. أبوكِ رفض وقال لهم "بحب مراتي ومستحيل أجيبلها ضرة"، أبوكِ قدَّر صمتي، فهو يعرف أن كهفي خصب، لكنه لم يجد من يجيد حرثه، لعن الله المرض، جعل من الرجل مثل الورقة، كلما لمست جسدي انثنت، بعد ثماني سنوات عجاف رُوِيَت الأرض ونبتت الزهرة، انتفخ بطني وجاءت ليلتي إلى الدنيا.

# الرسالة الثالثة

منذ أن كنت طفلة وأنا أسمعهم يقولون ليلى لكمال، أحيانًا أضحك وأحيانًا أخجل، وكثيرًا ما زعقت فيهم ليكُفُّوا عن ترديد كلامهم الماسخ. يريدون أن يزوجوني أبو منقار، الفتى النحيل المزهو بنفسه، الذي يمشي مثل الطاووس، ويظن أن إقامته في العاصمة تعطيه الأفضلية في أعين بنات القرية، علمت أنه أول ما عاد من سنته الأولى في الجامعة قبَّل فتاة، أخبرتني صديقتي بأنه ضحك على أختها الكبرى، أغراها بحلو الكلام حتى أحبته، أقنعها بأن تقابله عند شريط القطار، وأول ما وصلت طوَّقها بذراعيه والتهم شفتيها، البنت المسكينة حاولت التملُّص، لكن ذراعيه القابضتين على خصرها منعتاها من الهروب، فشلت في الرحيل فأكمل فعلته الدنيئة وزاد من لطع خدودها بالقبلات، هددته بالفضيحة، وقالت له سأصرخ، فتركها، قبل أن تمضي صفعته وبصقت على وجهه.

لم يرث كمال حلاوة عمي محفوظ ووسامته، نحول وجهه الزائد عن الحد جعل بروز أنفه واضحًا، لذا سميته أبو منقار. فتنة الشريرة تريد أن تزوجني من أخيها، أمي هي الأخرى لا تمانع، وكأن الجميع قد اتفق عليَّ، لا أريد أن أرتبط بطمَّاع، أعرف أنه يريد إتمام الزواج ليستولى على نصيبي في البيت. أستغرب من مباركة أمي للموضوع، ومحاولاتها المستميتة لإقناعي، بعد كل ما فعلَته ليُكتَب نصف

البيت باسمي توافق أن يستولى كمال عليه! كثيرًا ما حكت لي عن إصرارها على إحضار موظف الشهر العقاري إلى منزلنا، وزنَّها على أبي حتى يقتنع بالتنازل عن نصيبه في البيت لي. لا أفهم كيف ترضى أن يستولى أبو منقار على ميراثي! سألتها فقالت: عمك لن يرضى أبدًا بأن يدخل رجل غريب إلى بيتنا، مستحيل أن يوافق على التقسيم، بزواجك من كمال ستُحَل المشكلة. الولد بيقش يا ليلى، عاجلاً أم آجلاً سيصبح البيت لكِ أنتِ وكمال.

أبو منقار خجول وعلى نياته، أول ما مسك يدي يوم الخطبة ارتعش، ارتجفت يده وألبسني الخاتم بصعوبة، وجهه أصبح مثل حبة القوطة الناضجة، ترك يدي بسرعة وغادر مع عمي محفوظ. عندما يحضر إلى منزلنا يجلس كالصنم، كلما حاول محادثتي تلعثم وغرق في عرقه، أظن بأن صديقتي كذابة، فمن المستحيل أن يكون كمال قد قبَّل أختها.

# الرسالة الرابعة

كمال لا يعرف العاصمة رغم إقامته فيها لسنوات، بمجرد أن تزوجنا أصبحت أنا مرشدته فيها، لم أتوقع أن زوجي طيب إلى هذا الحد، سلَّمني مقاليد كل شيء منذ يومنا الأول معًا، عندما حضر أقاربنا وأعطوه النقود، سلَّمها لي عن طيب خاطر. أبو منقار لا يهوى كَنز الأموال، بالأحرى النقود، ليست لها قيمة بالنسبة إليه، أول ما حصل على مُرتَّبه سلَّمه لي بالكامل، عندما تعجَّبت من فعلته، أخبرني بأنه لا يحتاج للمال، فليس له أي مصاريف، يذهب إلى العمل مشيًا على القدمين ولا يدخن ولا يسهر على المقاهي، قال لي ساعتها: اصرفي ما تصرفينه، وما يفيض عن الحاجة ادَّخريه.

زوجي لا يمتلك أصدقاء هنا، يعود من عمله بعد العصر بقليل، ولا يغادر المنزل إلا صباح اليوم التالي، طول مكوثه في الشقة جعل تأقلمنا سريعًا، أشعر بأننا متزوجان منذ سنوات طويلة، رغم أن سنتنا الأولى معًا انتهت للتو.

أبو منقار ذو وجهين، في النهار هادئ وطيب وخجول، وفي الليل يصبح كما شاب البقر، يتحوَّل الحمل الوديع إلى ذئب مفترس، يحملني إلى السرير بلا مقدمات ونظل بالساعات في حركة دؤوبة. حكت لي أمي ذات مرة، بأن جدي كان يمتلك شاب بقر ضخمًا في حظيرتنا، جميع الأبقار تخرج من الفجر إلى الغيط وتظل

تعمل إلى ما بعد المغرب، إلا هو، مهمته الوحيدة هي الأكل والراحة ومعاشرة إناث الأبقار. تضحك أمي لتداري خجلها وتقول: كان جميع فلاحي القرية يأتون ببقراتهم الطالبة للعُشر إلى حظيرة جدك، طلبًا لشاب البقر القوي، في مرة ثار أبوكِ وطلب من جدك أن يذبحه، فرفض، جدك قال له: أجني من ورائه أموالاً أكثر من ثمن حليب جميع بقرات الحظيرة مجتمعات، فكيف أنحره؟! أول ما مات جدك نحره أبوكِ، بسكين ثلم فعل فعلته.

أبو منقار مثل شاب البقر بالضبط، لكنني امرأة واحدة، يدُك حُصوني طوال الليل حتى أنهك، يتركني لشعوره بتعبي لا لأنه شَبِع. رغم كل ما يفعله كمال لم ينتفخ بطني بعد. مرت سنة، ولم تنبت بعد بذوره التي يلقيها ببذخ، لا أعلم أرضي بور أم أن بذوره معطوبة. أمي بدأت تُبدِي قلقها، أسئلتها عن علاقتي الحميمة بكمال كثُرَت. في مرة سألتني بحرج عن حالة زوجي، قبل أن أجيبها حلَّفتني بألا أكذب، أقسمت لها أن كمال مثل شاب البقر لا يهدأ، طلبت مني أن نجري التحاليل، فالوقت طال وكلام الناس لا يرحم.

لا أفهم كيف لا يلاحظ كمال حالي، الوقت يمر وهو حتى لا يسأل، أعتقد أن أي رجل يتمنَّى أن يأتيه الولد، وحتى لو لم يكن يحب الأطفال، ألا يريد أن يثبت للجميع رجولته؟!

# الرسالة الخامسة

هل كان لي يد في وفاة الجدة؟

أأنا السبب في موتها؟

لو ملأت النهر بدموعي فلن تنضب.

ماتت سندي في العاصمة وعُدت وحيدة.

قبل قدومها كانت حياتي جحيمًا، لا أصدقاء أو معارف هنا، اليوم طويل وممل، كاد لساني أن ينسى الكلام من قِلة استعماله. كمال صامت دائمًا، كلما حاولت جرجرته إلى الحديث يرد باقتضاب، ثم يعود إلى سكاته، أبو منقار لا يجيد الحديث مطلقًا، وكأنه يدَّخر طاقته لصولاته وجولاته على سريري. فاض بي الكيل فأصريت على العودة إلى قريتنا. أخبرته أن العيش في العاصمة لا يناسبنا، قلت له تقدم بطلب إلى الوزارة لينقلوك إلى أي وظيفة في شبين، مكاننا ليس هنا يا كمال وعلينا العودة إلى قريتنا.

جاءت الجدة وحفيدها فتغيَّرت حياتي، أحببت المنزل والعمارة والشارع، حتى ناس المدينة المتعجرفون سامحتهم عن طيب خاطر. الجدة طاقة حنان لا تنضب، وجهها سَمِح ولسانها لا ينطق بالسوء، اعتبرتها أمي في الغربة، وهي أيضًا عاملتني كما ابنتها، كلما ضاق صدري ارتميت في حضنها وبكيت، حكيت لها عن أمي وأبي، أخبرتها بظني السيئ في كمال، وتفكيري الخائب قبل الزواج، كلما

أردت أن أُضحِكها، قلَّدت مشية عم محفوظ المهرولة أول ما يرى أمي.

أحببت الجدة، ولم أخجل قط من أخذ رأيها في أي شيء يخصني، مهما كان. في مرة صارحتها بهواجسي، قلت لها أخاف أن تكون أرضي بور يا عمة، أخشى من كلام الناس، لا أفهم السر في عدم اهتمام كمال بالأمر. المرأة الطيبة هوَّنت عليَّ قلقي، أخذت بيدي وزارت معي المستشفيات، لم تتركني رغم اعتلال قلبها، لفَّت معي العاصمة بحثًا عن أفضل الأطباء، عندما أخبروني أن رحمي معيبة انهرت، لولا وجود الجدة بجواري لمتّ من الخوف، قالت لي: تماسكي واصبري فهذا قضاء الله، ادعيه وتيقَّني بأنه رحيم بعباده. عندما رأت دموعي التي سالت احتضنتني، وقالت: لا تخافي يا ليلى؛ أنا بجانبك، تأكدي يا حبيبتي بأن فرج الله قريب.

تحاملت على نفسها وظلمت قلبها المريض من أجلي، كلماتها حوَّلت يأسي إلى تفاؤل، قالت: الجراحة سهلة يا ليلى، إزالة الأكياس عن المبايض جراحة مضمونة النجاح، يجريها الأطباء بالمنظار فلا تترك أثرًا. كانت الجدة سندي وعزوتي ورفيقتي في أوقات الشدة، هي التي صحبتني للمستشفى يوم إجراء العملية، وأصرت بعدها بأن أظل في بيتها لثلاثة أيام حتى أبرأ، عندما خفت أن يدرك كمال كذبتي، تولَّت هي الأمر، قالت له: ليلى مثل ابنتي، وأنا محتاجة لرعايتها، اتركها تقيم معي أيامًا قليلة.

أول ما استجمعت قوتي وعدت إلى بيتي، غادرت هي، تركت الدنيا وماتت، أجَّلت إجراء الجراحة لقلبها العليل من أجلي، ماتت من أجل أن تنبت زهرتي.

## (20)

ظهرت الذقون الطويلة فجأة في قريتنا.

يقول أبي إن بعض أبناء قريتنا قد سافروا منذ زمن إلى بلاد النفط، بحثًا عن الرزق، بعد سنوات عادوا من هناك مُحمَّلين بالمراوح والبطاطين وأجهزة الكاسيت والأموال، ذهبوا بجلالاليبهم البلدية وذقونهم الحليقة، ورجعوا بالجلاليب البيضاء القصيرة والذقون الطويلة. يروي أهل قريتنا بأن الرئيس المؤمن أوصى بأصحاب الذقون الطويلة خيرًا، فلم يتعرَّض لهم أحد بأذى، الشرطة تراقبهم عن كثب، لكنها لم تُلقِ القبض على أحد منهم أبدًا؛ يُحرِّمون معارضة ولي الأمر، لذا يعيشون في أمان، وينامون قريري الأعين، في طفولتي كنت أستغرب مظهرهم الغريب، وأقول لأبي: لماذا يرتدون ملابس قصيرة؟ هل هم فقراء إلى تلك الدرجة؟! يرد عليَّ ضاحكًا ويقول: هم يتبعون سنة رسول الله. أقول له بتعجب: ولماذا نحن ننكر سنة الرسول ولا نفعل مثلهم؟! ينهي أبي الحديث برد مقتضب: إن الله غفور رحيم. يقولها ضاحكًا، ثم يمسك بيدي ويصطحبني إلى مسجد أمير الجيوش لنصلي المغرب.

أول ما عادوا من بلاد النفط أنشؤوا الزوايا ليصلوا فيها، أكدوا بأن الصلاة في مسجد أمير الجيوش حرام شرعًا، وبنوا مساجدهم

الخاصة، دعوا أهالي قريتنا إليها، فلم يرضوا مفارقة الأمير. بقي بيت الأمير عامرًا، وهُجِرَت زواياهم.

صراع أصحاب الذقون الطويلة مع سيدي الأمير أبديٌّ لا ينتهي، يصرون بوجوب هدم ضريحه، ولا أحد في قريتنا يستمع إليهم، أول ما رجعوا من بلاد النفط حاولوا، اغترُّوا بحنان الرئيس المؤمن فأمسكوا بالمعاول، قبل أن يهموا بالهدم ظهر أبناء قريتنا الشجعان وتصدوا لهم، حدَّثوهم بالتي هي أحسن، وعندما لم يستجيبوا قالوا لهم: العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم. رأى أصحاب الذقون الطويلة كثرة عدد أبناء الأمير، فحكَّموا عقولهم ورحلوا، بعدما فشلوا مارسوا الحيلة واحتموا بظلام الليل، أرسلوا فريقًا منهم ليقوم بالفعلة الخسيسة والناس نيام، مع أول حجر سقط من الضريح انطلق غضب أمير الجيوش ليبطش بهم. من بعيد أتى المنادي باكيًا وأنبأهم بوفاة شيخهم، صاحب الذقن الطويلة البيضاء مات حرقًا؛ أمير الجيوش انتقم، زوجة الشيخ وعياله لم تمسهم النار بفضل الواحد القهار، أما رئيسهم فقد نال جزاء فعلته. من يومها والهدنة قائمة بين الأمير وأصحاب الذقون الطويلة.

بعد الثورة ظهروا ثانية، تعاطوا السياسة التي طالما حرَّموها وكوَّنوا حزبًا، نافسوا حزب الأونطجي بضراوة في الانتخابا ت، هُزِمَوا لكن قوتهم ظهرت إلى العلن للمرة الأولى، وصوتهم أصبح مسموعًا.

قالت أم ليلى: هروح أوزَّع الأكل بنفسي في جامع سيدي الأمير، عشان أكيد صحاب الدقون العيرة دول.

عمتي خالفت توقعات الأطباء وشُفِيَت، لا أعرف كيف تعافت، لكني أراها وقد عادت كسابق عهدها، أول ما وصلت إلى المنزل سمعتُ زعيقها، صعدت إلى شقتها فرأيت ليلى ونور جالسين وأمامهما الكتب والكراريس، ليلى تشرح الدرس للولد وعمتي تصيح فيه كلما أخطأ. بعد أن انتهيا قالت لي ليلى بسعادة: نور يحب أمي، لا يخاف منها مثل الجميع، يجادلها ويعترض على قراراتها، لكنه يحترمها ويقول لها يا جدتي.

أبي لم يترك صالة منزل أم ليلى حتى الآن، ما تغير فيه هو ضحكته التي عادت، ورأسه الذي انتصب. تضحك ليلى وتقول: عمي محفوظ أحضر سجادته وفرشها في الصالة حتى لا يغادر البيت، عندما يحين موعد الصلاة، يتوضأ هو ونور ويصليا معًا على سجادته. أخبرتُ ليلى بعدم جدوى الإقامة في القرية بعد الآن، فأمها شُفِيَت، أبي تدخل في الحديث على غير عادته وقال: اتركوا نور معنا. استغربت من طلبه المباغت، وأخبرته بأن رعاية طفل أمر صعب، فرد: أم ليلى سترعاه وتُذاكِر له، كما ربَّتكم ستُربيه.

أم ليلى تحكي لنا بفرح عن معجزتها الخاصة، تؤكد أن شفاعة أمير الجيوش حققت المستحيل، وأنها شُفيت من مرضها العضال بفضل كرمه. عمتي حلمت بالأمير، أتى مُحاطًا بهالة من نور ودخل

إلى غرفتها، اقترب منها وابتسم فاطمأنت، مد يده وضغط على بطنها ففزعت، قال لها: لا تخافي. فجأة اخترقت يده بطنها. تقول عمتي: لم أشعر بأي ألم واليد المباركة تقبض على أحشائي وتنزع المرض. أخرَج يده وهمس بصوت يُحَس لا يُسمَع: ستُشفين بأمر الله.

أهالي قريتنا يقولون بأن اتفاقًا قد عُقِد بين أصحاب الذقون الطويلة وحزب حامد الأونطجي، الاتفاق يقضي بهدم ضريح أمير الجيوش، سيفعلها أصحاب الذقون الطويلة، وسيغض حزب الأونطجي الطرف. سألت حامد فقال: أنا لست مسؤولاً عن بناء ضريح أو هدمه، لو صدر أمر قضائي بهدم الضريح فلن نعترض، أما موضوع الاتفاق هذا فمحض هراء. قلت له: ولو هدموه في جنح الظلام؟ فرد: بعدما تشرق الشمس سأفاجأ مثلكم.

***

عدت إلى قريتنا وأنا أنوي معاتبة ليلى على ما فعلت، سألوي بوزي وأقطب جبيني وأنا أحدثها، لن أرضى بأن يمر الأمر مرور الكرام، فكذبها أوجعني؛ كيف خدعتني كل تلك الفترة ولم أشعر؟! لماذا لم تُخرِج ما في قلبها وتصارحني؟! سأتغاضى عن نعتي بأبو منقار، سأتناسى تلقيبي بشاب البقر، ظنها بأنني طماع لن أنساه أبدًا. لماذا الكذب وهي أقرب الناس لي؟! لو أخرجَت ما في قلبها وصارحتني لكانت ارتاحت، رسائلها أشعرتني بمدى غبائي، كل

تلك الأحداث تجري من وراء ظهري ولا أشعر! حتى الولد نور كان يعرف كل شيء ولم يخبرني، كيف لطفل صغير أن يستطيع خداعي؟!

لا أعرف كيف لم أُعنِّفها! عندما رأيت وجهها المبتسم تعثَّر لساني، ناديت على نور لأواجههما معًا، وعندما هممت بالنطق انطلق الولد في الكلام فأفشل خطتي، ظل يتحدث لساعة، وكلما حاولت أن أقاطعه زاد من سرعة حديثه، لا أدري أأنا بالفعل لم أستطع إيقافه، أم أنني استمتعت بحكاياته فأصغيت! نور يروي بفرح يومياته في القرية، يخبرني بزياراته المتكررة إلى سيدي أمير الجيوش، يصف لي المريدين والشيوخ والمجذوبين وأصحاب الأعلام، يحدثني في سعادة بأن أم ليلى كلَّفته بتوزيع أرغفة اللحم بالمقام، يقول: جدتي أوكلتني بتنفيذ المهمة الصعبة، وزعت نذور شفائها على المصلين يا عمو، جدي محفوظ لم يشاركني التوزيع، ظل يراقبني من بعيد كما اتفقنا، بعدها كافأني باصطحابي إلى الغيط. أكتم ضحكتي، فأم ليلى أصبحت جدة، وأبي أصبح هو الآخر جدًا لنور.

– أصدقاء جدي طيبون جدًا يا عمو، كلما حضرت إلى سهراتهم هادوني بالحلوى، جدي محفوظ يشوي الذرة ويصب لي شاي الركية، أصبحت مثل الكبار، أشاركهم شرب الشاي وأكل الذرة. تصوَّر يا عمو، سيدي الأمير ما

زال جسده يقطر دمًا حتى الآن! من قتله الأشرار يظل جسده نضر كما الأحياء. أخبرني أصدقاء جدي أن الأمير ينتظر قيام الساعة لينهض من ضريحه، يومها سيقتص الله من الأشرار يا عمو، أمير الجيوش فقط سيشير إليهم، سيضعهم الله في الدرك الأسفل من النار، ولن يغادروه أبدًا.

حاولت أن أقاطعه، وجَّهت حديثي إلى ليلى، سألتها عن صحة أمها كتمهيد أبدأ به المكاشفة، قاطعني الولد وانطلق في حديثه مرة أخرى: جدتي طيبة يا عمو، صوتها عالٍ وزعيقها مزعج، لكنها تحبني جدًا، عندما أنتهي من المذاكرة تعطيني النقود لأشتري الشوكولاتة، وعدتني بشراء دراجة لألعب بها، قالت: لو ذهبت إلى المدرسة يا نور ونجحت، سآخذ ك معي إلى شبين الكوم، وأحضر لك من هناك أجمل دراجة، أين شبين الكوم يا عمو؟ أهي قرية؟

يرهقني الولد فأعود أدراجي خائبًا.

رجعت وحدي إلى العاصمة، فنور وليلى رفضا أن يعودا معي، زوجتي ألمحت بأنها تود البقاء في قريتنا إلى الأبد، قالت: فاكر طلب النقل بتاعك؟ روح اسأل عليه، وحاول تتنقل في أي وظيفة في شبين. أخبرتني بأن أبي وأم ليلى لن يستطيعا فراق نور، وهي أيضًا لا تطيق العودة إلى العاصمة ثانية، لا أعرف ماذا أفعل، أأترك

العاصمة بعد كل تلك السنين؟ أتضيع كل محاولاتي في التأقلم هباء؟ أأعود إلى قريتنا بعد أن امتلكت في العاصمة سكنًا وعنوانًا؟

بعد ما حدث للأخرق، أيقنت بأن القاهرة ليست مكانًا صالحًا للعيش، العاصمة لا تناسب الريفيين إطلاقًا، حكى لي بلدياتي عن ما جرى، فاتخذتُ قراري بتقديم طلب النقل والعودة للإقامة الدائمة في قريتنا.

كنت قد حضرت عرس الأخرق، وشهدت على عقد القران مثلما اتفقنا، بعدها ودَّعت العريس ورحلت أنا والمخبر، كما توقعنا لم يحضر العرس أحد من بلدياتي، فبعد فعلة الأخرق تقطعت كل الخيوط التي تربطهم به. عندما حاولت أن أليِّن قلوبهم وأقنعهم بالحضور رد البطل بغضب: خليه يشبع بزمايله الشمامين ولاد مصر.

كان عرسًا قاهريًا بامتياز، صوان واسع، ومطرب أجش الصوت، وراقصة سمينة كل ما تفعله هو هز كتل الشحوم المتراكمة حول ثدييها وأردافها، غادرت العرس بعد عقد القران مباشرة، تركت الأخرق يدخن الحشيش مع زملائنا القاهريين، ورحلتُ إلى قريتنا لأطمئن على ليلى ونور. بعد ثلاثة أيام عدت إلى المجمع، أول ما اجتزت البوابة قابلني البطل، أخبرني بأن حمادة قد انضم إلى الفريق الأول لناديه وأحرز هدفين في مباراتين متتاليتين، باركت له فأكمل حديثه ضاحكًا: كده يبقى البقاء لله في المرحوم محمد،

والبركة بقى في الكابتن حمادة. بادلته الضحكات، وقبل أن أهم بالمغادرة أردف قائلاً: الموكوس بَلَفِته حُرمة وجرَّسته، اطلع اطَّمن عليه، البيه مرمي فوق في الشقة، وقافل على نفسه الأوضة بقاله يومين. قبل أن أستفسر عن ما جرى للأخرق تركني ممدوح البطل وهرول إلى عمله.

حكى لي بلدياتي عن ما حدث. قُرب الفجر جاءت المكالمة التليفونية، المتحدث هو والد الأخرق، أخبرهم بأن المستشفى اتصل به، وأخبره بأن ابنه قد وصل إليه، أحضرته عربة الإسعاف، وعندما سألوا سائقها عن أهل المريض، أخبرهم بأن امرأة كانت معه ولكنها اختفت بعد أن وصلوا. رجاهم أبو الأخرق، قال لهم باكيًا: الحقوا الواد وأنا هحصلكم. دقائق مرت وبلدياتي لا يعرفون كيف يتصرفون، مترددين في الذهاب، فهم لم ينسوا بعد ما فعله الأخرق مع ممدوح البطل، انتهى ترددهم بعد كلمة الكبراء، قالوا لهم: لازم نروح إكرامًا لأبوه اللي اتصل بينا، وأول ما الحاج يوصل نمشي. بلدياتي أولاد أصول؛ لم يتركوا الأخرق حتى بعد أن حضر أبوه، ظلوا بجانبه إلى أن تعافى، وبعدها أوصلوه هو وأباه إلى منزله بالمطرية.

أول ما وصل بلدياتي إلى الحارة التي يقطن بها الأخرق تكشفت لهم الحكاية، سمعوها من صاحب محل بالجوار ولم يهتموا، فالأمر لا يخصهم، أتموا مهمتهم وودعوا الأخرق وأباه، قبل أن يغادروا الحارة، فوجئوا بنداء أبو الأخرق: المرة اللبوة غيَّرت كالون الباب ومش راضية

تفتح، والواد عامل فوق زي المجنون ومُصِر يكسَّر الباب عليها، اطلعو الحقوه، أحسن بنت الوسخة تلبِّسه تهمة. صراخ الأخرق وصوت ركلات قدميه على الباب، أوحيا للجيران وأصحاب المحال بأن هناك معركة بالأعلى، فصعدوا، صعد بلدياتي جريًا وأمسكوا بالأخرق، جرجروه بصعوبة حتى أنزلوه إلى الشارع، أول ما رآه أبوه صفعه، ألقى على مسامعه وابلاً من الشتائم وبعدها رحل إلى قريتهم. أحضر بلدياتي الأخرق معهم إلى شقة المنايفة، ومن يومها وهو قابع داخل غرفته المغلقة ولا يرضى بأن يتحدث مع أحد.

الموضوع بدأ بتدخين سيجارتي حشيش وزجاجة بيرة، أعقبها بحبة زرقاء وكوب من الشاي، تبعهما حبة حمراء وفنجان قهوة. زملاؤنا القاهريون هم السبب فيما حدث له، قالوا له عشان تبقى أسد قدام عروستك، فصدقهم الحمار، دخَّن وشرب وابتلع وبعدها صعد لعروسه. الأخرق أخبرني باكيًا بأنه لم يتوقع أن تأتيه الخيانة من أقرب أصدقائه، تناول الحبة الحمراء باطمئنان، فمن أعطاها له هو زميلنا القاهري قريب العروس، ساعده في تأجير الشقة وتأثيثها، وذهب معه لخطبة العروس، فكيف لا يأمن له؟! الأخرق كان يهاب من لحظة اختلائه بعروسه، قال لي هامسًا: العروس كانت متزوجة من قبل، وأخاف أن تقارن بيني وبين زوجها السابق. بلبع البراشيم ليصبح ثورًا فأصبح بعدها كما السلحفاة، فشلت غزواته في اختراق قلاعها فارتعب، البراشيم جعلته رخوًا باردًا، جسده كما الثلج وعرقه

ينهمر بغزارة، حاول كثيرًا أن يغالب ضعف قوته لكنه فشل في النهاية، ابتسامتها الخبيثة قضت على ما بقي في جسده من طاقة، فانهار. قال لي بخجل: أغمى عليَّ يا كمال، ولم أفق إلا في المستشفى.

بلدياتي خذلوا الأخرق عندما طلب معاونتهم، أراد أن يأتوا معه ويكسروا باب الشقة ليؤدب زوجته، قالوا له من زوَّجوك قريبتهم هم المنوطون بالحل. كالمتوقع أنكر زميلنا القاهري قرابته للعروس، أقسم بأنها مجرد جارة. حلف كذبًا وأجبرنا على تصديقه، فما باليد حيلة. البطل قال بتهكم واضح: البيه ملوش وش يروح لوحده ويجيب حقه بدراعه، المرة فضحته في الشارع، قالت للكل عايزة أطلق، قالولها اصبري وارجعي لجوزك، فردت وقالتلهم بوش مكشوف، أنا ست اتجوزت مرة واتنين وعارفة يعني إيه راجل. بدام هو مش قد الجواز، بيبهدل بنات الناس معاه ليه؟!

لا يمكن أن يذهب الأخرق إلى هناك ثانية، فالمرأة نفَّذت لعبتها ببراعة، انتشرت قصتها كالنار في الهشيم، عرفها كل سكان الحارة والشارع والحي بأكمله، قصة الرجل العاجز والفتاة الفاتنة تروق للجميع، ومن المستحيل أن ينسوها. المخبر صديق شهم بحق، أخذ على عاتقه مسؤولية حل المشكلة، ظل لأسبوع لا يبارح الحي الذي تسكنه العروس، استغل مهاراته في التنصت وجمع المعلومات حتى

حل الأزمة بأقل الخسائر، بعدها حضر إلى شقة المنايفة وحكى لنا القصة الحقيقية التي يجهلها الأخرق.

المرأة لم تحب الأخرق يومًا، حتى لم تلاحظ نظراته إليها، كل ما كانت تريده هو رجل عبيط يقوم بمهمة محددة ويرحل، طُلِّقت من زوجها طلقات ثلاث فاحتاجت إلى محلل، بدأت في رحلة البحث فأشار عليها قريبها بالأخرق؛ ريفي على نياته يسهل التعامل معه، وربما تستطيع الاستفادة من ورائه ببعض الأموال. وَعَدت زميلنا القاهري بمكافأة سخية فأقنع الأخرق، أوهمه بأن قريبته تختلس النظرات لتراه، تقف في البلكونة بالساعات حتى تظفر بنظرة إلى عينيه، أقنعه بأنها تحبه ولا تقوى على فراقه، رتَّب بينهما اللقاءات حتى وقع المغفل في المصيدة.

يقول المخبر: المرة الوسخة أول ما الواد وقع خرجت من البكلونة وصوَّتت بأعلى صوتها، عشان تسبُك الحدوتة. صعد الجيران وحملوا الأخرق العاري إلا من ملاءة تداري عورته، وضعوه في سيارة الإسعاف وركبت في المقدمة زوجته، على باب المستشفى هربت وتركته، فالحمار دوره انتهى. المخبر يتكلم بحرقة ويخبرنا بأن المرأة كانت تريد المؤخر وقائمة المنقولات بالكامل. يتعجب من عدم استشارة الأخرق لأحد قبل أن يوقِّع على الأوراق، "مؤخر خمسين ألف وقايمة بستين ألف! ليه؟ هو هيتجوز السفيرة عزيزة؟!".

المخبر استغل علاقة جيرة تجمعه بأمين شرطة يعمل في القسم القريب من سكن المرأة، أعطاه ما فيه النصيب وأخذه معه، علَّه يُرهِبها، أفهمها أن اللعبة انكشفت، ولا فائدة من المهاترات. بعد طول مجادلة رضيت بأن تحصل على خمسة آلاف جنيه خلاف ورقة الطلاق. والد الأخرق أرسل الأموال في اليوم التالي فحلت المشكلة، لكن للأسف لم يعُد الأخرق كما كان.

# (21)

تحققت نبؤة المخبر واندلعت ثور ة جديد ة في البلاد، احتشد القاهريون في الشوارع والميادين ، مطالبين برحيل الرئيس الملتحي، أهالي المحافظات هم الآخر ون خرجوا تضامنًا مع أهل العاصمة ، وهتفوا بسقوط حزب الأونطجي، حتى قريتنا الهادئة تحوَّلت ساحتها الكبرى إلى فوهة بركان.

من الواضح أن تحذيرات محمود زوج أختي منى للأونطجي كانت صائبة، بالفعل اتحدت كل القوى السياسية لتزيح حزبه من السلطة. جميع الإعلاميين والمحللين السياسيين، يؤكدون بأن الجيش لن يقف هذه المرة موقف المتفرج، يلمحون ب أن الجنرال ذ ا البذلة الكاكي والنظارة الشمسية، مقتنع تمامًا بمطالب الشعب المشروعة. منذ أسبوع أو أكثر توقع محمود ذلك وصدق توقعه، يومها قال لحامد الأونطجي: انفِد بجلدك. لكن الأخير لم يصدقه.

أول ما بدأت المظاهرات عدت إلى قريتنا، فلن أترك أهلي يواجهون المجهول وحدهم، وضعنا التراييس والجنازير عل ى باب البيت تحسُّبا لأي طارئ . فتنة وحامد اقتنعا أخيرًا بحكم ة محمود ورجاجة عقله، فرفضا أن ينفذا أوامر الحزب بالتحرُّك إلى العاصمة، يقول الأونطجي إن الحزب قد أمر جميع كوادره بالمحافظات بالانتقال فورًا إلى العاصمة، والانضمام إلى زملائهم المعتصمين في

الميدان الكبير القريب من ضريح الرئيس المؤمن . خاف نسيبي فعصرى الأوامر. اتحاد الشرطة والجيش على قلب رجل واحد أرعبه. المدرعات الممتلئة بالجنود الملثمين والدبابات كالحة اللون التي تجوب البلاد أخافته، وجعلت وجهه كما قطعة البفنق البيضاء.

عندما بدأ أهالي قريتنا بالتجمع في الساحة الكبيرة ، تحركنا تنفيذًا لتعليمات محمود. قال ساعتها لحامد: الاحتراس واجب. في جُنَح الليل سِرنا متخفين حتى وصلنا، عربتان كبيرتان كانتا بانتظارنا هناك، أول ما رآهما محمود أشار لسائقيهما بأن يطفئا الأنوار، عندما عبرنا المدخل ودخلنا إلى المعرض، أخبرنا حامد بتوتر بضرورة السرعة في نقل البضائع، قال لنا : سيبوا الحاجات التقيل ة وركزوا على الموبيلات والكمبيوترات. حملنا كل ما خفَّ وزنه وغلى ثمنه، أفرغنا المعرض من البضائع غالية السعر ونقلناها إلى العربات ، ثم تحركنا إلى منزل أبي.

تحول بيت أبي إلى مخزن مؤقت لبضائع الأونطجي. قال محمود بحماس: لو حدث مكروه -لا قدر الله - واقتحم الأهالي بيت حامد، فالخسائر ستكون بسيطة. سألت حامد: لماذا جعلت مقر الحزب في عمارتك وأعلى معرضك؟ فرد بحسرة: نصيب!

كنا نتابع الحرائق التي ينقلها التل يفزيون على الهواء مباشر ة، ونرى مقار حزب الأونطجي التي اقتحمها الغاضبون و أحرقوها. لم أتصور للحظة بأن أهل قريتنا يمتلكون جرأ ة القاهريين وسلوكهم

الإجرامي، عشت وسطهم أغلب عمري ، و أعرف أنهم أناس مسالمون، لذا تفاجأت عندما بدأت الحرائق تجتاح قريتنا، أول ما التهمته النيران كان بيت حامد، تحوَّل في دقائق إلى ركام، بعدها أضرمت النيران في جميع محال أعضاء الحزب في قريتنا.

تقول أم ليلى بأن أمير الجيوش قد ضرب ضربته وانتقم، أرادوا أن يهدموا ضريحه فأشعل النيران في بيوتهم، أرد وأقول لها: أصحاب الذقون الطويلة هم من أرادوا هدم المقام يا عمتي وليس حزب حامد. تُوجِّه نظرها إلى فتنة وتقول: من غض طرفه وعقد اتفاقًا في الخفاء نال عقابه الذي يستحقه.

لا أعرف أهالي قريتنا انتفضوا وثاروا اعتراضًا عل ى سياسات حزب الأونطجي، أم غضبًا لسيدي الأمير. يقول نور ضاحكًا : أمير الجيوش أذل الأشرار، حرق محالهم وبيوتهم، وضعهم في السجون يا عمو. أضحك على سذاجة الولد وأنصرف.

***

المدينة تعج بمظاهر الفرحة، الأعلام ترفرف من الشبابيك والبلكونات، الكمبوندات أزالت الحواجز الموضوعة عل ى بواباتها ، وزينت أسوارها بألوان العلم، لافتات التهاني بنجاح الثورة والقضاء على الخونة تملأ الشوارع . صور الرئيس الملتحي أزيحت إلى الأبد ، وحل محلها صور جديدة للجنرال الذي ودَّع بذته العسكرية وارتدى ملابس مدنية أنيقة. صوره الفخمة تغطي أغلب شوارع المدينة، بعد

أن أعلن استجابته لمطالب الشعب وترشحه للانتخابات الرئاسية ، تلبيةً لنداء الواجب.

أحوال بلدياتي في المجمع لم تتغير، المخبر على وشك الحصول على ترقية جديدة، وحمادة ابن ممدوح البطل أحرز أربعة أهداف ثبَّت بها قدميه في عالم كرة القدم. عم بيشوي أحيل إلى المعاش وسيتمتع بتقاعده وسط أحفاده بالقرية، وعم الشيخ أحمد ما زال يحاول إقناع زملائي بفضل الالتزام بصلاة الفجر في المسجد.

الأخرق عاد إلى طباعه السيئة مرة أخرى، مشكلاته ومشاحناته التي يفتعلها في المجمع لا تنتهي، تحوَّل من عراك بلدياتي إلى معاركة زملائنا القاهريين؛ شعوره بالخيانة جعله غير متوازن، لولا المخبر لكان قد رُفِد من العمل . في مرة سب أحد القاهريين بلا سبب، ومرة عالج زميل آخر بلكمة وعشر ركلات بحجة نظراته الشامتة فيه. كادت أن تحدث أزمة، فوالد الزميل موظف بالوزارة، لولا استسماح المخبر لأبيه وقسمه بأنه سيعاقب الأخرق بنفسه لحدث ما لا يُحمَد عقباه . علمت من بلدياتي أن والد الأخرق يسعى لنقله إلى وظيفة بإحدى الهيئات الحكومية بشبين الكوم . رجا المهندس نبيل بأن ينقذ ابنه ويبعده عن المجمع والعاصمة كلها، فوعده بإجراء اتصالاته بالمسؤولين . فكرت في أن أطلب من أبي الاتصال بالمهندس نبيل، لينقلني أنا الآخر إلى شبين، لكن قبل أن أتصل به بادر هو بالاتصال ليخبرني بالفاجعة. ماتت أم ليلى!

توفيت بعد أن استردت كامل عافيتها! وزعت النذور احتفالاً بانتصار الأمير على أصحاب الذقون الطويلة . في رحاب المقام دعت للجميع. يقول نور باكيًا: جدتي ظلت لساعة تُردد أدعيتها، دعت لليلى بالذرية الصالحة، ولجدي محفوظ بالعمر المديد، ولحامد وفترة بفك كربهما، دعت لي يا عمو مثلما طلبتُ منها، قلت لها ادعي على الأشرار يا جدتي، ادعي بزوال الدمار من بلادي، ادعي لي برؤية أبي وأخي ثانية.

تقول ليلى: كنا في شق ة عمي محفوظ نُرتِّب بضائع حامد، العربات كانت ستحضر ليلاً لتنقلها إلى مشتريها الجديد، جميعنا كنا بالأسفل وتركناها هي وأباك بالأعلى، سمعنا صراخ عمي محفوظ فصعدنا جريًا.

فَرَش أبي سجادته ، وصلى الفرض والسنة، وهو يُسبِّح ويحمد الله على نِعمه، سمع أنفاس أم ليل ى التي علت، اقترب من باب غرفتها ليستطلع ، فأشارت إليه بالدخول، وقف بجانب سريرها ، فمدت يدها إليه ليساعدها عل ى النهوض، أمسك بيدها وظل يردد الأدعية، ثقلت أنفاسها وزادت من تشبثها بيده، تمتمت فلم يفهم ما تود قوله، اقترب أكثر، حركت شفتيها ، وقبل أن يخرج الكلام انطلقت روحها إلى بارئها.

مقبرتنا المغلقة منذ زمن فُتِحَت من جديد لتستقبل أم ليل ى، وضعوا المرأة القوية بجوار أمي وأهالوا التراب، الجميع ينتحب وجسد

المرأة القوية يواريه الثرى، نور يبكي بحُرقة ويقول لي: لماذا ماتت بعد أن شُفِيَت يا عمو؟ ! أمير الجيوش استأصل بيده مرضها فكيف تموت؟!

ليلى أصرت أن نعود إلى العاصمة، قالت : لا أطيق البيت ولا القرية بدون أمي . ساعدتُ حامد ومحمود في إنزال البضائع ، ولم أرحل إلا بعد أن اطمأننت عل ى عودتهما سالمين، بعدها ودَّعنا الجميع وغادرنا.

اكتشفتُ بأن محمود وحامد شريكان في التجارة، محمود يرسل الأموال وحامد يتوسع في النشاطات . كنت أستغرب من احتداد محمود على حامد، وأتعجب من استكانة حامد الغريبة عل ى غير عادته، ونحن منتظرون عودتهما أخبرتني منى بموضوع الشراكة، قالت بأن محمود حذَّر حامد كثيرًا من مغبَّة الانضمام إلى الحزب تحدثت بزهو بأنه لولا فطنة محمود وذكاؤه لحرقت البضائع وضاعت أغلب الأموال التي جرياها في غربتهما.

لا أعلم أتركا إمارة النفط وحضرا للاطمئنان عل ى أم ليلى، أم لحماية ممتلكاتهما؛ لا أفهم ما يحدث إلا متأخرًا، هذه عادتي التي لا أخالفها.

# (22)

بدأ أسبوع الآلام بموت أم ليلى، وانتهى بعودة عم بيشوي إلى المجمع. بدلاً من أن يصنعوا للقديس أيقونة تُخلِّد ذكرى كراماته أهانوه، خذلته الحكومة وظلمه القانون الجائر.

كنا قد نظَّمنا حفلاً منذ شهور احتفالاً بخروجه من الخدمة، وإحالته إلى المعاش. وليمة معتبرة أعقبتها كلمات مؤثرة وهدايا، بعدها ودَّعناه وعاد إلى قريته. بعد أن تأخرت إجراءات صرف المعاش، كثُرَت زياراته إلى مكاتب الوزارة المختلفة بحثًا عن حقوقه، ملف يُقذَف من موظف إلى آخر لمدة شهر، وبعدها أخبروه بأن الموضوع خارج نطاق سلطاتهم. قالو ا له: خدمتك في الوظيفة الحكومية لم تتجاوز العام يا حاج، للأسف لا تستحق أي مكافآت. تجاهل نعته بالحاج وسألهم عن الحل، فردوا بأن من في يده الحل هو وزارة التأمينات الاجتماعية. تحرك الملف إلى هناك ووراءه عم بيشوي، من قسم المعاشات إلى قسم الاشتراكات، ومن إدارة الفتوى إلى إدارة الاستحقاقات، في الأخير أخبروه بأن حظه سيئ. حدَّثه وكيل الوزارة شخصيًا: "للأسف لو توفيت قبل الخروج من الخدمة لكان الأمر بسيطًا، مكافأة نهاية الخدمة والمعاش كانا سيُصرفان على الفور للورثة، لكن ما دمت تتمتع بالصحة والعافية فلا حقوق لك".

أحضر عم بيشوي محاميًا لكن بلا جدوى، فالقانون واضح وصريح، لا معاش لمن لم تتجاوز مدة خدمته في العمل عشر سنوات، عرض الرجل الطيب على المسؤولين بأن يستمر في العمل لتسع سنوات أخرى، ليتوافق وضعه مع صحيح القانون، فضحكوا حتى دمعت أعينهم.

"راجل طيب وعلى نياته"، قالها ممدوح البطل الذي حضر خصوصًا إلى شقة المنايفة لبحث الأزمة مع الكبراء، اقترح أحد بلدياتي بأن يُصرَف معاش شهري لعم بيشوي من صندوق اليتامى، اعترض أغلب الكبراء ورفضوا مخالفة اللوائح، قالوا: الصندوق مخصص للموت فقط، ولا مجال لأي استثناءات. قرروا في نهاية الاجتماع صرف منحة لمرة واحدة فقط للقديس. تهامس بعض بلدياتي فيما بينهم بأن الصندوق في طريقه إلى الانهيار، فبعد ضرب الضخم وغلق الكانتين بدأ رأس المال في التآكل. الأخرق قال بأنها مسألة وقت لا أكثر ويُفلِس الصندوق. بعد أن وضع الكبراء خطتهم اجتمعوا بجميع سكان العمارتين، ولقَّنُونا أدوارنا حتى حفظناها، يومها بِتُّ في شقة المنايفة، وكذلك البطل والأخرق، قلت في نفسي عادت الأيام الخوالي مرة أخرى، بعدما رأيت صديقَي يتصافحان. الحدث الجلل أجبر الجميع على تناسي الخلافات ولو مؤقتًا.

دوري كان ثانويًا كالعادة، عضو في الكورس المكلَّف بالنباح خلف الأخرق، ممدوح البطل مسؤول عن التفاوض، والضخم هو من يصنع الرهبة، أما الأخرق فهو قائد الهتيفة المحمول على الأعناق، والمسؤول عن الاتصال بالإعلام. البطل حذَّر الأخرق من إخبار المخبر بما سنفعله، قال له دعه يُفَاجَأ، فلو عرف قبلها فلا نضمن رد فعله. حضَّرنا اللافتات وحفظنا الهتافات. في الصباح تجمعنا حول المبنى الرئيسي للمجمع. الأخرق بعث بالرسائل والصور إلى وسائل الإعلام، والبطل اتصل بالمدراء. الإعلام هو من حضر أولاً، التقط الصور وأجرى الحوارات وبعدها غادر، بعد ساعة حضر المسؤولون إلى المجمع، لم يسألونا عن مطالبنا، فقط نظروا إلينا، ثم توجهوا إلى قاعة الاجتماعات، حماستنا لم تَخبُ وظللنا نردد الهتافات، لم يحضر العربان ولا قوات الجيش كالمرة الفائتة، وإنما أتت عربات الأمن المركزي تتهادى إلى داخل المجمع، تحدث قائد القوة مع المخبر، وبعدها أمر بنصب دائرة حولنا، دائرة واسعة من أجساد عساكر الأمن المركزي النحفاء تحاوطنا من بعيد، اخترق المخبر الدائرة ونادى على الكبراء، أخبرهم بأن وضع البلاد دقيق ولا يحتمل الفوضى، أكد بأن رجال الشرطة البواسل لن يتوانوا للحظة في تنفيذ دورهم، سيحمون أمن البلاد حتى لو اضطروا إلى القبض على جميع العاملين بالمجمع. الكبراء لم يقتنعوا بكلام المخبر، وأصروا بأن اعتصامنا السلمي لن ينتهي إلا بتحقيق

المطالب العادلة لعم بيشوي. البطل قال له: يدونا بس موافقة على صرف معاش بيشوي، وبعدها كل واحد فينا هيروح لشغله.
انسحب المخبر وتوجَّه إلى الضابط قائد القوة، تحدثا لدقائق، ثم انطلقا للاجتماع بالمسؤولين الجالسين في الغرف المكيفة.

إحقاقًا للحق، جميع وسائل الإعلام المسموع والمقروء والمرئي اهتمت باعتصامنا، تمامًا كالمرة السابقة، لكن الفارق بين اليوم والبارحة هو محتوى ما نُشِر، في المرة الأولى كان العنوان الرئيسي "الثورة تجتاح مجمع الخدمات.. العمال تنتفض ضد الظلم".

أما الآن فالوضع مختلف، هبط الأخرق عن الأكتاف، وأخذ في متابعة المواقع الإلكترونية على هاتفه، وجهه المتعكِّر وسبابه المتواصل دفعانا إلى سؤاله عن ما حدث، أشار إلى شاشة هاتفه فذُهِلنا، أخرجنا هواتفنا، وأخذنا في متابعة الجرائد والمواقع الإلكترونية للقنوات التليفزيونية، العناوين متشابهة إلى حد كبير وكذلك المتن، جميعها تتحدث عن الإضرابات الفئوية التي تُعطِّل الإنتاج، الكل يطالب الحكومة بأن تكون صارمة في مواجهة محاولات المخرِّبين للَيِّ ذراع الدولة، الجميع يؤكد بأن القانون فوق الجميع، ويجب أن يُطبَّق بحذافيره، حتى لا تعم الفوضى البلاد.

أخذ الكبراء في تهدئتنا وشحذ حماسنا مره أخرى، هم من بدؤوا في الهتاف فتجاوبنا مترددين، أصواتنا مخنوقة، وقلوبنا وجلة، وأعيننا زائغة تجاه الدائرة التي أخذت في الانكماش. المسافة بيننا

وبين الجنود أصحاب الهراوات الضخمة أصبحت لا تتجاوز السنتيمترات، نظرات الضباط لا توحي بالخير، فجأة فتحت الدائرة من أسفلها، قال الضابط في مُكبِّر الصوت الذي يمسكه بيده: كل واحد يرجع لشغله، الاعتصامات ممنوعة، الطريق مفتوح قدامكم.. اتحركوا.

نظرنا إلى الكبراء فوجدنا الهلع يطل من أعينهم، صحنا فيهم ليقولوا لنا ما نفعل، فاكتشفنا أنهم مثلنا تائهون. تحركت عربات الأمن المركزي وتوقفت عند حافة الدائرة، اقترب الجنود أكثر، ففهمنا ما ينوون فعله. في لحظة واحدة وبدون اتفاق مسبق جرينا، هربنا من الجزء المفتوح من الدائرة، نسينا المظاهرة والاعتصام وحق عم بيشوي المشروع، كل ما كان في ذهننا ساعتها، هو الفرار من المصير المظلم الذي ينتظرنا لو أدخلونا إلى العربات، حتى عم بيشوي جرى معنا، لكنه لم يصعد إلى السكن مثلنا، بل توجَّه إلى بوابة الخروج من المجمع، عاد إلى قريته ولم يتصل بنا بعدها أبدًا.

## (23)

فشل المظاهرة وعودة عم بيشوي إلى قريته خالي الوفاض، عجَّلا بانهيار دولة الكبراء، دائمًا ما كنا نعتقد بأنهم أصحاب العقد والربط، لكن بعد توالي الهزائم أدركنا بأنهم مثلنا تمامًا، يصيبون ويخطئون، يفوزون ويُهزَمون، تنتابهم الرهبة والفزع في اللحظات العصيبة، يرتجفون مثلنا أمام الجنود ذوي الخوذات اللامعة.

من الواضح بأنهم أدركوا ما يدور في عقولنا وتعجز ألسنتنا عن النطق به، فمن يومها ورؤوسهم منكسة وأعينهم تتحاشى النظر إلينا. للمرة الأولى يجتمعون بنا بحثًا عن حل لا لتلقيننا الأوامر، طلبوا منا المشورة فعجزنا، فنحن معتادون على تنفيذ الأوامر لا اقتراح الحلول. حاولنا جميعًا أن نتناسى ما حدث، لكن نظرات زملائنا القاهريين الشامتة أبت أن تجعلنا ننسى، انتظرنا العقاب من قيادات الوزارة على ما اقترفناه، كلما يمر الوقت ولا يصل قرارهم تزداد رهبتنا، قال ممدوح البطل: كده ييقوا هيبهدلونا ويطبخوا الطبخة على نار هادية.

لم أتوقع بأن قيادات الوزارة بارعون إلى هذه الدرجة في استخدام الحِيَل، كنت أحسب أن استخدامها حِكر على كبراء الريفيين فقط، لكن اتضح لي أن القاهريين أيضًا يجيدون

استخدامها. جاء قرار إخلاء مساكن المجمع، فصُدِمَ الجميع، أمهلونا أسبوعًا واحدًا لإخلاء العمارتين، حتى أكثرنا تشاؤمًا لم يتوقع بأن يكون العقاب بهذه القسوة. القرار الآتي من الوزارة، نصَّ على وجوب إخلاء السكن الإداري فورًا، لعدم قانونية إقامتنا فيه؛ اللائحة واضحة وبنودها صريحة، استراحة المجمع مخصصة فقط للعاملين الذين يبعد محل سكنهم عن العاصمة بأكثر من أربعين كيلومترًا، ويتطلب عملهم بالمجمع وجودهم على مدار أربع وعشرين ساعة. يقول مندوب الوزارة إنه بالبحث في الملفات تبيَّن أن جميع المقيمين في المجمع من سكان القاهرة الكبرى، لذا لا يتوفر فيهم شرط أساسي من شروط الحصول على سكن إداري. همَّ الأخرق بمهاجمته وهو يصرخ: يا عالم يا ظلمة كلنا مغتربين وملناش سكن في القاهرة. مسَكْنا بالأخرق وأرجعناه قبل أن يفعل فعلته، فضرب موظف حكومي أثناء تأدية عمله مصيبة لا نقدر على تحمُّل توابعها، تحدَّثنا بهدوء مع المندوب وأخبرناه بأننا جميعًا من الأرياف، ومحافظتنا تبعد بأكثر من أربعين كيلومترًا عن المجمع كما تنص اللائحة، رد بثقة: الورق بيقول غير كده، بعدها أخرج من حقيبته صورًا ضوئية لبطاقات الرقم القومي خاصتنا، والمدون بها عناوينل القاهرية. أخبرناه بأنها عناوين غير حقيقية وضعناها في بطاقاتنا قبل أن نُعيَّن في الوزارة، أكَّدنا له بأننا قد غيَّرنا العناوين، حتى نتوافق مع شروط العمل السابقة. قال له الكبراء: لما كنا

شغالين مع المقاول كان من شروط جهاز المدينة إن كل العمال يبقوا من سكان القاهرة، فغيَّرنا البطايق عشان أكل عيشنا. المندوب ودن من طين وودن من عجين، جاء ليُبلِغنا لا ليسمعنا. قبل أن يرحل قال له البطل بتذاكٍ: طب يا باشا الأسبو ع الجاي تبقى عندك بطايق جديدة بعناوين خارج القاهرة والأزمة تتحل. رد الرجل بحزم: مينفعش، المعترف بيه عنوانك يوم تعيينك بالوزارة، بعد كده تسكن في أي حتة ميهمناش.

أُخليت العمارتان كما أرادوا، فما باليد حيلة، وأجَّرَت كل مجموعة من بلدياتي شقة قرب المجمع.

بعد فترة قصيرة حضر السكان الجُدد، استلموا الشقق بعدما أكدت لجنة الإسكان بالوزارة، بأنهم مستوفون لجميع الشروط، يقولون بأن لجنة الفتوى بالوزارة أصدرت تفسيرًا لبعض نصوص لائحة إسكان العاملين، وأوصت بإضافة بند جديد بها، فُسِّر البند الخاص باحتياج المجمع إلى العامل على مدار أربع وعشرين ساعة، بأن لفظ "العامل" يُقصَد به في هذه الحالة طاقم المديرين، فهم المسؤولون عن إدارة الأزمات وإصدار الأوامر لمجابهتها وابتكار الحلول، أما دور باقي العاملين فينحصر في تنفيذ الأوام ر المكلفين بها من قِبَل طاقم المديرين، وبالتالي فالحاجة إلى الوجود على مدار اليوم، تنحصر في طاقم المديرين وقيادات الإدارة العليا بالوزارة فقط، كما أوصت إدارة الفتوى بإضافة بند جديد في اللائح ة،

ينص على استثناء قيادات الإدارة العليا من البند الأول، الذي ينص على أن يكون السكن الإداري مخصصًا للعاملين الذين يبعد محل سكنهم عن العاصمة بأكثر من أربعين كيلومترًا.

المديرون بعكسنا يعشقون الخصوصية ويقدسون الاستقرار، لذا فقد خُصص لكل واحد منهم شقة، ليحضروا عائلاتهم للإقامة معهم. خصصت إدارة المجمع عربتَي ميكروباص للسكان الجدد، واحدة لإيصال أطفالهم إلى المدارس، والثانية لتوصيل زوجاتهم إلى الأسواق. يقول المخبر بأن الموضوع قانوني، وأن مدير المجمع قبل أن يُخصِّص العربتان قد رفع مذكرة إلى قيادات الوزارة، أوضح فيها بأن استراحة العاملين تقع في مكان ناءٍ، لا تصل إليه المواصلات العامة، وبالتالي يجب توفير سيارات لنقل سكانه حتى أقرب وسيلة مواصلات. المذكرة عُرِضت على أكثر من لجنة بالوزارة، وانتهوا جميعًا إلى الموافقة عليها، وذلك لصالح العمل وحسن سيره وانتظامه.

## (24)

رحلت أم ليلى فانفرط عقد عائلتنا إلى الأبد، أصبح بيتنا مهجورًا بعد أن كان يعج بالحياة. زاد صمت أبي بعد أن رحل الجميع وتركوه وحده، استبدل سهرات الغيط بالجلوس وسط الأموات بالساعات، لا أعرف أيناجي أمي أم أم ليلى. حاول أصدقاؤه أن يخرجونه من تلك الحالة لكن بلا جدوى، قال لهم: أجلس وسط الأحباب علَّني أطمئن.

قالت لي فتنة باكية: خسائرنا فادحة يا كمال، بيت حُرِق وبضائع بِيعت بثمن بخس ومستقبل دُمِّر. علمت أن حامد باع البيت والأراضي التي يمتلكها، وحوَّل كل أمواله إلى حساب محمود البنكي؛ الملاحقات الأمنية لأعضاء الحزب وإيداع قادته بالسجون أرعبهما. بمجرد أن أرسل لهما محمود الدعوة سافرا على الفور. بكت فتنة بحرارة أول ما تجاوزت رجل أمن المطار؛ الخوف من أن يمنعوها من السفر كان يؤرقها، الكابوس ظل يطاردها لأيام، تحلم بضابط المطار وهو يتمعَّن في جواز سفرها، ينظر إليها بحزم ثم يجري اتصالاً، فتحضر قوة من الشرطة، يضعون الكلابشات في يدها، ويدفعونها بالقوة إلى عربة الترحيلات. يحكي لي حامد بأن صراخ فتنة كان مفزعًا، تستيقظ من حلمها المخيف صارخة، وتظل تبكي حتى الصباح.

استقرت أختاي في بلاد النفط وقد لا تعودا ثانية.

المجمع أصبح بلا طعم، لم يعد لي أصدقاء هناك، المخبر ترقَّى إلى وظيفة بالمقر الرئيسي بالوزارة، والأخرق هو الآخر نقل إلى إحدى الهيئات الحكومية بشبين الكوم. ممدوح البطل قدم استقالته وسافر مع حمادة الذي احترف الكرة في نادٍ خليجي.

البيت أصبح مكانًا مُقبضًا. ليلى لم ينتهِ حِدادها بعد، ونور بات عصبيًا للغاية. الولد يريد العودة إلى سوريا، كلما حاولت إقناعه بالبقاء يزيد من إصراره على المغادرة. قلت له: بلادك دُمِّرَت يا نور، لا يوجد في سوريا مطار أو طائرات، الصواريخ لا تتوقف عن إصابة البيوت وتدميرها. يرد بإصرار: أريد العودة إلى وطني يا عمو. أقول له: من الممكن أن تموت لو عدت إلى هناك يا حبيبي. يرد باكيًا: جدتي ماتت هنا، لم تصِبها طلقة مسدس أو سقط على بيتها صاروخ، ماتت بلا حرب يا عمو.

انتفخت بطن ليلى واستدارت ففرحت، قلت في نفسي سنتجاوز الحزن من أجل الوليد، للأسف لم ينهِ الحمل أحزان ليلى، بل زادها، تجلس بالساعات صامتة، وكلما حاولتُ أن أبادلها أطراف الحديث تبكي، تقول منتحبة ظلت أمي قلقة على حالي، وأول ما ماتت جاءت البُشرى، لم تفرح أمي يومًا في حياتها، ولدت وتعذبت ثم ماتت.

لا أدري ماذا أفعل، نور مُصِر على السفر، والده يُحدِّثني يوميًا، ويشرح لي ترتيبات عودة ابنه إلى سوريا. في البداية قابَل محاولاتي لإقناعه بترك نور معنا بصدر رحب، لكن عندما لاحظ مماطلتي في الأمر خشنت لهجته، تحوَّل حديثه من الرجاء إلى الأمر، أرسل لي بعضًا من السوريين، ليخبروني بأن القرار لا رجعة فيه. الأب يريد ابنه وهذا حقه الشرعي والقانوني، عندما رأوا دموع ليلى طمأنوها، أخبرونا بأن وصول نور سالمًا أمر مضمون، الولد سيسافر بالطائرة إلى لبنان وهناك سيقابله خاله ويُدخِله إلى سوريا بأمان.

انطلق موكبنا الصغير باتجاه المطار. ودَّعنا نور، احتضناه واستحلفناه أن لا ينسانا، أخبرته ليلى بأن ما في بطنها ستسميه نور، سواء كان ذكرًا أم أنثى، قالت له: ستُحدِّثني يا نور أول ما تصل، لا تنسَ، أول ما يأتي نور الصغير إلى الدنيا سأرسل لك بصوره.

انطلق الولد وليلى تلاحقه بحديثها: لو تأزمت الأمور اتصِل بنا، بيتنا مفتوح لك دائمًا يا نور.

بكت زوجتي بعدما غاب الولد عن نظرها. مسكتُ بيدها وجررنا أقدامنا حتى غادرنا المطار، عاد نور إلى وطنه، وتركنا وحيدين نبحث عن وطن.

**تمت**

**faridabdelazim@gmail.com**

فريد عبد العظيم

خوفاً من العادي

روافد للنشر والتوزيع

ولجتُ إلى الصندوق الأزرق، فوجدته مختلفاً عن ما أراه في جوّالي، بعد دقائق فهمت أن ما أمامي هو حساب زوجتي على التطبيق، حاولت أن أمر إلى حسابي ففشلت؛ اتصلت بليلى لتخبرني ما أفعله فلم ترد، الملل لا التلصص هو ما دفعني للاستمرار، تجولت بلا هدف في حسابها، رأيت منشوراتها الكثيرة التي طالما اضطررت إلى الإعجاب بها حتى لا تغضب، شاهدتُ تعليقاتي الخائبة لديها، ففكرت في أن أغلق جهاز الكمبيوتر وأنام، أول ما هبطت إلى أسفل الصفحة ورأيت تلك الرسائل تسمَّرتُ أمام الشاشة، ولم أفارقها إلا صبيحة اليوم التالي.

في مرة سألتُ ليلى عن الاختيارات الموجودة بجانب زر النشر في التطبيق، أخبرتني بأن مؤسس الفيسبوك أراد للجميع حرية الاختيار، من الممكن أن يرى الجميع منشورك، أو أن ترسله إلى أصدقائك فقط، أو حتى تحتفظ به لنفسك، ساعتها ضحكت، وسألتها عن مغزى أن يوجّه أحد المنشور إلى نفسه، فردت: مجرد تنفيس للصدور يا كمال.

9789777514323